

نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

ع. الحصري

تأليف
الدكتور حسين نصار

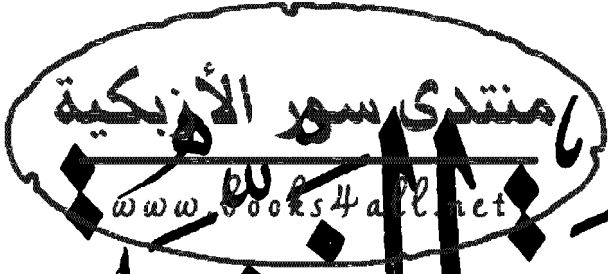
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

منتدی سور الازبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

[*https://twitter.com/SourAlAzbakya*](https://twitter.com/SourAlAzbakya)

<https://www.facebook.com/books4all.net>



نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي

تأليف

الدكتور حسين نصار

أستاذ الأدب العربي

عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة «سابقاً»

الناشر

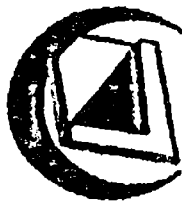
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

جميع الحقوق محفوظة للناسر

٢٠٠١ / ١٤٧٧٩	رقم الإبداع
977 - 341 - 051 - x	I. S. B. N الترقيم الدولي



الناسر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - الظاهر - القاهرة

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

إلى أمي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله المعطى الوهاب، يَسِّر لي العمل في هذا الكتاب، حين كان رسالة أريد أن أقدمها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة، لأنال درجة الماجستير، ووهبني أطيب الثمر بعد أن نوقشت في اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٤٩م، ووهبها اليوم الحياة في عالم النور كتابا سويا .

وهي بصورتها الحالية لا تختلف عن صورتها الماضية، وهي رسالة إلا قليلا جدا. فقد حرصت على الصورة القديمة، وعلى النتائج الماضية، فلم أدخل عليها غير تغييرات طفيفة لا تكاد تذكر .

وإني إذ أقدمها إلى المكتبة العربية، أرجو أن تكون لبنة في صرح البعث العربي الجديد، والنهضة المصرية الحديثة، وأن تمد دارسى الأدب العربى ببعض النقط التى تصلح مراكز للبحث فى المستقبل .

وقد أشرف على "تكوين" هذه الرسالة، ورعاها فى صغرها، حتى صارت إلى ما صارت عليه، أستاذى "مصطفى السقا" الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، فله أوجه أجمل الشكر وأخلصه.

تمهيد

ظل النقاد والأدباء العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم يوجهون جُلَّ عنايتهم، إن لم يكن كلها، إلى الشعر وحده، مما جعل النشر غريبا على الكثير منا، لا يستطيع أن يتصوره التصور الصحيح، أو المقارب للصحة، وكان من جراء ذلك ضياع كثير من النشر الذى لعله كان يفيدنا ويفيدهم، لا فى تصور الحركة النثرية وحدها، بل الحركة الشعرية أيضا، حتى إننا لا نجد لدينا من كثير من كبار الكتاب الذين كانت لهم المجلدات من الرسائل غير الرسالة أو الرسائل أو أكثر من ذلك قليلا، مثل سالم وعبد الحميد وابن العميد وغيرهم.

كان هذا الصنيع منهم، مما شجعتنى على اختيار هذا الموضوع والتمسك به، ومحاولة التغلب على العقبات التى تعترض الطريق أمام الباحث فى أمور تركها القدماء، ولم يرتدها إلا قليل من المحدثين .

ولما وقع العزم على اختيار النشر مادة للبحث، كرهت أن أتعرض لموضوع طويل عريض، لا يحتاج من الباحث إلا مجرد العرض، دون تعمق، أو نفاذ إلى بواطن الأمور. ولذلك أردت أن أضع نصب عيني مشكلة من مشاكل ذلك النشر العربى الكثيرة، فأحاول إلقاء بعض الأضواء عليها، ليقترّب الباحثون من حلها، إن لم أوفق فى الوصول إلى ذلك الحل بنفسي. ومن الطبيعى أنه ظهر لى أن أولى المشكلات فى تاريخ النشر هى نشأة النشر الفنى جملة. ولكن أردت أن أجعل المسألة أكثر تحديدا أمامى فقصرت بحثى على "نشأة الكتابة الفنية". وساعد هذا التحدد على تضيق ميدان البحث، مما يعاون على سعته، والدقة فيه، والإمعان .

وليس العنوان بغريب على الباحثين، ولكنى أحب أن ألقى عليه بعض

الأضواء، لتظهر الوجهة التي أنظر إليه منها. أما نشأة الكتابة، فقد عنيت بها ظهور الآثار النثرية المدونة، وتدرجها حتى استكمال خصائصها في الصدر الأول من تاريخها. فوصلت بها إلى عبد الحميد الكاتب، معتبرا العصر الإسلامي والأموي عصر نشأة الكتابة الفنية. ولا يدخل في رسالتي هذه أنواع من النثر العربي، وجدت في هذا العصر، وقبله، مثل الخطب والأمثال والحوار وما إليها، لأنها ليست من الآثار الكتابية. ويجب ألا يغيب عن الذهن أني أتكلم عن عصر نشأة الكتابة، ولذلك لا تعينى فروع الكتابة الفنية التي ظهرت بعد هذا العصر، مثل كتابة الكتب الأدبية والمقامات والمقالات الصحفية وما مائلها، كقولنا ظهور الإنسان على وجه الأرض، فإن ذلك لا يعنى أن يتناول ظهور جميع الأجناس البشرية، وإنما ظهور الخليقة بصفة عامة، كذلك لا تعينى الكتابة الفنية التي نشأت في الولايات الإسلامية المختلفة بعد هذا العصر، عند نضج الآداب الإقليمية، وتخصصها بمزاياها وظواهرها. وإنما يعينى ما نشأ من الكتابة الفنية في هذا العصر الذى تعالجه رسالتي، سواء أكانت هذه الكتابة في الجزيرة العربية، أم في العراق، أم في فارس، أم في مصر، أم في الشام، أم في المغرب. ولم أخصص لكل إقليم من هذه الأقاليم دراسته الخاصة، لأن الأقاليم - مع إيماننا بنظرية البيئة - لم تكن قد تميزت بعد في أدبها العربي، أو بالأحرى لم تكن وجوه الاختلاف بينها قد ظهرت بشكل واضح، فكُتابها نازحون إليها مع ولائها عن عاصمة الخلافة، والأحداث مشتركة بين جميع الإمارات والعاصمة، أو متجاوبة الآثار في غالب الأحيان .

وأما اللفظ الثانى، وهو "الفن" ، فأصعبها فى التحديد . فقد اختلف النقاد والأدباء والفلاسفة منذ قديم الزمن إلى اليوم، فى تحديد هذا اللفظ، وما استراحوا إلى تعريف بعينه . ولكنى لن ألقى بالا إلى كل هذا الخلاف، وأقصد توة إلى ما أردته

منه. فأما ما أردته أنا بعبارة "الكتابة الفنية" فهي الكتابة التي لا تصدر على السليقة، لا يقصد فيها صاحبها إلا مجرد الإفهام، وإنما أردت الكتابة التي تروى صاحبها في تجويد المعنى، وتأنى في اختيار اللفظ قبل إبرازها، لتخرج محبرة مجودة، لأنه لا يقصد منها الإفهام وحده، وإنما يقصد أيضا إثارة اللذة عند القارئ، والإحساس بالجمال. ولذلك نعتُ كتابات العرب الجاهليين، وكتابات الرسول والصحابة، بأنها غير فنية، على الرغم من فصاحتها وجمالها. فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده، وإنما أقصد الجمال الذي استحدثه صانع فنان، يعرف ما يعمل، ويريده ويبحث عنه. وإذن فأنا أقصد من هذه الرسالة نشأة الكتابة التي كان يريد كتابها إحداث اللذة الفنية في القارئ، بما يسفون عليها من خصائص، ثمرة لترويهم وتحبیرهم، ولم أقصد الكتابة البسيطة الصريحة، التي تبغى مجرد نقل ما تحوى من أفكار، ولو بلغت هذه الكتابة درجة الجمال والأناقة. وأحب أن أقول إن الأناقة في الكتابة لا تلتزم الصنعة، وإنما قد يخرج القول المرتجل التلقائي جميلا أنيقا دون ترو أو تعمل، مثله في ذلك مثل الحسنة، يغنيها جمالها عن الحلوى والزينة. أما الكتابة الفنية التي أقصدها فهي مثل الحسنة التي تشعر بهذا الحسن، وتحب أن تلفت إليها الأنظار، فتبرز أجمل مواطنه، وتعالج نقائصه .

وقد تكلم قبلی بعض الأدباء عن الكتابة أو النشر الفني، وما يحوى من فروع، ولكنى تناولت في هذه الرسالة كتابة الرسائل وكتابة التاريخ. أما كتابة الرسائل فلا يعارض أحد في أنها من الكتابة الفنية، ولكن قد يعترض بعض الناس على كتابة التاريخ. وإلى المعارضين أشير بالرجوع إلى كتاب "علم التاريخ" ترجمة الدكتور العبادى بك، وإلى المقال الأول، فى العدد الأول، من مجلة تاريخ العالم، التى

تصدرها مكتبة النهضة المصرية فى هذه الأيام^(١) . فهناك نقاش طويل عن الكتابة التاريخية، ومكانها بين العلم والفن، وقد افترق فيها المفكرون من الناس شيعتين، ذهبت الأولى منهما إلى أن التاريخ علم، ويمثلها قول الدكتور " بيورى J. B. Bury " : " التاريخ علم لا أكثر ولا أقل ". ويستند هذا الفريق إلى تعريف العلم بأنه " المعرفة المنظمة، المبوبة، المقننة"، فيدخلون التاريخ فيها. وذهب الفريق الثانى إلى أن التاريخ فن. فالعلم بالغا ما بلغ، لا يعطينا من التاريخ إلا العظام المعروفة اليابسة، ولا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام، وبعث الحياة فيها. فإذا ما أحيها الخيال، فهى بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب النحرير، حتى تبرز فى الثوب اللائق بها، وتعرض بحيث تصبح قوة فعالة فى عالمنا هذا. أما ما يتصف به رجل العلم من حياد جاف، فلا محل له، ولا يمكن أن يطاق فى مقام المؤرخ الذى يعنى بشئون النفوس الحساسة، ويبلغ الأمر بالأستاذ "ترفليان" إلى أن يقول: "من كان فاقد الانفعال والحماسة، فقلما يؤمن بانفعالات غيره، ثم هو لا يمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبدا". وربما كان التعريف القائل بأن "التاريخ هو التدوين القصصى لمجرى شئون العالم كله أو بعضه" خير ما ينير لنا الطريق إلى تصور التاريخ فهو تعريف صحيح، ويشير صراحة إلى أن التاريخ من الفن القصصى، أحد فروع الكتابة الفنية. أضف إلى ذلك أن التاريخ فى نشأته لم يكن علما خالصا فى أية أمة من الأمم، وإنما كان قصصا تحوطها المبالغة والخرافات، فهو أقرب إلى الأدب منه إلى أى شىء آخر .

وقد حاولت أن ألم إلمامة موجزة شاملة بنشأة هذا النوع من الكتابة عند

(١) أى عام ١٩٤٩ ، حين قدمت هذه الرسالة للمناقشة .

العرب. ولكنى مع ذلك لم أرنى محتاجا إلى تتبع جميع التآليف التى ظهرت فيه، إذ هناك بعض المؤلفات التى وُجدت ولكن لم نعثر إلا على أسمائها، مثل كتاب "المثالب" لزياد بن أبيه، وكتاب "نسب الأنصار" لعبد الله بن محمد بن عمارة الأنصارى، وهناك - فى غالب الظن - كتب وجدت وضاعت ولم تصل إلينا أسماؤها. ورأيت أنه يكفينى التعرض للنصوص الموجودة، وبجتها، ومحاولة تعرف خصائصها، لبيان حركة التطور عامة. أما الكتابات الضائعة فلا حيلة لنا فيها، ولا نحب الوقوف للتأسف عليها .

وأحببت فى رسالتى هذه أن أوتر الحياض المطلق، وأن أصل إلى الحقيقة العارية، والحقيقة وحدها . ولذلك أخليت ذهنى - قبل الشروع فى البحث - من جميع معارفى السابقة عن الكتابة العربية، وحاولت جهدى ألا أتميز لفكرة سابقة، أو رأى لكاتب آخر. ثم واجهت النصوص الكتابية مباشرة دون التجاء إلى الذين كتبوا عنها شارحين أو محللين أو ناقدين، كى أجعل هذه النصوص نفسها هى التى توحى إلى بما أكتبه، ولا أجعل أحدا واسطة بينى وبينها، أو بالأحرى ستارا بينى وبينها، قد يججب فيما يججب الحقائق الناصعة، أو يلونها بما يجب من أطياف. ولكنى كنت بعد أن أستوحىها كل ما يمكنى استيحاضه منها، أرجع إلى أكبر قدر ممكن من هؤلاء الشراح والمحللين والنقاد والمؤرخين، لأستعين بهم على إيضاح بعض النقط، أو معرفة ما لعله غاب عنى. وهكذا أظنى على حق حين أقول إن هذه الرسالة ثمرة جهدى الخاص، وأنها حاولت جهدها ألا تتأثر بأحد من الأدباء، وأن تصور الكتابة العربية الفنية فى نشأتها صورة صادقة كل الصدق، واضحة تمام الوضوح .

ورأيت أن الصورة تبرز وتتضح إذا ما قسمت الرسالة حسب الموضوعات لا حسب الأزمان. ولذلك خصصت أبوابا مستقلة للمسائل السياسية والدينية

والإخوانية، وراعت التقسيم الزمني في داخل هذه الأبواب، حتى يجتمع المنهجان، وتتسلسل الموضوعات دون أن تفصل بينها الفواصل الغربية عنها. وإن اتصلت بها بعض الاتصال. ولن يضر ذلك التقسيم بالتطور التاريخي للكتابة الفنية عامة. فإننا عندما نراعى هذا التطور التاريخي لكل فرع على حدة، يتيسر لنا معرفة نشأة كل فرع من فروع الكتابة الفنية معرفة دقيقة تتبع الظواهر المختلفة التي تشيع في كل فترة من عصر النشأة تتبعا دقيقا شاملا، ويتيسر لنا معرفة أسبابها وثمراتها معرفة واضحة ماثلة. فإذا اجتمعت لدينا هذه الظواهر الخاصة، أمكن معرفة ما ساد منها جميع فروع الكتابة الفنية وبحثها، فنستبطن التطور التاريخي للكتابة الفنية عامة، ونتصور الخواص التي تعاقبت عليها تصورا بارزا صحيحا. أضف إلى ذلك أنى اعتبرت العصور الثلاثة الجاهلي والإسلامي والأموي حقبة واحدة، هي حقبة النشأة، ولذلك لا يجمل تقسيمها إلى أقسام صغيرة يعنى فيها بجميع أنواع الكتابة فتزدحم بالخصائص، ويضيع علينا تسلسل التطور في كل فرع منها .

هذه هي المشكلة التي رأيت أن أتخذها موضوعا لرسالتي، وهذا هو المنهج الذي أتبعه في بحثها، راجيا أن أصل، بتوفيق من الله، إلى تقديم الصورة الصادقة الواضحة لنشأة الكتابة الفنية عند العرب .

الجزء الأول
كتابة الرسائل

الباب الأول

الرسائل السياسية

الفصل الأول

العصر الجاهلي

وصف بلاد العرب الطبيعي :

عندما نلقى نظرة شاملة على مُصَوَّر بلاد العرب نرى شبه جزيرة يتسع جنوبا ويضيق شمالا، ويغلب عليه اللون الأصفر الذي يحكى رمال الصحراء، وقد نرى اللون الأحمر الداكن الذي يمثل التلال والجبال، على أننا لا نكاد نرى أثرا للون الأخضر الذي اعتاد الجغرافيون أن يمثلوا به الأراضي الخصبة. فبلاد العرب في جملتها إذن صحراء واسعة تتخللها جبال متفرقة كثيرة، أو سلاسل جبال متصلة أحيانا من الشمال إلى الجنوب. وأقصى ارتفاع في سطح شبه الجزيرة في ناحية اليمن، ثم تأخذ في الانخفاض شمالا وشرقا حتى تصل إلى سواحل الخليج الفارسي وسواد العراق وبادية الشام، فلا تظهر غير كثبان من الرمل، أو مجموعة من الصخور الصلبة في عمان على الخليج. وليس في بلاد العرب أنهار دائمة الجريان، وإنما تمتلئ أوديتها بالمياه في مواسم المطر، ثم لا تلبث أن تجف بعد ذلك .

هذه نظرة الطائر لشبه الجزيرة عامة، دون نظر إلى أقسامها السياسية أو الطبيعية المختلفة، فربما أن نقول إنها بلاد صحراوية رملية يسكنها بدو رحل

لا يعرفون للاستقرار معنى. ولكننا إذا ما تأملنا قليلا، وجدنا ما يخالف ذلك. فبلاد العرب بها أراض غاية فى الخصب تزرع منذ آلاف السنين، وفيها المدن والقرى الآهلة بالسكان.

ويعتمد الخصب عامة على سواحل شبه الجزيرة. وكانوا يزرعون بنجد^(١) واليمامة مقادير وفيرة من القمح تسد حاجة العرب، بل كانتا لا تقلان فى القرنين السادس والسابع الميلاديين عن أرض أوربا المزروعة اليوم، وربما بذاتها خصبا فى كثير من البقاع^(٢). وكانت المراعى الغنية تنتشر على الساحل الغربى، وفى أواسط بلاد العرب فى أرض نجد المشهورة بمراعيها التى تربى فيها الخيول الكريمة، ومن أشهر المناطق الخصبة فى بلاد العرب الأحماء^(٣)، مثل حمى ضرية، وحمى الربذة، وحمى فيد، وحمى النهر، تلك المناطق التى بلغ من خصبها ما دفع بعض القبائل القوية إلى التحكم فيها وقصرها على أنفسهم، ومنع غيرهم منها، ومن ثمت سميت الأحماء. ويشبه هذه الأحماء فى خصبها أراضى الدهناء^(٤)، والمناطق التى تسمى الدارات، وهى كثيرة منتشرة فى أنحاء الجزيرة، وقد ذكر منها البكرى وياقوت عددا كبيرا. وكان الحجاز نفسه تتخمه الأودية الخصبة والآكام التى تسكنها القبائل وتقيم حولها القرى والضياح. وكان ينبت بسفوحه بعض الحبوب والثمار حيث توجد العيون والآبار. ولعل ذكر الطائف يغنيننا عن كل كلام، فهى بستان مكة المشهور بفواكهه المنوعة الجيدة، ومصيف أثريائها. وكان ينتشر فى المدينة وحولها الأراضى الخصبة

(١) هل : ثقافة العرب - ص ٢ .

(٢) انظر البكرى: معجم ما استعجم ، مادة ضرية ، وبالوتا : معجم البلدان، مادة حمى، لمعرفة مقدار خصب هذه المواضع .

(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب - ص ١٧ .

التي استغلها اليهود أحسن استغلال حتى أدخلوا فيها وفي مستعمراتهم الزراعية في شمال بلاد العرب: خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى، أدخلوا فيها أنواعا جديدة من الأشجار وطرقا حديثة للحراثة والزراعة بالآلات^(١).

هذه بلاد العرب ليست صحراء مجذبة شاملة كما كنا نحسب دائما، وإنما هي صحراء تنتشر فيها المناطق الخصبة الزراعية والمراعى، حيثما توجد الآبار والأمطار، أو حيثما يتيسر الحصول على الماء .

الاستقرار :

وكما يخطئ من يظن أن بلاد العرب صحراء جرداء، لا نبات فيها ولا ماء، يخطئ الذين يظنون أن أهلها بدو رحل، لا يقرون في مكان، ولا يتصلون بالأرض التي يسكنونها اتصالا وثيقا كأهل البلاد الزراعية، وإنما يتربصون بمواسم الغيث فيخرجون بكل ما لهم من نساء وإبل يتطلبون المرعى^(٢).

ونحن لا نستطيع أن نساير هؤلاء الذين يطلقون القول إطلاقا، وخاصة بعد أن رأينا بلاد العرب ليست محرومة الماء والخصب، بل توجد فيها أراض واسعة تشمل واحات ومستعمرات زراعية ومراعى غنية تربي عليها ماشيتهم التي هي أعظم ثروتهم. فهل كانت الحياة في تلك المناطق الخصبة حياة رحلة وانتقال أو حياة مكث واستقرار ؟

ما أظن أنى في حاجة إلى كلام عن حياة إمارتى الحيرة وغسان، وأن أقول إن

(١) يذكرنا هذا بمعاملة الرسول الخاصة لليهود وادى القرى وخبير وما جاورها في غزواته لم بسبب مهارتهم في الزراعة .

(٢) أحمد أمين - فجر الإسلام - ص ٤ .

الحياة فيهما لم تكن حياة بدوية، عمادها التنقل وطلب الكلاء، فما يستطيع أن يقول بهذا أحد، وما أظننى بحاجة إلى الكلام على قُرى الحجاز وشمال بلاد العرب، تلك القرى والمدن التى غلبت عليها الزراعة، بل أدخلت فيها الآلات الزراعية الحديثة - فى ذلك الوقت - من الأقطار الأخرى، وما أظننى بحاجة إلى الكلام على مكة، تلك المدينة التى انتقلت إليها ثروات اليمانيين والرومان والهنود التى انهمرت عليها الأموال، فما كانت الحياة فيها حياة رحلة وانتقال، إلا إذا اعتبرنا الرحلات التجارية رحلات بالمعنى الذى يقصده الباحثون حين يطلقون هذا اللفظ على العرب إطلاقاً .

ولكن ما شأن الحياة فى غير هذه المناطق الزراعية والتجارية ؟

كانت المناطق الأخرى تسكنها القبائل الرعوية التى تطلب الغيث والكلاء، ولكنها لم تكن تطلبهما أتى كانا: فى شمال شبه الجزيرة، أو جنوبه، أو شرقه، أو غربه، وإنما كان لكل قبيلة موطن خاص، أو مجال خاص لا تتعداه هى، ولا تتعدى عليه القبائل الأخرى إلا إذا نشبت الحروب، كما يحدث بين الدول حين تتعدى إحداها على الأخرى. والقبيلة فى موطنها هذا حرة الحركة والتنقل، تتبع مساقط المطر، ومنابت الكلاء فى المرباع والمصايف، فهو موطن دائرى، أو موطن أكبر تدور فيه رحلات موسمية، كأن تقضى القبيلة صيفها فى موضع، وربيعها فى موضع. ولكن هذه المواضع لا تتعدى حدود إقليمها الأكبر، ويظهر هذا فى أشعارهم، وفى قول العلماء أنفسهم إن قبيلة كذا كانت تسكن كذا، وقبيلة كذا كانت تسكن كذا^(١). وقد سجل الشاعر الجاهلى الأخنس بن شهاب التغلبى مواضع القبائل فى قصيدة، يقول فيها^(٢):

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام - ص ٨ .

(٢) الفضليات ٢ : ٣ - والأعلام المذكورة فى القصيدة أسماء قبائل ومواضع .

لكل أناس من معد عمارة
لكيز لها البحران والسيف كله
تطير عن أعجاز حوش كأنها
وبكر لها ظهر العراق وإن تشأ
وصارت تميم بين قف ورملة
وكلب لها خبت فرملة عاج
عروض إليها يلجشون وجانب
وإن يأتيها بأس من الهند كارب
جهام أراق ماءه فهو آئب
يحل دونها من اليمامة حاجب
لها من حبال مُنتأى ومذاهب
إلى الحرة الرجلاء حيث تحارب

... القصيدة

إذن هذه حياة قد نصيب إذا سمينها شبه مستقرة، ونخطئ إذا وصفناها بعدم

الاستقرار .

أما الهجرات الكبرى وإغارة القبائل بعضها على بعض فهذا أمر مشاهد ملموس حتى في البلاد المتحضرة اليوم. فإنه عندما تشتد السنون بالقبيلة أو يشتد عليها الضغط السياسي أو الاقتصادي من قبائل أو دول أخرى، تضطر إلى ترك موطنها الأصلي، آسفة غير قالية. ولا يناقض ذلك الاستقرار، وإنما يجعلنا ننظر إليه مخففاً. ولا أدل على ذلك من اضطرار القبائل اليمانية المتحضرة المترفة لترك ديارها والهجرة إلى الصحراء شمالاً بعد انهيار سد مأرب، وسقوط الدول اليمانية المزدهرة، ومن اضطرار القبائل العراقية إلى ترك موطنها الحصيب الفنى والهجرة إلى صحراء العرب، فإلى اليمن عندما اشتد عليهم ضغط القبائل الآتية من الشمال .

ولعل الشعر العربي كان من العوامل الدافعة إلى رمى العرب بعدم الاستقرار. فهذه القصائد العربية تبدأ بالأطلال، والديار المهجورة، وذكر الأيام السالفة بها، وفراقها طلباً للمرعى والكلاء، وما إلى ذلك، مما جعلنا ننظر إلى العرب كأنهم قوم

رُحِّل لا يقر لهم قرار. ولكن الشعراء ما أرادوا ذلك، وإنما أرادوا رحلاتهم القصيرة الصغيرة فى موطنهم الكبير، وانتقالهم بين المصايف والمرباع .

ولعلنا لا نبعء عن الصواب إذا قلنا آخر إن العرب عرفوا الاستقرار فى المدن والقرى الزراعية والتجارية، وعرفوا شبه الاستقرار فى المراعى المتناثرة، وعرفوا عدم الاستقرار فى صحاريهم الماحلة .

العزلة :

وخذعت بلاد العرب الدارسين خدعة أخرى، بقولهم إنها صحراء. إذ الصحارى أراض فقيرة، لا يتيسر للمتحضرين العيش فيها، ولا تطمع الدول القوية فى استعمارها، لفقرها وتمنعها على الجيوش الجرارة. وفرعوا على ذلك أن سكانها معزولون عَزلة تامة عن أمم الأرض، فهم منظرون على أنفسهم فى جزيرتهم، لا يكاد يحس بهم أحد، ولا يكادون يعرفون من شئون الدنيا الصاخبة بالحياة حولهم شيئاً .

ولكن الحقيقة أن العرب كانوا بعيدين عن العزلة والسكون، إذ اتصلوا بالحضارات التى قامت حولهم منذ قديم الزمن، على اختلاف أنواعها ومصادرها .

وكانت الطرق الرئيسية التى تسربت الثقافات من خلالها إلى بلاد العرب، هى:

(١) الاستعمار : فقد أنشأت الأمم المحيطة بالعرب مستعمرات عسكرية على التخوم بين الجزيرة العربية وبينهم لحراسة الأرضى الزراعية أو المناجم المعدنية. وعلى ذلك قامت الصلة بين العرب والمصريين منذ قديم الزمن فى أيام الفراعنة الأولين. إذ سار الفراعنة فى أيام الأسرات الأولى باحثين عن النحاس فى شبه جزيرة سينا، وتوغلوا فى السير حتى وصلوا إلى شمال الحجاز وجنوبى سورية،

واستعمروا تلك الجهات، وأقاموا المخافر التي كان من بينها مستعمرة في موضع المدينة اليوم. وعرفت الأمم تلك السيطرة المصرية على بلاد العرب، حتى كان الأشوريون - البابليون يطلقون لفظ "مصر أو مصر" على القطر المصري وشمال بلاد العرب وجنوبي سورية أيضا . واستعمل هذا الطريق في التجارة أيضا، كما استعمل طريق البحر الأحمر. ويظهر تأثير المصريين في مشروعات الري في الجنوب، وفي التماثيل والآلهة واللغة في الشمال .

وحاول العراقيون أيضا استعمال المناطق المجاورة لهم، فتتابعت حملاتهم منذ عهد سرجون الأشوري عام ٧١٥ "ق م" وربما من قبل وتمكنوا فعلا من إخضاع بعض القبائل في الجاهلية البعيدة والقريبة. ولم يكن اتصال العراقيين بالعرب حريبا على الدوام، بل كان سلميا أيضا عن طريق التجارة والرحلات والهجرات الفردية والجماعية أحيانا، من الطرفين على السواء. فتسربت الثقافة العراقية إلى العرب، ويظهر ذلك في مشروعات الري والحضارة اليمينية في الجنوب وفي الديانات واللغات في الشمال. وكانت هذه الصلة غاية في الوضوح والشدة قبيل الإسلام .

ومن أبرز الأمثلة على هذا الاستعمار إمارتا الحيرة وغسان، اللتان لا نحتاج إلى الكلام عنهما، وعن الدور الذي أدتاه في حمل الثقافات الهلينية والفارسية إلى العرب، إذ كل من له اتصال بالأدب العربي يعرف ذلك .

(٢) ومن الروابط بين العرب وغيرهم، التجارة: وقد كانت بلاد العرب من أهم المراكز التجارية في العالم القديم، إذ تجمعت فيها تجارة اليمن وحضر موت والبحرين والهند والصين والحبشة ومصر والشام. وكانت توزع هذه الواردات على العالم القديم أجمع، وخاصة مصر والرومان وفارس .

وعرفت بلاد العرب عدة طرق تجارية، أهمها الطريق المار باليمن والحجاز إلى الشام. وكان هذا الطريق في أول أمره بيد اليمنيين وحدهم، ثم اليمنيين والأنباط، ثم الحجازيين وحدهم بعد تدهور الفريقين الأولين. وكان الحجازيون يخرجون في قوافل كبيرة قد تبلغ خمس مئة وألف بعير. فتشبه الجيش، كما يقول سترابو. فيقدمها الرواد لتعرف ما في الطريق، والهداة يهدون السبيل، والحراس يخفرونها.^(١) وكان لهم رحلتان: صيفية إلى الشام، وشتوية إلى اليمن.^(٢)

وكان لمكة مركز خاص في التجارة، إذ كانت على مفترق عدة طرق تجارية تسير إلى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة، ومنها إلى أقطار العالم القديم. وكان بنو عبد مناف من قريش يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة، فكان هاشم يتوجه إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس. وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم بسوء.^(٣) وكان كل أخ منهم يأخذ من ملك البلد الذي يقصده أمانا لهم، فكان هذا أشبه بالروابط والعلاقات بين أمراء مكة وغيرهم من الملوك.^(٤)

وتحضر المكيون حتى قال عنهم أوليري^(٥): "من الصعب أن تتخيل شيئا أبعد عن صورة الحياة العربية الماثورة من هذه المدينة التجارية الغنية التي فقد رجالها كل ميل للحرب ورضوا باستخدام جنود مأجورين (يقصد الأحابيش)، وجعلوا مدينتهم

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام - ص ١٦ .

(٢) القرآن : السورة ، ١٩٦ .

(٣) القالي : النوادر ، ص ١٩٩ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ١ : ٦٤ .

(٥) أوليري : بلاد العرب قبل الإسلام ، ١٨٤ .

مواطننا مستتب الأمن ومركزا للبيوت التجارية فى آسيا الغربية". ونحن نصدق كل ما ذهب إليه أوليرى إلا أن لفظ الأحابيش خدعه، فظنهم جنودا ماجورين من بلاد الحبشة. والحقيقة أنهم عرب خلص من بنى الهون من خزيمه وبنى الحارث من كنانة، وبنى المصطلق من خزاعة، حالفوا قريشا وكانوا من الغلاة فى دينهم. وأطلق عليهم هذا الاسم من تجمعهم وتحالفهم (التحيش : التجمع) أو من عقدهم هذا الحلف على جبل حبشى بجوار مكة، أو فى سوق تهامة القديم المسمى حباشة^(١)، وفى ختام كلامنا عن التجارة نذكر قول أوليرى^(٢): "وقد نقول - ونحن آمنون تماما - إن كل مواطن مكى فى القرن السابع الميلادى قام برحلة على الأقل إلى بصرى أو الحيرة".

(٣) ومن الأمور التى كانت تربط العرب بالعالم الخارجى، البعوث الدينية فقد هاجر اليهود إلى بلاد العرب منذ قديم الزمان كلما اشتد عليهم ضغط الأعداء أو قست عليهم المجاعات، وانتشرت اليهودية فى شمال الحجاز وفى نجران من اليمن. وكان اليهود واسطة انتقال الثقافة الهلينية لبلاد العرب، كما عرفوا العرب بالزراعة والتجارة وصناعة السيوف والدروع والآلات والصابغة وغير ذلك .

وأخذت المسيحية تتسرب إلى بلاد العرب منذ القرن الرابع الميلادى، وكان أباطرة الرومان يشجعون هذا الانتشار لأن فيه بسطا لنفوذهم السائر وراء المسيحية وعلى الرغم من عدم ملاءمة التساهل واللين المسيحيين للخلق العربى، وغموض المبادئ المسيحية على عقله، فإن المسيحية انتشرت فى الحيرة وغسان ووادى القرى ونجران، التى كانت مذابحها السبب فى استعمار الحبشة للبلاد اليمنية، وهكذا

(١) انظر تاج العروس . مادة "حبش" ، وابن الأثير . الكامل ١ : ٤٣٨ ، ٤٤٢ - ٢ : ١٢ ، ١٥٤ ، والأزرقى: أخبار مكة ١ : ٦٦ .

(٢) بلاد العرب قبل الإسلام - ١٨٨ .

يمكننا القول بأن المسيحية نشرت الثقافة الهلينية والحبشية في البلاد .

أظننا الآن نستطيع أن ننكر العزلة المدعاة إنكارا شديدا دون أن نخاف لوم أحد، فهذه بلاد العرب حركة دائبة من داخل إليها وخارج منها، داخل آت بثقافات مختلفة، وخارج يرجع بثقافات مختلفة، حتى قيل^(١): "لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى إسرائيل واليونان، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنهم أتت أخبار السند وفارس، ومن سكن اليمن علم بأخبار الأمم جميعا، لأنها كانت في ظل الملوك السيادة" . ولكن يجب أن نذكر أن معارفهم لم تكن دقيقة صحيحة، وإنما نالها بعض الاضطراب والتشويه في أثناء قطعها القفار والأقطار إليهم .

الكتابة الخطية:

في هذه الأحوال، والثقافات تصطرع في بلاد العرب، عاش العربي تتنازعه هذه القوى المختلفة. فمن قوى فارسية تغزوه من الشرق، إلى قوى بيزنطية تنفذ إليه من الشمال الغربي، إلى أخرى حبشية تمث خطاها إليه من الجنوب؛ ومن يهودية، إلى مجوسية، إلى وثنية، كلها تحيط به، وتوغل في بلاده، وفي عقله، وفي قلبه، تاركة آثارا، قد تعمق أو لا تعمق، ولكنها آثار على كل حال .

وكان من هذه الآثار الكتابة أو الخط العربي. وقد ادعى كل من أنصار هذه القوى المختلفة أنه صاحب الفضل في ظهور هذا الحادث الجديد. فالأب لويس

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام - ٢٣ .

شيخو المسيحي يدعيه للمسيحية^(١)، والأستاذ إسرائيل ولفنسون اليهودى ينسبه لليهودية،^(٢) وعلماء آخرون غيرهما يدعونه للحيرة^(٣) أو لليمن^(٤). ولكن هذه الأقوال جميعها تجانب الحق، وتعيد عن الطريق السوى. فالكتابة العربية لا ريب وليدة الكتابة النبطية، التى كانت تعيش فى شمال الحجاز وجنوبى الشام، فى القرون الأولى من الميلاد، تلك الكتابة المتفرعة من الخط الآرامى فى القرن الأول قبل الميلاد على وجه التقريب. وقد أخذت هذه الكتابة تتطور تطورا سريعا، وتأخذ مسحتها النبطية فى الزوال، وتصطبغ بالصبغة العربية، فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين. وفى القرنين الخامس والسادس من الميلاد انحلت الكتابة النبطية، وزالت تماما، ولكنها بعثت فى صورة أخرى هى الكتابة العربية .

أما أقوال الكتاب العرب الأقدمين من أمثال الصولى وابن النديم وابن خلدون فلا تستحق العناية أو الجدل إذ لا تستند إلى دعامة قوية، أو دليل واضح.

لهذا نقول: إن الخط العربى لم يؤخذ من الحيرة أو اليمن أو غيرهما، وإنما ولد ونشأ فى بلاد العرب الشمالية "الحجاز"، لأن الكتابة من الأشياء الضرورية للتجارة، وأهل الحجاز - كما رأينا - قوام حياتهم التجارة، وهى مورد رزقهم الأول: وقد رأينا بوضوح تحقق الصلة التجارية بين عرب الحجاز والنبط منذ ظهور هذه الدولة على حدود الشام حتى زوالها، بل يظن بعض الباحثين أن النبط بسطوا

(١) لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ٢ : ١٥٢ .

(٢) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٢٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ٤٧٣ .

(٣) ابن النديم: الفهرست ٦ ، والصولى : أدب الكتاب ٣٠ ، والويرى : نهاية الأرب ٣٠٧ .

(٤) الفيروز آبادى : القاموس المحيط ، مادة "جرم" .

سلطانهم حقبة من الزمان على الحجاز، ويستدلون على ذلك بآثارهم فى الكتابة واللغة والدين . (١)

وكانت التجارة العامل الأول الذى أظهر الكتابة فى بلاد العرب، ولذلك نجدها منتشرة حيث توجد التجارة، فهى تسير فى رحال الإبل، ولعل ذلك سبب رؤيتنا الكتابة العربية ظاهرة كل الظهور فى المناطق التجارية، إذ لم يكن التجار العرب مستطيعين الاستغناء عنها فى معاملاتهم الداخلية أو الخارجية، فالتاجر كان يجمع من أفراد المدينة الواحدة ما يكون به قافلة تجارية واحدة، ترتحل إلى البلدان المختلفة للتجارة^(٢). فهو إذن يحتاج لأن يعرف حصة كل من هؤلاء فى القافلة وفى أرباحها، وما كان ذلك ليتيسر له إلا بالكتابة. وكذلك كان هؤلاء التجار محتاجين للكتابة فى العهود وكتب الأمان بينهم وبين القبائل التى تمر تجارتهم بها سواء كانت هذه العهود تجارية فحسب، أو تجارية وسياسية معا، فقد عرف العرب الأمرين جميعا، ولا يقتصر الأمر على هذه المعاملات والعهود الداخلية، بل هناك العهود الخارجية التى تعقد بينهم وبين الرومان أو الفرس أو اليمانيين أو الحبشيين أو غيرهم لجلب التجارة، والسماح بالاتجار فى تلك البلاد المختلفة. يظهر لنا ذلك فى هذا الخبر الذى يرويه القالى فى نوادره تحت عنوان: "مطلب خروج بنى عبد مناف إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس لأخذ العهود من ملوكها، وتأمين السبل لتجار

(١) من شاء استقصاء هذا البحث فليرجع إلى كتاب "أصل الخط العربى" للدكتور خليل يحيى نامى الأستاذ المساعد بكلية الآداب .

(٢) انظر موقعة بدر فى الجزء الثانى ص ٢٥٧ من سيرة ابن هشام، يقول ضمضم بن عمرو لقريش وهو يستنفرها لحرب النبى: "اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه .." وانظر إسلام أبى العاص بن وائل فى سيرة ابن هشام ٢ : ٣١٢ . والطبرى ٣ : ٢٣٠٥ .

قريش" (١) .

الكتابة وشئون السياسة :

لم يحتج العرب للكتابة فى التجارة وحدها، بل فى السياسة أيضا، فقد ذكر الباحثون أن مكة عرفت نوعا من الحكومة الجمهورية فى أيامها الجاهلية^(٢) وكان هذه الجمهورية دار تداول فيها الرأى فى مشاكلها التجارية والسياسية والاجتماعية، وتعقد فيها المعاهدات السياسية، لدفع العدوان أو تأمين السبل أو تبادل المساعدات العسكرية، وما إلى ذلك مما يكون بين دول اليوم .

(١) ص ١٩٩ . قال: كانت قريش تجارا، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم، ويبيعونها على من حولهم من العرب. فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام. فنزل بقيصر .. قال له: أيها الملك، إن قومي تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لى كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من آدم الحجاز وثيابه. تباع عندكم فهو أرخص لكم . فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافا - والإيلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم بغير حلف، إنما هو أمان الطريق - وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملانها، ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم، فأصبح ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شىء أتوا به يركة .. وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر إليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم .. وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافا كفعل هاشم والمطلب .. وخرج نوفل بن عبد مناف .. فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش، وإيلافا لمن مر به من العرب .. واتسعت قريش فى التجارة فى الجاهلية، وكثرت أموالها فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة فى الجاهلية والإسلام" .

(٢) انظر الفصل الذى عقده أوليرى عن مكة فى كتاب "بلاد العرب قبل الإسلام" .

وليس هذا بقول منكر، فإن ذكر تلك المعاهدات والمخالفات شائع فى الأدب العربى^(١)، وخاصة أيام العرب ووقائعها، وإنا لنذكر دون شك حلف الفضول، وحلف قريش ضد بنى هاشم بعد ظهور النبى، وكتابتهم الصحيفة المشهورة، وتعليقها فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم^(٢).

وكان لكل نوع من هذه المعاهدات اسم خاص به: فالمهارق نوع من الكتب يخص كتب الدين أو كتب العهود والمواثيق والأمان^(٣)، والإيلاف: عهد الأمان بغير حلف، إنما هو أمان انطريق^(٤).

بل لعل العرب عرفوا أنواعا أخرى من الكتابة غير هذه العهود التجارية والسياسية. فقد نقل بعض الرواة أن العرب كتبوا المعلقات على القباطى بماء الذهب، وعلقوها على جدران الكعبة.

وعندما نبحت عن المواطن التى انتشرت فيها الكتابة، لا نطيل البحث فى المناطق المسيحية واليهودية، فمن الطبيعى أن تنتشر فيها الكتابة، وذلك أمر ظاهر لا يحتاج إلى إثبات، حتى لقد سُمى العرب الأميين^(٥)، وسُمى النصارى واليهود أهل الكتاب^(٦). وقصة طرفة والمتلمس مع عمرو بن هند وما كتب لهما فى الصحيفتين

(١) قال الحارث بن حنزة فى معلقته .

واذكروا حلف ذى الجواز وما قد
حذر الجور والتعدى وهل ينـ

دم فيه العهود والكفلاء
قضى ما فى المهارق الأهواء

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣٧٦ .

(٣) الجاحظ: الحيوان ١ : ٧٠ .

(٤) القالى: النوادر ١٩٩ .

(٥) سورة آل عمران / الآية ٢٠ ، ٧٥ - والجمعة / الآية ٢ .

(٦) سورة العنكبوت / الآية ٤٦ - والأحزاب ، الآية ٢٦ ، والحديد / الآية ٢٩ ، والحشر ، الآية ٢ .

إلى عامله بالبحرين قصة مشهور في تاريخ هذين الشاعرين. ولكن الكتابة العربية كانت شائعة أيضا في مكة الوثنية، وذلك بسبب التجارة، حتى يقال إن مكة كانت تفوق المدينة في عدد الكتاب، فقد جاء الإسلام وفي مكة سبعة عشر كاتباً^(١)، وفي المدينة أحد عشر^(٢)، مع أن المدينة موطن اليهود، وكان يظن أن أهلها أكثر معرفة بالكتابة لا تصالهم بهم، وهم أهل الكتاب. ولكننا لا نظن هذا التحديد إلا كتحديد الصرفيين القدماء أن كذا من الموازين الصرفية لم يأت فيه إلا كذا كلمة فهم مغرمون بالإحصاءات التي قد يرفضها الواقع الذي تشهد به المعاجم، وإن لم يتنبهوا لذلك. فإني أظن أن مكة خاصة كان بها أكثر من ذلك العدد من الكتاب، وإن لم أستطع أن آتي في ذلك برأى قاطع أو إحصاء دقيق لقللة المصادر. ولم يقتصر أمر ظهور الكتابة على هذه المواطن المتحضرة، بل تسربت إلى البادية نفسها^(٣). فعرّفها أكثم بن صيفى حكيم تميم وخطيبها^(٤)، وابن أخيه حنظلة بن الربيع^(٥) كاتب النبي صلى الله عليه وسلم، والمرقس الأكبر^(٦)، وليد بن ربيعة^(٧). ولعل كثرة تشبيه الشعراء الأطلال الدارسة بالكتابة يدل على انتشارها ومعرفتهم بها. يقول الأحنس ابن شهاب التغلبي، وهو شاعر جاهلي :

لابنة حطان بن عوف منازل كما رقص العنوان في الرق كاتب

(١) البلاذري، فتوح البلدان ٤٧١ .

(٢) نفس المرجع ٤٧٣ .

(٣) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ٤ .

(٤) الميداني : مجمع الأمثال ٢ : ٨٧ .

(٥) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٢ .

(٦) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٣٠ .

(٧) أبو الفرج : الأغاني ١٤ : ٩٣ .

ويذكر معاوية بن مالك تجويد الخط فيقول: (١)

فإن لها منازل خاويات على غلى وقفت بها الركابا
من الأجرع أسفل من نميل كما رجعت بالقلم الكتابا
كتاب محبر هاج بصير ينمقه وحاذر أن يعابا

وينسب الحارث بن حلزة، الذي كان يعيش في منطقة النفوذ الفارسي،
الصحف للفرس فيقول (٢) :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس
وكانوا يكتبون على الحجارة البيض والعظام، وفي عُسب النخل، وفي الجلد
والأديم، يقول المرقش الأكبر (٣) :

الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم
ويقول ليبد (٤) :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تابد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجرد متونها أقلامها

(١) المفضليات ١ : ١٥٧ .

(٢) المفضليات ١ : ١٣٠ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٣٧ .

(٤) معلقة ليبد. الوحي : الكتابة . السلام : الحجارة البيض والعظام، والزبر : الكتب .

ولم يكثر ذكر الكتابة فى الشعر الجاهلى وحده، بل جاء فى القرآن أيضا، فالقرآن يحث على تدوين الديون والمعاملات التجارية وغيرها، مما يدل على أن الكتابة كانت شائعة عندهم، يقول تعالى^(١): ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ، وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ، وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ . وكذلك يذكر القرآن أدوات الكتابة، مثل القلم واللوح والقرطاس والصحف، فيقول جل شأنه^(٢): ﴿رَن * وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْتُرُونَ﴾ ويقول: ^(٣) ﴿وَالطُّور * وَكِتَابٍ مُّسْتَوْر * فِي رَقٍ مُّنْشُور﴾ . ولعلنا نشعر بتعظيم القرآن لهذه الأدوات فى قسمه بها. ومما يدل على شيوع الكتابة أيضا دوران لفظ الكتابة فى القرآن فى المواضع المختلفة، والمعانى المتنوعة التى تتفرع عن لفظ الكتابة بمعنى التدوين والتثبيت، مثل قوله تعالى^(٤): ﴿كُتِبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّا أَوْ رَسُلَىٰ﴾ وغير ذلك من الآيات التى توحى بانتشار الكتابة منذ زمن غير قليل .

هذه الكتابة التى عرفها العرب فى جاهليتهم. ولكن ما يزال يهجس بنفسى خاطر وهو يعاودنى كلما حاولت دفعه ويلح على، ذلك أن بعض العرب الحجازيين عرف غير الكتابة العربية أنواعا أخرى من الكتابات، أعنى أنهم ربما عرفوا الحميرية، أو النبطية، أو الفارسية، أو اليونانية، أو الحبشية. أما الحميرية فيرجح أنهم أخذوها باتصاهاهم باليمن، فإنهم يقولون: إن المرقش الأكبر كان يعرفها^(٥). وأما

(١) البقرة / الآية ٢٨٢ .

(٢) القلم / الآية ١ .

(٣) الطور / الآية ١ ، ٢ ، ٣ .

(٤) البقرة / الآية ٢١٦ .

(٥) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٢٠ .

النبطية فلا بد أنهم عرفوها، لأنهم اشتقوا كتابتهم منها^(١).

وأما الفارسية فقد عرفت في الحيرة خاصة، ويقال إن "عدي بن زيد كان من تراجمة أبرويز.. (و) أن أباه.. كان.. شاعرا خطيبا وقارنا كتاب العرب والفرس"^(٢).
وأما الحبشية فيظن أنها كانت معروفة في اليمن. ولكنى أظن أن الحجازيين عرفوا هذه الكتابات عن طريق الاتجار مع أهلها، ولولا ذلك ما استطاعوا عقد العهود والمخالفات التي كانت بينهم، والتي ألمعنا إليها آنفا. بل لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم كاتبه زيد بن ثابت بتعلم الكتابة العبرية والسريانية،^(٣) وقد فعل، كما يقال إنه تعلم الفارسية والحبشية^(٤). ونستطيع أن نرى في هذا الحدث إيماءة أو إشارة باحتمال وقوع أمثاله في الجاهلية، القريبة من الإسلام على الأقل. ولعل هؤلاء المتألمين والمتحرفين من أمثال ورقة بن نوفل وأميمة بن أبي الصلت عرفوا هذه الكتابات، ما دام يقال عنهم إنهم قرأوا في كتب النصارى واليهود^(٥)، وإن كان هذا لا يصل إلى درجة اليقين، لأنهم ربما قرأوا هذه الكتب في اللغة العربية، على الرغم من عدم سماعنا بمثل هذه الترجمات.

الكتابة الفنية :

اضطررنا أن نقطع كل هذه الرحلة السابقة في بيداء الصحراء الجاهلية منقبين باحثين، بسبب قلة النقوش العربية للغة التي نعرفها، وعدم وصول نصوص عربية

(١) خليل يحيى نامى: أصل الخط العربى ١٠٤ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢ : ٢٦٥ .

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب ١ : ١٩٤ ، وعبد الحى الكنانى: التراثىب ١ : ١٢٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٦ .

(٥) سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ ، ٢٠٣ ، ٢٣٨ .

مكتوبة إلينا، كى نستطيع أن نجيب عن السؤال التالى: هل عرف العرب الكتابة الفنية؟ وهل كانت هذه الأحوال التى درسناها تستلزم وجود هذا النوع من الكتابة؟ أم تستلزم عدم وجودها؟

أما القول بيداوة العرب وفطرية حياتهم وتنقلهم وعدم تحضرهم فقد أثبتنا بطلانه، وأثبتنا أن العرب عرفوا حياة مستقرة متحضرة، حياة فيها من الاستقرار والتحضر ما لا ينافى وجود كتابة فنية. وأعنى بذلك أن حال العرب فى العصر الجاهلى القريب من ظهور الإسلام لم تستلزم عدم وجود الكتابة الفنية. ولكن هل يعنى هذا أنها تستلزم وجودها؟ ذلك ما أشك فيه. فالعرب عرفوا الاستقرار والتحضر، ولكنهم لم يصلوا فى ذلك الاستقرار إلى الدرجة التى تستلزم ظهور الفنون التى تنشأ فى الحضارات العريقة. إذن فعرب الشمال لم يبعد عهدهم بالحضارة أو لم يطل أمد الحضارة عليهم حتى يتمكنوا من إيجاد فنون تعتمد على تراث غنى من الحضارة، فلا نجد عندهم الرسم ولا النحت ولا ما شابهها من الفنون إلا بدرجة بدائية نستطيع أن نغض النظر عنها. وكذلك كان حال الكتابة الفنية، إذ تباينت فيها الآراء، واشتجرت العقول، فمن مؤيد لوجودها، ومن ناف لظهورها، ولكن الجميع - على الرغم من هذا الاختلاف الكبير - يتفقون على عدم وصول أية كتابة فنية جاهلية حقيقية إلينا، وعلى الشك فى الرسائل القليلة التى تبلغ العشر أو فوقها بقليل، ووصلت إلينا فى الكتب المختلفة^(١). فنحن إذن أمام آراء نظرية لا تسندها مواد أو وثائق تذهب بنا إلى تأييد أحد الفريقين ورفض الآخر. لكن نظرنا فى أحوال العرب فى جاهليتهم أدى بنا إلى القول بأن ظروف حياتهم لم تكن

(١) جمع هذه الرسائل الأستاذ أحمد زكى صفوت فى صدر الجزء الأول من "جمهرة رسائل العرب".

تستلزم عدم وجودها، فالحالة بين بين. ولا نستطيع أن نقول بوجود الكتابة الفنية اعتماداً على وجود القرآن، كما قال بعض الدارسين، لأننا من جهة أخرى إذا نظرنا إلى رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم نجدها من البساطة والسهولة بحيث تجعلنا لا نحكم بوجود أطوار من الكتابة قبلها. فكيف إذن ننظر إلى القرآن ولا ننظر إلى كتابات النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين .

وهكذا تظل الحالة مائعة، لا نحكم بوجود كتابة فنية، لأننا لم تصل إلينا أية وثائق منها، كما لا نحكم بأن حياة العرب كانت تستلزم عدم وجودها، ولكننا أشد ميلاً إلى رفض وجود هذا النوع من الكتابة في ذلك العصر، وخاصة بعد دراستنا لكتابات النبي البسيطة. وسواء ملنا مع هؤلاء أو هؤلاء فإننا لن نستفيد من هذا الميل شيئاً، فلن نعرف خصائص هذه الكتابة الفنية: أو شيئاً عنها، ما دام لم يصل إلينا شيء منها .

الفصل الثانى

صدر الإسلام

انبثق نور الإسلام على يد محمد النبى الأمى الذى لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، وكان القرآن معجزته الكبرى، يتنزل عليه آيات فى أغلب الأحيان، واحتاج النبى إلى حفظه من الضياع، ومن الطبيعى أن الطريق إلى حفظه هو التدوين. فاضطر النبى صلى الله عليه وسلم إلى اتخاذ الكتاب أول ما أمكنته الفرصة. ونحن عندما ننظر إلى أوائل المؤمنين بالإسلام نجد كثيرا منهم كتابا، مثل الخلفاء الأربعة، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعامر بن فهيرة، ومعيقب بن أبى فاطمة، وحذيفة بن اليمان وغيرهم. وذلك أمر غير غريب، فإن الكتاب أو الذين يحسنون الكتابة هم مثقفو العرب ولا ندهش إذا آمن بالدعوة الجديدة المثقفون من العرب، وإنما ندهش لو حدث غير ذلك. وهكذا تيسر للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجد حوله جماعة من الكتاب يدونون له ما يعليه عليهم من آى. واشتهر جماعة من الصحابة بكتابة الملوحي، على رأسهم عثمان ابن عفان، وعلى بن أبى طالب، فإن غابا كتب أبى بن كعب، وزيد بن ثابت^(١)، كما اشتهر بها أيضا معاوية بن أبى سفيان^(٢)، وكان يكتب له أيضا عبد الله بن سعد بن أبى سرح، ثم ارتد ولحق بالمشركين^(٣). فإن لم يشهد أحد هؤلاء الكتاب

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٢. ويقول ابن عبد البر: الاستيعاب ١: ٢٦ "كان زيد ألزم الصحابة لكتابة الوحي".

(٢) شرح الزرقانى على المواهب ٣ : ٣٢٢ .

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٣ .

كتب غيرهم، من أمثال جابر بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، وحنظلة بن الربيع^(١).

وكان الكتاب السابقون يكتبون للنبي، ولكن كان هناك من يكتبون لأنفسهم، وقد وثق بهم فيما بعد زيد بن ثابت عند جمعه للقرآن، في زمن أبي بكر الصديق، إذ يقال إنه لم يكن يأخذ الآية من أحد إلا إذا كان معه شاهدان. وكانت الكتابة معتبرة أحد الشاهدين^(٢) ويذكرون في هذا الصدد اسم أبي خزيمة بن ثابت على أنه كان لديه آخر سورة التوبة مكتوبا^(٣).

ونشأ عن هذا ظهور المصاحف المختلفة التي تُنسب لكثير من الصحابة فهذا مصحف علي، وهذا مصحف أبي، وذاك مصحف ابن مسعود، وذلك مصحف سالم مولى أبي حذيفة، وُجدت كل هذه المصاحف إلى جانب المصحف الرسمي الذي جمعه زيد ابن ثابت بأمر أبي بكر من الصحابة المختلفين والمواضع المتعددة، وكتبه في القرايطيس. وظل هذا الأمر مختلفاً متدابراً، حتى اختلف معه القراء وتدابروا، فقام عثمان بعمله الموفق، ووجد كتابة القرآن في مصحفه الإمام، وأحرق المصاحف الأخرى^(٤).

تلك هي قصة كتابة الوحي نرويهها لا لأنها كتابة فنية، ولكن لأنها مظهر من مظاهر انتشار الخط بين العرب عند ظهور الإسلام، ولأنها ظاهرة تبين لنا حاجة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده إلى الكتابة والحث عليها. أما الوحي ذاته أو القرآن فلا شك أنه كتابة فنية، ولكنه نوع من الكتابة فريد لا يتصل بما قبله من

(١) عبد الحى الكتاني: التراتيب الإدارية ١ : ١١٥ .

(٢) السيوطي : الإتيقان ١ : ٥٨ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) السيوطي: الإتيقان ١ : ٥٩ .

كتابة، ولا بما بعده، هكذا نظر إليه القدامى والمحدثون، فالوليد بن المغيرة، العربى الصميم، يقول "ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن"^(١)، ويذهب الباقلانى إلى أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم (كلام العرب) ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز فى تصرفه من أساليب الكلام المعتاد^(٢)، ويرى الدكتور طه حسين "أن القرآن ليس نثرا، كما أنه ليس شعرا، إنما هو قرآن، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم. لأنه مقيد بقيود خاصة به، لا توجد فى غيره"^(٣). ولا يتصل القرآن بما قبله، إذ رأينا أنه لم توجد هذه الكتابة الفنية الراقية التى تقارب القرآن، بل لم نجد أمثلة تجعلنا نوقن بوجود كتابة فنية على الإطلاق. ولا يتصل بما بعده من كتابة فنية، لأن المسلمين آمنوا بإعجازه وباللعنة التى تلاحق من يحاول تقليده. فظلوا يعجبون به ولكنهم بعيدون عن تقليده، فبقى وحيدا فريدا فى بابه ونوعه. أضف إلى ذلك أنه تفرّد له الأبحاث الخاصة. ولذلك لن أتعرض له فى رسالتى هذه.

كتابة الحديث

هناك نوع آخر شبيه بهذا من الكتابة، هو كتابة الحديث الشريف فعلى الرغم من تحرّج النبی صلی الله علیه وسلم من كتابته، ونهيه عن ذلك كى لا يختلط بالقرآن ويلتبس الأمر عليهم، خاف بعضهم أن يضيع ما سمعه من أحاديث فدونها لنفسه. وشاهدنا على ذلك ما روى عن اليمنى الذى طلب من النبی صلی الله علیه وسلم أن يكتب له الحديث الذى سمعه^(٤)، وما روى عن صحيفة عبد الله بن عمرو

(١) تفسير الطبرى والزخشرى لسورة المدثر، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٨٩ .

(٢) الباقلانى : إعجاز القرآن ٥١ .

(٣) طه حسين: من حديث الشعر والنثر ٣١ .

(٤) صحيح البخارى، باب كتابة العلم .

ابن العاص التي استأذن النبي في كتابتها، فأذن له النبي، وكان يسميها الصادقة^(١).
الرسائل السياسية :

أدت حاجة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكتاب - كما رأينا - إلى العناية بالكتابة وحث المسلمين عليها. وتكفي الإشارة إلى ما حدث لأسرى بدر من إطلاق سراح المتعلم منهم إذا علم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة^(٢)، كما تكفي الإشارة إلى المواضع المتعددة التي ذكر فيها القرآن الكتابة بالتعظيم، وحث العرب على تدوين معاملاتهم كتابة حتى لا يكثر النزاع، ويتضح وجه الحق. اجتمع كل هذا إلى حاجة المسلمين لقراءة القرآن في صلواتهم وخلواتهم، وإلى ما أحدثه الدين الجديد من حركة فكرية، فجعل الكتابة أمرا ضروريا لكل فرد يحس في نفسه شيئا من أمل ومن طموح. ولكن العامل الأكبر في إظهار الكتابة وبثها في الأرجاء، هو بزوغ الدولة العربية، فما يخفى على أحد ما تستلزمه الدول من علاقات وروابط داخلية وخارجية، لا يمكن التعبير عنها والاتفاق عليها إلا بالمراسلات. وهكذا كان إنشاء النبي صلى الله عليه وسلم للدولة العربية الإسلامية داعيا إلى إنشاء نظام من المراسلات الداخلية والخارجية أيضا .

وأحب أن أقول إنني لا أعنى بذلك أن الرسائل والمعاهدات لم تظهر إلا بعد تكون الدولة، بل ظهرت في أثناء تكونها، وقبل تكونها أيضا، حتى إنهم يروون لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ شرحبيل بن حسنة كاتباً في مكة، بل قالوا إن الدارين أتوا للرسول وهو في مكة، وطلبوا منه أن يقطعهم أرضاً بالشام إن فتحها

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير الجزء الرابع من القسم الثاني ص ٨ .

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام ١٧١ .

الله عليه، فأقطعهم بيت عينون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم، وكتب لهم بذلك كتابا من خط شرحبيل. ولكننا نشك شكاً قويا في صحة هذه الرواية، ولا نصدق إلا الإقطاع الثاني الذي تم في السنة التاسعة بعد الهجرة، وكتبه الإمام علي بن أبي طالب بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، واحتفظ به الداريون وقتا طويلا^(١)، إذ لم تكن الجماعة الإسلامية في مكة دولة من الدول، لها كيان سياسي أو نظام إداري، ولم يكن الرسل قد بدأ يفكر في غزو الأمم المجاورة للعرب، حتى يقطع أرضا بها .

أما الأمر الذي لا نشك فيه فهو ظهور فكرة الدولة منذ بيعتى العقبة، وماتلاهما من هجرة إلى المدينة، وكان من أول أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم بها كتابه الذي نظم به التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود^(٢). وهو يعتبر المعاهدة الأولى في الإسلام. وهكذا نرى الوثائق السياسية الإسلامية تبدأ بالمعاهدات ثم تظهر الرسائل في الإسلام بالرسالة التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لعبيد الله بن جحش في سرية المعروفة^(٣). وتوالت بعد ذلك المعاهدات والأحلاف بين الرسول والمشركين، كما توالت الرسائل بينه وبين قواده وأمرائه، وبينه وبين كبراء المشركين، وبينه وبين ملوك الدول المجاورة، فارس والروم ومصر والحبشة، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

(١) الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق السياسية ٤٤ والكتاني: الزايب الإدارية ١ : ١٤٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٢٥٢ (م ٣ - نشأة الكتابة) .

وثائق الرسول السياسية :

تناول المستشرق الألماني اشبيرر^(١) Sperber هذه الوثائق بالبحث، وقسمها إلى أربعة أقسام تبعا لتاريخها: ما قبل العام الخامس الهجرى، ومن العام السادس إلى فتح مكة سنة ٨هـ، ومن فتح مكة إلى غزوة تبوك سنة ٩هـ، وما بعد غزوة تبوك. وأفرد قسما مستقلا بنفسه - غير هذه الأربعة - لرسائله صلى الله عليه وسلم إلى عرب الجنوب. وتناول هذه الوثائق بالبحث أيضا الأستاذ أنيس المقدسى^(٢) أستاذ الأدب العربى فى جامعة بيروت الأمريكية، وجعلها فى ثلاثة أقسام. ورأى الرسائل فى الدور الأول الذى يمتد منذ الهجرة إلى وقعة الخندق، خلوا من التاريخ وكله سياسى يصبو إلى مخالفة القبائل، وهى على حالها من الشرك، للاستعانة بها على إضعاف قريش، مثل حلفه مع نعيم بن مسعود^(٣)، وبنى غفار^(٤)، وبنى ضمرة^(٥). أما الدور الثانى الذى يشمل المدة ما بين السنة الخامسة وفتح مكة فترى النبى صلى الله عليه وسلم أقوى مركزا، وأنفذ كلمة، فلا يتجلى فى كتبه ما كان يتجلى قبل من الميل إلى مخالفة المشركين، بل أصبح يشترط الإسلام أو الجزية مثل رسالته لبنى الجرهمز^(٦)، ورسالته لابنى الجندى^(٧). وأخيرا الدور الثالث بعد

(١) العدد ١٩ من مجلة *Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen*

(٢) أنيس المقدسى : تطور الأساليب النثرية ١١ .

(٣) الحيدر آبادى : مجموعة الوثائق ١٤٥ .

(٤) نفس المرجع ١٤٤ .

(٥) أحمد صفوت : جمهرة رسائل العرب ١ : ٧٠ .

(٦) الحيدر آبادى : مجموعة الوثائق ١٤٤ .

(٧) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٤٦ .

غزوة تبوك، وقد بلغ الرسول أعلى درجات القوة، وأخذ يستغل مركزه الحربى والدينى، فصار لا يكتفى بقبول الإسلام أو الجزية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، ففرض الزكاة على القبائل الداخلة فى الإسلام، وبعث العمال والأمراء على الصدقات، ومنها كتبه إلى ملوك حمير^(١)، وإلى همدان^(٢)، وإلى بنى كلب^(٣).

ولكن هذه الأقسام لا تعيننا كثيرا لأنها تنظر إلى الناحية التاريخية أكثر مما تنظر إلى الناحية الأدبية. نعم، ينبغى ألا ننسى ما للناحية التاريخية من أثر فى الناحية الأدبية، ولكن كان أثرها الأول فى شروط المعاهدات، لا فى أسلوبها وصياغتها الفنية.

ومن حسن الحظ أن كثيرا من هذه الرسائل لا يزال باقيا إلى يومنا هذا، على خلاف الحال مع خطبه صلى الله عليه وسلم، إذ ضاع أكثرها، ولم يكد يصل إلينا إلا القليل النادر، ولكن هذه الرسائل لم يصل إلينا إلا أصل اثنتين أو ثلاث منها هى كتابه إلى المقوقس الذى وجده المستشرق الفرنسى بارتلمى فى كنيسة قرب إخميم^(٤)، وكتابه إلى المنذر بن ساوى الذى نشره المستشرق فلايشر^(٥)، وكتابه إلى النجاشى الذى وجده المستشرق الإنجليزى دنلوب^(٦). ولذلك قد يثور بنا الشك فيها، أو فى لغتها. ولكن يجب أن نتنبه إلى أن العناية بهذه الوثائق قديمة جدا. إذ كانت القبائل والأسر تحفظ كتبه صلى الله عليه وسلم إليها تبركا بها، كما يروى

(١) نفس المرجع ١ : ٥٣ .

(٢) نفس المرجع ١ : ٥٦ .

(٣) نفس المرجع ١ : ٥٢ .

(٤) الحيدر آبادى : مجموعة الوثائق ى .

(٥) نفس المرجع ى .

(٦) نفس المرجع ى .

عن الدارين^(١). وكذلك اهتم بها المؤلفون القدامى، فنقرأ عن عناية عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ بها، وعناية عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم المتوفى عام ١٣٠ هـ^(٢). وقد عنى بها من بعدهم من المؤرخين عناية شديدة، كما نرى الحال عند الزهرى وابن إسحاق، أضف إلى ذلك عناية المحدثين بها. كل هذا يجعلنا نطمئن إلى هذه الوثائق، وخاصة إذا ما استبعدنا الوثائق التي تذكر أشياء لم توجد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أو التي تختلف مع الوقائع التاريخية، أو فيها فخر قبيلة على أخرى. ومع ذلك يسنم لنا بعد كل هذا كثير من الوثائق، نطمئن إليها كل الاطمئنان أو معظمه، مثل كتب الأمان أو العهود العادية، التي قد يكون في بعضها مالا يوافق رغبات المسلمين كصلح الحديبية .

خصائصها

تتألف كتب الرسول صلى الله عليه وسلم من معاهدات وكتب أمان، ورسائل، وكتب قسمة للغنائم، وإقطاعات، وتشترك كلها في بعض الخصائص العامة، كما يختص كل منها بخصائص لا توجد في غيره .

١ - فالمعاهدات تنفرد بنوع من الإسهاب الذى يتناول كثيرا من التفاصيل، ولكنه لا يعم جميع المعاهدات، وإنما يخص المهمة منها، مثل معاهدته مع ثقيف^(٣)، ومعاهدته مع أهل نجران^(٤)، بالإضافة إلى معاهدة المدينة التي ذكرناها قبل^(٥). وكذلك نجدتها

(١) الكنانى: التراتيب الإدارية ١ : ١٤٣ .

(٢) هوروفتس: كتب المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف : ٣٧ .

(٣) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ١٩٥ .

(٤) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٧٩ .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ .

مقسمة إلى مواد شبيهة بمواد المعاهدات فى وقتنا الحاضر. وتبدأ المعاهدات فى الغالب بالبسملة^(١)، إلا معاهدة الحديدية التى تبدأ بعبارة "باسمك اللهم" إرضاء لقريش^(٢). ثم يذكر فى آخر المعاهدات الشهر والكاتب، وقد لا يذكر^(٣). وما أقل ما يقتبس فيها من القرآن .

٢- أما كتب الأمان فقصيرة موجزة، بل قد تبلغ فى القصر حدا لا تبلغه إلا الإقطاعات، كما قد تطول فى النادر. وتتشابه كتب الأمان جميعا على الرغم من اختلاف كتابها، بل نجد فيها بعض العبارات التى تكاد تتكرر على الدوام، كأنها طابع لا بد أن تطبع به مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يحاقه فيها أحد"^(٤) و "من حاقه فلا حق له، وحقه حق"^(٥) "وما بل بجر صوفة"^(٦) وغيرها. وكان يبدوها أحيانا بالبسملة^(٧)، وأحيانا أخرى يتركها^(٨)، وأحيانا يبدوها بقوله: "هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان"^(٩)، ولها عدة صور أخرى أيضا .

٣- ولكن الرسائل لا تتمتع بهذا التشابه، فيختلف بعضها عن بعض، تبعا لوقتها وللمرسل إليه. وعلى الرغم من هذه الاختلافات يغلب عليها بعض الخصائص إذ

(١) أحمد صفرت : الجمهرة ١ : ٢٥ .

(٢) الحيدر آبادى : مجموعة الوثائق ١٣ .

(٣) يذكر الشهود والكاتب فى صلح الحديدية، ولا يذكر أحد فى معاهدة المدينة الأولى .

(٤) الحيدر آبادى : مجموعة الوثائق ٧٣ ، ٧٤ ، ١٤٩ - حاقه : خاصمه وادعى أنه أولى بالحق منه .

(٥) نفس المرجع ١٤٣ ، ١٤٥ .

(٦) نفس المرجع ١٣٠ ، ١٤١ . الصوفة : هنا الإسفنجة .

(٧) نفس المرجع ٢٢ ، ١١٨ ، ١٢٠ .

(٨) نفس المرجع ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ .

(٩) نفس المرجع ١٢٢ .

تبدأ بالبسملة ثم "من محمد رسول الله إلى فلان"^(١) أولا يأتي بالبسملة ويبدأ الرسالة باسمه مباشرة^(٢)، أو يقول "هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان"^(٣) أو "إلى فلان"^(٤) مباشرة. وكان يأتي في صدور كتبه بالسلام فيقول للمسلم: "سلام عليك"^(٥) ولغير المسلم "السلام على من اتبع الهدى"^(٦) وربما قال "سلام على من آمن"^(٧) كما كان يبدأ كتبه إل من يدعوهم إلى الإسلام بقوله: "سلم أنت أو أنتم"^(٨)، وربما أسقط السلام^(٩). وكان يأتي أيضا بالتحميد بعد السلام فيقول: "فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو"^(١٠) وربما تركه^(١١). وقد يأتي بالتشهد^(١٢)

(١) الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق ١٨ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ . وتروى قصة طويلة عن البسملة، وكيف وصل الرسول إلى معرفتها، فيقولون إنه كان يفتح رسائله مثل العرب بقوله: "باسمك اللهم" فلما نزلت الآية "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن" كتب "بسم الله الرحمن" ولما نزلت الآية "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم" كتب البسملة كاملة، انظر الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٤٠. ولكني لم أجد في كتبه التي وصلت إلينا ما يؤيد ذلك، إذ ليس فيها هذه الأطوار، وإنما البسملة كاملة أو محذوفة برمتها، بدلا من هذه الأطوار الأولى، ما دامت هي الصورة الأخيرة التي ارتضاها النبي. ولم تذكر "باسمك اللهم" إلا في كتب المشركين من العرب. وفي صلح الحديبية بأمر من قريش.

(٢) نفس المرجع ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ .

(٣) نفس المرجع ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٧ .

(٤) نفس المرجع ٣١ ، ٦٢ .

(٥) نفس المرجع ٥٦ ، ٥٨ .

(٦) نفس المرجع ٢٦ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٥٠ .

(٧) نفس المرجع ٣٢ .

(٨) نفس المرجع ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٩ .

(٩) نفس المرجع ٣٠ ، ٤٠ .

(١٠) نفس المرجع ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٦ .

(١١) نفس المرجع ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ .

(١٢) نفس المرجع ٢٦ ، ٥٤ ، ٥٦ .

وقد لا يأتي به^(١). وكان يبدأ أحيانا بعبارة "أما بعد"^(٢).

أما كتب أمرائه إليه فتشبه كتبه في بداياتها وخواتيمها وأسلوبها غير أنها عند ما تذكر اسمه صلى الله عليه وسلم تبدأ به فتقول: "لحمد النبي رسول الله من فلان"^(٣). ويبدو أن كتب المشركين من العرب كانت تبدأ بعبارة "باسمك اللهم"^(٤) أو تركها^(٥). وهى أيضا شبيهة برسائله صلى الله عليه وسلم فى الأسلوب. وإذا قرأنا كتب الملوك الأعاجم إلى الرسول، وجدناها تشبه كتبه فى خصائصها ولغتها، ولكننا لا نعتمد على ذلك كثيرا، فإنها - فى غالب الظن - مغيرة تغييرا كبيرا على يد الأدباء والمؤرخين المسلمين، بل لعلها موضوعة لأن كثيرا منها لا يوافق الواقع التاريخى، وبه نزعة إسلامية ظاهرة، مثل كتب نجاشى الحبشة^(٦).

وإذا ما تركنا صدور الرسائل ونظرنا إلى أعجازها وجدناها أكثر اختلافا. إذ ينتهى كل منها بحسب موضوعه، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتعمد بعض الخواتم أحيانا كالسلام مثلا، وله عدة صور: السلام العادى إذا كان المكتوب له مسلما، أو غير مسلم أحيانا^(٧)، وربما دعا له بعد السلام، فيقول: "والسلام ورحمة الله، يغفر الله لك"^(٨). فإذا كان غير مسلم قال فى السلام: "والسلام على

(١) نفس المرجع ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ٢٩ ، ٤٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٣) نفس المرجع ٧١ .

(٤) نفس المرجع ٩ .

(٥) نفس المرجع ٨ ، ١٦ .

(٦) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ص ٢٧، ٢٨ .

(٧) نفس المرجع ٥٢ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٨) نفس المرجع ٥٦ .

من اتبع الهدى" (١) أو "والسلام عليكم إن أطعتم" (٢). وكان الكاتب فى بعض الأحيان يدون اسمه فى خاتمة الرسالة، فىقول: "وكتب فلان" (٣).

أما أسلوب هذه الرسائل فأسمى عادة من أسلوب الأنواع الأخرى من كتب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن هذا السمو لا يخرج بها إلى مرتبة الصنعة، وإنما إلى مرتبة فصاحة لغة الخطاب العادية. ويلاحظ فى بعض الرسائل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يضع نصب عينيه المكتوب إليهم، فىكلمهم بما يقرب من لهجاتهم. ولعل هذا سبب كثرة الألفاظ الغريبة فى رسالته لوائل بن حجر الحضرمى (٤) ولطهفة النهدي (٥) مثلا، مما جعل بعض المحدثين يشك فيها، ويظن أنها من وضع بعض المتكلفين، معتمدا فى ذلك على الخبر القائل بأن ابن الأثير أهمل ذات مرة نقل مكتوب منسوب للنبي صلى الله عليه وسلم وقال: "تركنا ذكره لأن رواة نقلوه بألفاظ غريبة وبدلوها وصحفوها" (٦). ويمتاز بعض رسائله أيضا بتتابع الجمل القصيرة دون عاطف أو بعاطف، ولكنها غير متصلة المعانى، ولا يربط بينها غير الجو العام، وهو النصيحة الدينية. يتضح هذا تمام الوضوح فى عهده صلى الله عليه وسلم لعمر بن حزم الأنصارى حين ولاه على اليمن (٧). وتمتاز كتبه إلى الملوك الأعاجم، وخاصة من أهل الكتاب، بالاقتراب من القرآن، أو النظر إليه فى

(١) نفس المرجع ٢٤ ، ٣١ ، ٦٤ .

(٢) نفس المرجع ٣٢ .

(٣) نفس المرجع ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ١١٤ .

(٤) نفس المرجع ١٢٨ .

(٥) نفس المرجع ٨٩ .

(٦) نفس المرجع بط .

(٧) نفس المرجع ١٠٤ .

مفرداتها، بل قد تكون الرسالة كلها آيات قرآنية، مثل كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل^(١). وكان الرسول ذا نظر بعيد في رسائله، فإذا ما أرسلها إلى مسيحي أكثر من الآيات النازلة في حق عيسى، كرسالته إلى النجاشي^(٢)، وإذا ما أرسلها لأحد اليهود ربط بين نفسه وموسى عليه السلام، مثل كتابه إلى يهود خيبر^(٣).

وإذا ما تركنا الرسائل إلى كتب المقاسم والإعطاء^(٤)، نجد أننا انتقلنا نقلة كبيرة. إذ ليست هذه الكتب إلا إحصاءات، لا يمكن للفن أن يتسرب إليها من طريق، ولا تتعلق بالأدب بأى سبب، ولذلك لا أتكلم عنها في هذا المقام.

الخصائص العامة

الآن وقد انتهى الكلام عن الخصائص التي يمتاز بها كل نوع من أنواع كتب الرسول، لم يبق أمامنا إلا أن نعرف الخصائص العامة التي تصطبغ بها الكتب جميعاً. ولعل أوضح ميزة هي البساطة التي تنزل بها إلى مستوى لغة التخاطب الفصيحة لدى العرب في ذلك الزمن، وإن وشأها في بعض الأحيان الجمال الطبيعي، ولكنه لا يخرج بها عن مستوى لغة الحديث، فما كانت تهدف إلا إلى إفهام المرسل إليهم مضمونها. تتضح هذه الميزة في قوله في معاهدة المدينة الأولى: "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على رباعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو

(١) نفس المرجع ٢٩ .

(٢) نفس المرجع ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) نفس المرجع ١٥ .

(٤) نفس المرجع ٢٧ ، ٢٢ .

عرف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .. إلخ" (١) .

والميزة الثانية: الإيجاز الذى يدلنا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤدي ما يريد من المعانى بأقل ما يمكنه من لفظ، وهذا ما اعتاده العربى العادى فى حديثه، ترى هذا فى جميع رسائله تقريبا .

والميزة الثالثة: التزام بعض التعابير الخاصة مثل: "ما كان أحد مكانه" و "ما بل بحر صوفة" أى على الدوام، وبعض التعابير التى ذكرناها آنفا. ومن ذلك أيضا استعمال بعض العبارات الغريبة مثل قوله: "من أطلع أهل مقنا بخير" (٢) و "إن لهم سعاية فلان" (٣) و "والليل مد والنهار شد" (٤) .

والميزة الرابعة أننا نرى فيها التشبيه كثيرا، والجاز، والجمل التى تشبه الأمثال التى ذكرناها فى الميزة الثالثة. أما الاستعارة فقليلة، لأنها تحتاج إلى بعض الصنعة الفنية. فتراه يقول فى رسالته هوذه بن على. "واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر" (٥) ويقول لابنى الجلندى: "وخيلى تحل بساحتكما" (٦): أى تزيل ملككما وتستولى على بلادكما .

(١) نفس المرجع ص ١ . رباعة الرجل: شأنه وحاله التى هو رابع عليها، أى ثابت مقيم. ويقال تركناهم على رباعتهم: أى على أمرهم الذى كانوا عليه. والتعاقل: من عقل القليل، أى إعطاء ديتة، والمعاقل: جمع معقلة "بضم القاف" وهى الدية ومعنى يتعاقلون معاقلهم الأولى: أى يكونون على ما كانوا عليه فى الجاهلية من أخذ الديات وإعطائها، أو على مراتب آبائهم، وأصله من ذلك. والعانى: الأسير. والقسط: العدل .

(٢) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ٢٦، ومعناها: من أسدى إليهم معروفا. ومقنا: موضع .

(٣) نفس المرجع ٤٩ ، والمعنى: إن لهم صدفة وزكاة .

(٤) نفس المرجع ٢٢، والمعنى: يشتد العهد كل ليل ونهار قوة، فلا ينقص منه شىء .

(٥) نفس المرجع ٦٥ .

(٦) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٤٦ .

وأخيرا تخلو كتبه صلى الله عليه وسلم من الصنعة والمحسنة، ومن العمل والتزوي، وإن وجد فيها أحيانا شئ من توازن العبارات أو الازدواج أو السجع. الذى لا يخرج عما تاتى به الفطرة السليمة والطبع القوى .

كُتاب الرسول

لعلنا الآن وقد انتهى بنا الحديث عن كتب النبى، فى حاجة لمعرفة كتابه صلى الله عليه وسلم. ونحن عندما نحاول معرفة هؤلاء الكتاب، لا نجد الأمر بسهولة كما كنا نتوقع، إذ لم تصلنا جميع كتبه صلى الله عليه وسلم، ولم يكن جميع الكتاب يضعون أسماءهم فيما كتبوه من رسائل ولذلك نرى الأقوال تتضارب فى عدتهم وأسمائهم. فيذهب الحافظ ابن عساكر فى "تاريخ دمشق" إلى أنهم ثلاثة وعشرون، ولكنه يقرر فى "بهجة المحافل" أنهم خمسة وعشرون. ويوافقه على هذا رأى ابن عبد البر فى "الاستيعاب". ويقول القرطبى فى تفسيره إنهم ست وعشرون وهناك من يذهب بعيدا فىرى أنهم أربعون (الشبراملسى فى القضاء) أو اثنان وأربعون (أبو الوفا نصر الهورينى فى مطالعه) أو ثلاث وأربعون (البرهان الحلبى فى حواشى الشفا)^(١) وذكر الجهشيارى بعضهم ولم يبين عدتهم. وقد حاولت أن أجمعهم، فعثرت بعد البحث على قريب من خمسة وأربعين كاتباً. ولا يخامرني الشك أنهم ليسوا جميع من كتب للرسول، إذ لا بد أنه قد فاتتنا أسماء كثيرة فى الإحصاء، كما يرجح أن ذكر كثيرين منهم ضاع فيما ضاع من كتب. ولعل اختلاف المؤلفين فى عددهم يرجع إلى أن منهم من لم يواظب على الكتابة للنبي صلى الله عليه وسلم إلا مرات قليلة، فأهمل بعضهم ذكره .

(١) الكتانى : الزايب ١ : ١١٥ .

تخصص الكتاب

هل اختص كل واحد من هؤلاء الكتاب بنوع من الكتابة ؟

أشرت من قبل إلى الكتاب الذين اشتهروا بكتابة الوحي، ولست في حاجة إلى تكرار الحديث عنهم. ويقال أيضا إن "خالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية ابن أبي سفيان (كانا) يكتبان بين يديه في حوائجه"^(١). وإنه "كان يكتب له للبوادي معاوية"^(٢) وإن "المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير (كانا) يكتبان ما بين الناس"^(٣) أو "يكتبان في حوائجه"^(٤) أو "المداينات والمعاملات"^(٥) و "ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا"^(٦) وإن "عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث، والعلاء بن عتبة (كانا) يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياهم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء"^(٧) وإنه "ربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك"^(٨) وإنه "كان حذيفة بن اليمان يكتب خرص ثمار الحجاز"^(٩) وإن "زيد بن ثابت (كان) يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي"^(١٠). وإن كاتب النبي "المواظب على الرسائل والأجوبة، والذي كتب

-
- (١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ١٢ .
 - (٢) الكتاني: الترايب ١ : ١٢١ .
 - (٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ١٢ .
 - (٤) الكتاني: الترايب ١ : ١٢٣ .
 - (٥) نفس المرجع ص ١٢٤ .
 - (٦) ابن عبد ربه. العقد الفريد ٣ : ٥ .
 - (٧) الجهشياري: الوزراء والكتاب ١٢ .
 - (٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٦ .
 - (٩) نفس المرجع ٣ : ٦ الخرص: القدر .
 - (١٠) الجهشياري: الوزراء والكتاب ١٢ .

الوحي كله زيد بن ثابت" (١) "وإنه كان كاتب سر النبي صلى الله عليه وسلم" (٢)،
 وإن أبي بن كعب وزيد بن ثابت "كانا يكتبان بين يديه صلى الله عليه وسلم،
 ويكتبان كتبه للناس، وما يقطع وغير ذلك" (٣) وإن "مُعَيْب بن أبي فاطمة .. كان
 يكتب مغانم رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٤) وإنه "كان حنظلة بن الربيع ..
 خليفة كل كاتب من كتاب النبي إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب،
 وكان يضع عنده خاتمه" (٥)، وإن كاتبى اليهود هما على بن أبي طالب وعامر بن
 فهيرة" (٦) وإن "الزبير بن العوام وجهم بن الصلت (كانا) يكتبان أموال
 الصدقات" (٧). وإن "شرحبيل بن حسنة (كان) يكتب التوقيعات إلى الملوك" (٨) .

حين ننظر إلى هذه الأقوال نجد الأقدمين - على الرغم من اختلافهم -
 شعروا بشئ من التخصص بين كتاب النبي. وذلك أمر غير غريب، إذ أن كل امرئ
 لابد أن تبرز ناحية من نواحيه على النواحي الأخرى، فيخصص له ما يلائم هذه
 الناحية. وكذا الأمر مع هؤلاء الكتاب ولو أنعمنا النظر في الأقوال السابقة وأحبينا
 أن نخرج منها بأشياء واضحة، ليس فيها ظلام الاختلاف، لأمكننا ذلك بالنسبة
 لبعض الكتاب. فحذيفة بن اليمان كاتب خرص الحجاز، وزيد بن ثابت كاتب

(١) الكتاني : الزايتب ١ : ١١٧ .

(٢) نفس المرجع ١١٩ .

(٣) نفس المرجع ١٢٠ .

(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٢ .

(٥) نفس المرجع ١٢ .

(٦) الكتاني : الزايتب ١ : ١٢٣ .

(٧) نفس المرجع ١٢٤ .

(٨) نفس المرجع ١٢٤ .

الملك، فإن غاب ناب عنه عبد الله بن الأرقم، ومعقيب بن أبي فاطمة كاتب المغام، ومعاوية بن أبي سفيان كاتب البوادي، والزبير بن العوام وجهم بن الصلت كاتب أموال الصدقات، وعلى بن أبي طالب كاتب المعاهدات فإن غاب كتبها عامر ابن فهيرة أو غيره .

ويجب أن ننظر إلى هذا التخصص نظرة هينة لينة، فهو ليس بالنظام الصارم الواجب اتباعه، وإنما هو نظام يحاول مراعاته، فإن غاب أحد الكتاب "أمر (الرسول) من حضر أن يكتب له"^(١). ونحن إذا حصرنا الرسائل الموقع عليها باسم كاتبها، وحاولنا معرفة تخصص صاحبها نجحنا في تعيين بعض الكتاب مثل علي كاتب المعاهدات، وأخفقنا في تعيين بعضهم الآخر. وآخر ما نقول إنه وجد نظام خفيف من التخصص، ولكنه أهمل كثيرا لعدم مواظبة الكتاب على الحضور إلى مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ لم يكن الحضور فرضا عليهم، ولم يكونوا معينين كتابا له صلى الله عليه وسلم .

وقد صنفت الرسائل التي كتبها مختلفون في موضوع واحد، وجاء أن أحد ما يدل على شخصية كل كاتب من المزايا الخاصة، فتبين لي أن رسائل الأمان التي كتبها علي بن أبي طالب، والتي كتبها المغيرة بن شعبة، والتي كتبها معاوية وغير هؤلاء من الكتاب، كلها متشابهة شبا يكاد يكون تاما. وكذا الأمر في أنواع الكتب والوثائق الأخرى. فشخصية الكاتب غير ظاهرة في هذه الرسائل. أما السبب فواضح، فهذه الرسائل كلها من إملاء الرسول نفسه، وهذا الإملاء أمر معروف غير محتاج إلى إثبات. والشئ الوحيد الذي أشار إليه المؤرخون هو أن عبد الله بن

(١) نفس المرجع ١٢٠ .

الأرقام كان يستقل أحيانا بكتابة بعض الرسائل، بأمر النبي صلى الله عليه وسلم. وكان الرسول يجيز ما كتب^(١) وأظن أن الكاتب، في مثل هذه الحالة كان يحتذى فيما يكتب على مثال رسائل النبي، وكأنه يملى عليه، فتخرج رسالته على نمط رسائل الرسول. ولذلك غلبت هذه الصفات العامة على جميع الرسائل في عهد النبي. ومن الأسباب الأخرى لهذه الحالة، أن الكتاب كانوا يكتبون دون روية وتفكير، ودون محاولة للافتنان - إذا كانوا استقلوا بأنفسهم - وإنما قصارى غايتهم إفهام المكتوب إليه ما يريدون من معان، بأقرب طريق وأسهل أسلوب، ولذلك تشابهت لهجاتهم في كتبهم. وإذا فحن لا نستطيع أن نتبين شخصية خاصة أو أسلوبا معيناً، لأحد هؤلاء الكتاب في مجموع كتب الرسول .

هذه هي حال الكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فهل يمكننا أن نطلق عليها اسم الكتابة الفنية؟ أعتقد من الواضح الذي لا شك فيه، بعد كلامنا الطويل، أننا لا يمكننا ذلك، فإنها ليست إلا كتبا مرتجلة، سريعة، مملاة بلغة سهلة هي لغة الحديث، لا يوشىها شيء من عمل أو جمال، غير فصاحة لغة الحديث عند العرب، بل تهبط لغتها كثيراً عن لغة الخطابة التي كان لها تقاليد المرعية، وقواعدها الأدبية، منذ العصر الجاهلي، ولم تكن تسمو إليها إلا في بعض الرسائل .

ديوان الرسائل

هل وجد ديوان للرسائل في عهد النبي ؟

إذا رجعنا إلى آراء الأقدمين في ذلك، وجدنا القلقشندى يقول^(٢): "اعلم أن

(١) الكتاني: الترايب ١ : ١٢٠ .

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ١ : ٩١ .

هذا الديوان (ديوان الرسائل) أول ديوان وضع في الإسلام، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكتبونه، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه .. وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء، بخلاف ديوان الجيش، فإن أول من وضعه ورتبه عمر بن الخطاب في خلافته .

ولكن هذا القول لا يعتمد على أساس قوى، فلا تلازم بين ديوان الإنشاء وهذه الكتابات، إذ قد توجد هذه، ولا يوجد هذا الديوان الذى يتألف من كتاب مئزوين محبرين متجملين، متأنقين متفننين. ولم يوجد فى عهد الرسول مثل هذا الصنف من الكتاب الذين يخلون بأنفسهم، ويكتبون من عندهم، وإنما وجد كتاب تملى عليهم كتبهم، فيكتبونها كما يملى الرسول. وقد بالغ القلقشندى فى هذا الادعاء، مبالغته التى نراها فى ادعائه بأن ديوان الجيش والدواوين الأخرى وضعت فى عهد الرسول أيضا، ولكنها لم تكن فى شهرة ديوان الإنشاء^(١)، وخاصة أن من قبله لم يذكروا وجود هذا الديوان فى العهد النبوى. ولذلك لا يمكننا تصديق هذا الخبر، بل نقول إن هذا الديوان لم يوجد حتى فى عهد الخلفاء الراشدين أنفسهم. وكل ما يمكن قوله هو وجود الأساس الذى سيشيد عليه فيما بعد ديوان الرسائل.

عهد أبى بكر

لا يتغير الحال كثيرا حين نأخذ فى عرض تاريخ الكتابة فى عهد أبى بكر الصديق، فالكتاب هم الكتاب^(٢)، والكتب نفس الكتب، والأسلوب هو بعينه

(١) نفس المرجع ٩١ .

(٢) يقول الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٥ : إن عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم وحظلة ابن الربيع كتبوا لأبى بكر. وما أشك كثيرا فى أن الأحياء من كتاب النبي قد كتبوا أيضا لأبى بكر، أو ترأسوا معه فى الأحداث الإسلامية الجديدة .

أسلوب الكتابة فى عصر النبى. والأمر الجديد الذى نلاحظه هو اندلاع نيران الحروب فى أنحاء شبه الجزيرة بين المسلمين والمرتدين أولاً، ثم امتداد اللهب إلى الحدود الخارجية وأراضى العراق والشام، مما جعلهم يكثرون من الكتابة فى شأن هذه الحروب من وصايا للقواد^(١)، ومعاهدات^(٢)، ودعوات للإسلام^(٣)، وما إلى ذلك من الأمور التى تتصل بالحروب من قريب أو بعيد. وكما يبرز خالد بن الوليد قائداً، كذلك يبرز كاتباً، فنراه يكتب أغلب الكتب فى عهد الصديق، كما يؤخذ من مطالعة كتابى الوثائق السياسية وجمهرة الرسائل. ولا أعنى بذلك أن خالداً كتب جميع هذه الرسائل بيده، بل كان له كتابه أيضاً، إذ ذكروا أن حنظلة بن الربيع كتب له كتابين^(٤). وظهر أمر جديد آخر هو عهود الولاية، أعنى بذلك عهد أبى بكر لعمر^(٥).

ولا نحتاج للإكثار من الكلام عن هذه الفترة، إذ ينطبق عليها ما قيل عن مدة الرسول كل الانطباق، وخاصة أنها لا تستغرق غير وقت قصير امتلاً بالأحداث التى شغلته عن كل جديد. وقد شعر بذلك الأقدمون حتى قال القلقشندي^(٦): "وكانت (رسائل الصديق) تفتح بلفظ: من أبى بكر خليفة رسول الله^(٧) صلى الله عليه وسلم إلى فلان، وباقي الكتاب من نسبة كتب النبى صلى الله عليه وسلم، من التصدير

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ١١٧ ، ١٢٤ .

(٢) نفس المرجع ١٢٠ ، ١٣٢ .

(٣) نفس المرجع ١٤٠ .

(٤) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق السياسية، الوثيقتان رقم ٢٢١ ، ٢٢٦ .

(٥) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ١٥٥ .

(٦) صبح الأعشى ٦ : ٣٨٤ .

(٧) كتب أبو بكر أيضاً: أمين رسول الله . انظر كتابه إلى الدارين فى مجموعة الوثائق السياسية ٤٧ .

بالسلام، والتحميد، والتخلص بأما بعد، والاختتام بالسلام، وما يجرى هذا المجرى".
وهاك شاهدا من كتب أبي بكر إلى المثنى^(١) بن حارثة :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

أما بعد،

فإن صاحبك العجلى كتب إلى يسألني أمورا، فكتبت إليه أمره بلزوم خالد حتى أرى رأيي. وهذا كتابي إليك، أمرك ألا تبرح العراق، حتى يخرج منه خالد بن الوليد. فإذا خرج خالد منه، فالزم مكانك الذي كنت به، فأنت أهل لكل زيادة، وجدير بكل فضل .

والسلام عليك ورحمة الله ،،

عهد عمر

إذا ما قلبنا هذه الصفحة من كتاب التاريخ، ونظرنا إلى صفحة عمر بن الخطاب وجدنا الطريقة لم تكد تتغير، والإملاء لا يزال موجودا^(٢). ولكننا على الرغم من هذا يجب أن نعطي الخبر التالي أهميته الجديرة به. يروى الجهشيارى^(٣) بعض أخبار زياد بن أبيه، ثم يبين أن عمر بن الخطاب أراد اختباره ككاتب، فيقول: "ثم دعا (عمر) بزياد فقال له: ينبغي أن تكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به. فكتب إليه كتابا، ودفعه إلى عمر. فنظر فيه ثم قال: أعد: فكتب غيره. فقال له:

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ١٣٠ .

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٩ .

(٣) نفس المرجع ١٦ .

أعد. فكتب الثالث. فقال عمر: لقد بلغ ما أردت في الأول، ولكنني ظننت أنه قد روى فيه، ثم بلغ في الثاني ما أردت فكرهت أن أعلمه ذاك، وأردت أن أضع منه، لتلا يدخله العجب فيهلك". فإننا عندما نتأمل في هذا الخبر نستطيع أن نرى فيه ما كانوا يطلبونه من الكاتب في ذلك العصر. فهل طلب عمر من زياد صحة كتابة، وحسن خط، أم طلب منه شيئا آخر؟ من الواضح أنه أعطاه موضوعا وطلب منه أن يصوغه بأفكاره وألفاظه. وإذا فهم لم يكونوا يطلبون من الكاتب إصغاء للمملى وتدوين ما يملى فحسب، بل كانوا يطلبون منه أيضا أن يحسن الكتابة من عنده أيضا ولعل في هذا دليلا واضحا على أن الكاتب كان يطلب منه أحيانا أن يكتب بعض الرسائل بنفسه دون إملاء. وإذا هو مستطيع أن يتزوى - كما خاف عمر - وأن يتأنق بعض التأنق الذي تسمح به طبيعة عصر عمر. ومن المؤسف حقا ألا تروى لنا هذه الرسالة التي اتهمها عمر بالتزوى، حتى يمكننا أن نوازن بينها وبين الرسائل التي وصلتنا من هذا العصر. ولكن يغلب على الظن أنها لا تفترق عنها كثيرا، إلا في ظهور طابع زياد الفصيح عليها .

وهذه الظاهرة لها أهميتها، فإننا إذا كنا قلنا عن عبد الله بن الأرقم إنه كان يحاكي كتب الرسول في رسائله التي كتبها منفردا، فإننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن زياد وعمر، وإذا قلناه، فإنه يكفينا أن نلاحظ أن الكاتب بدأ يكتب بمفرده، بل بدأ يتزوى أيضا في زمن مبكر جدا، ألا وهو أوائل صدر الإسلام .

ولم يتغير الأسلوب الكتابي عما قبل، يقول القلقشندي^(١) "كان (عمر) يكتب في كتبه: من عمر بن الخطاب خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان^(٢)".

(١) صبح الأعشى ٦ : ٢٨٦ .

(٢) لم أجد هذه العبارة فيما بين يدي من رسائل عمر .

فلما تلقب بأمر المؤمنين أثبت هذا اللقب في كتبه، وزاد في ابتدائها لفظ "عبد الله" قبل اسمه، ليكون اسمه نعتا له، فكان يكتب: "من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى فلان"^(١). وباقي الكتاب على ما مر في كتب النبي صلى الله عليه وسلم والصديق". غير أننا نلاحظ في كثير من هذه الرسائل ظهور شخصية عمر أصدق ظهور. ولعل ذلك هو الذي يميز كتب عمر عن كتب النبي والصديق، فيظهر فيها شيء من الشدة التي اشتهر بها عمر، والإكثار من أسلوب التحذير والإغراء، يقول في كتابه لسعد بن أبي وقاص^(٢): "وإياكم والضحك: والوفاء الوفاء" ويقول في كتابه لأبي موسى الأشعري^(٣): "الفهم الفهم فيما يتدلجج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة .. وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم"، ويكثر أيضا من الجمل القصيرة المنفصلة، التي تدل على انفعال متدفق مطلق لا يكبحه زمام، ونفس شديدة مندفعة لا تخاف لومة لائم، ويكثر أيضا من الأوامر والنصائح، فتمثل شخصيته كأنه يتكلم بنفسه، فقارئ رسالته يتخيله أمامه. هذا إلى جانب شخصيته في الأفكار التي تجول في رسالته. ويتضح كل هذا تمام الوضوح في مراسلاته مع سعد بن أبي وقاص، وفي رسالته المشهورة في القضاء إلى أبي موسى الأشعري^(٤).

ومما هو جدير بالذكر ظهور الدواوين في عهد عمر^(٥). إذ احتاج المسلمون عندما فتحت الأقطار، وتدفت الأموال، إلى الكتبة والحسبة، فانشئوا الدواوين،

(١) الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، وغيرها .

(٢) الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق ٢٢٨ .

(٣) نفس المرجع ٢٤١ .

(٤) نفس المرجع ٢٤٠ .

(٥) ابن الأثير: الكامل ٣ : ٣٥ .

مثل ديوان الخراج، وديوان الجند^(١). أما ما يروى عن وجود هذه الدواوين في عهد الرسول فلا دليل عليه، ولا يمكن أن نثق به^(٢). ولكننا لن نعطي هذه الدواوين كثيرا من الأهمية، لأنها مجرد إحصاءات وأرقام لا تتصل بالكتابة الفنية عن قرب أو بعد، بل كان بعضها يكتب باللغات المحلية. فكان ديوان الخراج يكتب بالفارسية في فارس، وبالرومية في الشام، وبالقبطية واليونانية في مصر، إلى أن عُربت هذه الدواوين في العصر الأموي^(٣). أما أهمية هذه الدواوين فهي دلالتها على تعقد المصالح في الدولة، وأخذ الحكومة في تخصيص فروع مختلفة للمسائل المتنوعة، مما يدل على أخذ النظام الإداري في الاستقرار والنضج.

ويهمنا أن نلفت النظر أيضا إلى تعدد الدواوين في الأمصار المختلفة في عهد عمر، فديوان للخراج بالعراق، وآخر بالشام، وثالث بمصر. وليس الأمر مقصورا على هذا الديوان، بل نجد دواوين أخرى متعددة للجند، إذ يذكرون أن أبا جبيرة ابن الضحاك كان على ديوان الكوفة^(٤)، وأن عبد الله بن خلف الخزاعي كان على ديوان البصرة^(٥)، ويقصدون بذلك ديوان الجند، كما سنرى. يضاف إلى ذلك ابتكار نظام البريد مما ييسر المراسلات .

ونلفت النظر أيضا إلى ظاهرة أخرى مهمة، هي اتخاذ الولاة والأمراء للكتاب الخاصين، كما روى أن زياد بن أبيه كان كاتباً للمغيرة بن شعبة، ثم لعبد الله بن

(١) الفلقشندی: صبح الأعشى ١ : ٩١ .

(٢) نفس المرجع ٩١ .

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ١ : ٣٤٧ .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ١٦ . وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٧ .

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٧ .

عامر بن كرز، ثم لعبد الله بن عباس، ثم لأبى موسى الأشعري^(١)، والمغيرة بن شعبة كان كاتباً لأبى موسى الأشعري أيضاً، وأن عبد الرحمن بن أبى كان كاتباً لنافع بن الحارث والى مكة^(٢).

وهذه الظواهر كلها مهمة تدل على حركة داخلية فى ميدان الكتابة، إذ ستخلق طبقة خاصة من الكتاب، ليسدوا حاجة هذه الدواوين المختلفة، والأمراء الكثرين. وهذه الطبقة الخاصة من الكتاب هى التى ستسير بالكتابة إلى مرحلة الفن.

عهد عثمان

حين يتولى عثمان الخلافة نرى ظاهرة جديدة مهمة أيضاً، إذ يبعث المنشورات إلى النواحي المختلفة من الدولة العربية يبين فيها سياسته الجديدة، فكتاب لعماله، وآخر لأمراء الأجناد، وثالث لعمال الخراج، ورابع للعامه^(٣). ولا تختلف لغة هذه الكتب عن لغة الكتب السابقة فى عهد الخلفاء الراشدين، ولكنها تقرب من كتب عمر أكثر مما تقرب من كتب النبى والصدىق، فهى فى العهد الأخير تسير نحو التروى والتجمل. بل نجد فى كتب عثمان نوعاً من المجاز والعمل لا نجده عند من قبله. ويظهر هذا المجاز فى الميل إلى التشخيص، فهو يقول فى رسالته إلى معاوية حين قام أبو ذر بدعوته فى الشام: "إن الفتنة قد أخرجت خطمها و عينيها، فلم يبق إلا أن تثب، فلا تنكأ القرع"^(٤). ويقول لأهل الكوفة عندما عزل عنهم

(١) نفس المرجع ٩ .

(٢) نفس المرجع ٩ .

(٣) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٨٩-٢٩٣ .

(٤) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٩٦ . الخطم : جمع خطام، وهو الزمام .

سعيد بن العاص: "والله لأفرشنكم عرضي"^(١)، وغير ذلك كثير فى كتبه. والخطوة الثانية إلى التجميل هى تحلية رسائله بالقرآن، بل تكاد تكون رسالته التى بعثها مع ابن عباس ليقرأها فى الحج قرآنا كلها^(٢). والخطوة الثالثة تحلية رسائله بالشعر، نرى ذلك فى رسالته وهو محصور إلى على^(٣)، وفى رسالة مروان بن الحكم إلى معاوية ويعلى بن منية يستصرخهما من أجله^(٤)، إذ قال فى آخرها: "فجدا فى طلب ما أنما ولياه، وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء الله، وكتب فى نهايتها :

وما بلغت عثمان حتى تخمطت رجال ودانت للصغار رجال
لقد رجعت عودا على بدء كونها وإن لم تجدا فالمصير زوال
سيبدئ مكنون الضمائر قولهم ويظهر منهم بعد ذاك فعال

..... الأبيات "

ولكننا يجب ألا نلقى القول على عواهنه، فنثبت هذه الظواهر، ونترك الأمر يمر سهلا هينا، بل يجب أن ننبه إلى أننا وصلنا إلى مرحلة محفوفة بالأخطار. فمنذ قيام الفتنة كثرت المخترعات والمنحولات التى لم يستطع رجال الأدب والتاريخ تبين زيفها من صدقها حتى اليوم. ولذلك يجب أن نسير بحذر، وألا نقبل كل ما روى لنا إلا بعد فحص وتمييز، وأن نثبت هذه الظواهر على أنها أمور ظنية لا يقينية، خشية أن يكون بعض ما ورد من النصوص فى هذه المدّة، قد صنعه منتحلوه فى زمن متأخر.

(١) نفس المرجع ٣٠٦ .

(٢) نفس المرجع ٣١٥ .

(٣) نفس المرجع ٣١٢ .

(٤) نفس المرجع ٣٣٥ .

عهد على

إذا كنا نشك بعض الشك في رسائل عثمان، فإن الشك في رسائل عليّ يحيط بنا من جميع الأنحاء. وقد نسب إلى علي ما يؤلف المجلدات من رسائل وخطب، وما نستطيع أن نثبت له واحدة يقينا. وقد بلغ الأمر في تغيير هذه الرسائل إلى درجة أننا نرى الرسالة الواحدة في الطبرى وفي نهج البلاغة ولكنهما لا يمت بعضهما إلى بعض بصلة من شدة الخلاف. روى الطبرى أن عليا حين خرج من الحجاز في إثر عائشة، حتى نزل الرّبذة، كتب إلى أهل الكوفة: "إني اخترتكم على الأمصار، وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا، وأيدونا وانهضوا إلينا، فالإصلاح ما نريد، لتعود الأمة إخوانا، ومن أحب ذلك وآثره، فقد أحب الحق وآثره، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه"^(١). وتروى هذه الرسالة في نهج البلاغة كما يلي: "من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، جبهة الأنصار، وسنام العرب.

أما بعد، فإنني أخبركم عن أمر عثمان، حتى يكون سمعه كعيانه، إن الناس طعنوا عليه فكنت رجلا من المهاجرين أكثر استعتابه، وأقل عتابه، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف، وأرفق حدائهما العنيف، وكان من عائشة فيه فلتة غضب. فأتى له قوم فقتلوه، وبايعنى الناس غير مستكرهين ولا مجبرين، بل طائعين مخيرين .

واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وأقلعوا بها، وجاشت جيش الرجل، وقامت الفتنة على القطب، فأسرعوا إلى أميركم وبادروا إلى جهاد عدوكم، إن شاء

(١) الطبرى : تاريخ ١ : ٣١٤٠ . غمص : احتقر .

الله. فحسبى بكم إخوانا، وللدين أنصارا، فانفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله لعلكم تفلحون" (١).

ولعلنا رأينا الرسالة الثانية تدور حول ما دارت عليه الرسالة الأولى، وخاصة فى عجزها، ولكنها تزيد عليها فى اعتذارها لعلى، وإلقاء اللوم على طلحة والزبير وعائشة. ولعل هذا من وضع الشيعة، أو كان فى رسالة أو خطبة أخرى لعلى وألحقها الشريف الرضى بهذه الرسالة، لأنه كان يهدف إلى جمع البليغ من كلام على وكفى، يقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة معلقا على إحدى رسائل على إلى معاوية: "إن هذه الخطبة - يريد الرسالة - قد ذكرها نصر بن مراحم فى كتاب صفين على وجه يقتضى أن ما ذكره الرضى - رحمه الله - منها قد ضم إليه بعض خطبة أخرى. وهذه عادته، لأن غرضه التقاط الفصيح البليغ من كلامه" (٢).

ولا تقتصر هذه الروايات المتعددة على عهد على وحده، بل وجدت أيضا فى عهد عمر، وشاهدنا على ذلك الرسائل المتبادلة بين عمر وعمرو بن العاص التى تذكرها جمهرة رسائل العرب فيما بين صفحتى ٢١٣ و ٢٢٨ من الجزء الأول. وتعرقل تلك الروايات المختلفة بحثنا عن خصائص الرسائل، بل قد تؤدى بنا إلى الخطأ.

هذا إلى جانب الرسائل الكثيرة الموضوعة على هذا العهد من الأنصار والخصوم. ولذلك نرى أنفسنا، حين نؤرخ للكتابة فى عصر على، سائرين على أرض غير مطمئنة، إذ لا نستطيع أن نقطع فى الرسائل برأى جازم، وإنما هى ظنون واحتمالات.

(١) الرضى: نهج البلاغة ٣ : ٢ وابن أبى الحديد شرح النهج ٣ : ٢٩١ الوجيف : الجرى .

(٢) ابن أبى الحديد: نهج البلاغة ٣ : ٤١٢ .

والأمر الأول الذى نلاحظه كثرة الرسائل كثرة ملحوظة، وذلك راجع إلى النزاع بين على وخصومه، طلحة والزبير وعائشة، فمعاوية وعمرو، فالخوارج، وأنصار كل من هؤلاء وإلى تأليب على عليهم، وحثه قواده إلى استنفار الناس لهم، وإلى مقابلتهم له بمثل عمله. وهذا الأمر يذهب بكتابة الرسائل إلى الأمام خطوات. ونلاحظ أيضا أن الرسائل أخذت تطول، ولا تقتصر على اللمحة الدالة، أو الإيماء الموجزة. وهذا أمر لم يكن معروفا من قبل، ولعل من أسبابه ذلك النقاش السياسى بين على وخصومه .

والأمر الثالث أنها تسير على خطا رسائل عثمان من استشهاد بالقرآن والشعر بل يذكرون القصيدة الكاملة فى الرسالة الواحدة فى بعض الأحيان، كما نرى فى كتاب عياض الثمالي إلى شرحبيل بن السمط الكندى^(١)، وفى بعض كتب معاوية إلى على^(٢)، وفى الكتب المتبادلة بين الوليد بن عقبة ومعاوية^(٣) وغيرها. وهذا نوع من التجميل ولا شك يحسب عند بيان تطور الرسائل .

ونرى فى بعض الرسائل عملا وصنعة، من تأنق فى اختيار الألفاظ والجمل، وسجع أحيانا، وما إلى ذلك .

وما نستطيع أن نشبته هو أن هذه الرسائل أخذت تسير فى سبيل الفصاحة الطبيعية ، بل بلغت الغاية فى بعضها ، وإن لم يكن الكاتب قد استقل تماما عن الإملاء^(٤) ، فما يزال الوليد بن عقبة يقول

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٣٩٤ .

(٢) نفس المرجع ٢ : ٣٩٨ .

(٣) نفس المرجع ١ : ٣٩٠ - ٣٩٣ .

(٤) انظر وصية على لكاتبه فى الوزراء والكتاب ٢٣ .

لمعاوية^(١) :

فإن كنت تنوى أن تجيب كتابه فقبح ممليه وقبح كتابه

الخلاصة

وخلاصة القول إن كتابة الرسائل في عهد النبي والخلفاء الراشدين كانت ناشئة مبتدئة، ليست لها تقاليد مرسومة أو قواعد محكمة. ولكن الرسول كان يملئ ما يخطر على باله دون ترو أو نظر، ولا يستوحى غير عقله وقلبه وما يريد من قصد. ولذلك كانت لغته بسيطة خالصة صريحة لا ترتفع في شيء عن لغة الحديث إذ تقصد اللغتان إلى مجرد الإفهام .

أما ما اتبعه من نظم في أوائل الرسائل وخواتيمها، فإن هي إلا أمور اقتضتها الدعوة التي يبشر بها، فلما جاء خلفاؤه ساروا على منواله، ولم يخلوا بنظمه، وهنا نستطيع أن نقول إن هذه النظم أصبحت تقاليد مرعية. ولكن يجب أن ننظر إلى هذا الرأي نظرة سهلة غير متشددة، إذ أن الخلفاء كانوا يتبعونها اتباعا دينيا لا أدبيا، فهم يعتبرونها سنة من الرسول. ولذلك نرى رسائل على التي يرسلها إلى معاوية يدعوها فيها إلى الطاعة والانطواء تحت لوائه، تشبه كتب الرسول إلى الملوك ورؤساء العرب شبا كبيرا. وإذن فهذه تقاليد دينية، لا تقاليد أدبية، يمكن أن نعتبرها تقاليد فنية. ولم تتطور لغة الرسائل كثيرا في هذه الفترة، إذ لا تزال تهدف إلى مجرد الإفهام، وإن كنا نرى فيها بعض آثار تنبئ عن تنبهم الداخلي، أو عن إحساسهم المبهم بالتجمل في كتبهم. نرى ذلك في الرسائل المتأخرة، وخاصة عند عثمان، وعلى. وعلى الرغم من شيوع نظام الإملاء فإن بعض الكتاب تحرروا من سيطرة

(١) أحد صفوت: الجمهرة ١ : ٣٩٢ .

المملى حتى فى عهد النبى؁ وذلك أمر له أهميته فى الفن؁ يفسح الطريق لإبراز شخصية الكاتب؁ ولتجويده وتخييره وتفننه .

وقد ظهرت عدة ظواهر تدل على أن كتابة الرسائل تعاني حركة داخلية وانفعالا عنيفا يشير إلى تطور هذه الكتابة وسيرها إلى الأمام. ومن هذه الظواهر شيوعها؁ وكثرتها؁ ووجود الدواوين؁ وانتشار هذه الدواوين فى الأمصار المختلفة وظهور الكتاب الخاصين بالأمرء والولاة؁ والإطناب؁ بدل الإيجاز؁ والتجمل بالاقْتباس من القرآن والاستشهاد بالشعر؁ والميل إلى التشخيص؁ وما إلى ذلك من التجمل الطبيعى؁ الذى لا يبلغ حد الصنعة. أما الرسائل التى نرى فيها هذه الصنعة؁ مثل رسالة عمرو بن العاص فى وصف مصر فلا يمكن أن نطمئن إليها. وآخر القول إن هذه الكتابة لم تكن فنية بالمعنى المصطلح عليه؁ ولكنها كانت تسير نحو الفن بخطا حثيثة .

الفصل الثالث

عهد الأمويين

بدأ الأمويون صفحة جديدة من التاريخ الإسلامي، تغيّر الصفحات السابقة كبير مغايرة، فقد قامت تلك الدولة على أسس دينوية تغيّر أسس العهد السابق، وأحسن قول نعتت به أنها تحولت من خلافة إلى ملكية وراثية، تشبه ملكية فارس والروم، كما قال كثير من العرب أنفسهم. ولعل من القول المعاد أن نقول إن العرب اطلعوا على أقطار جديدة بالفتوح الإسلامية، وإن لواء الأمويين أظل عناصر غير عربية الجنس، ولكنها أخذت تتقبل دين العرب، ولغتهم وأدبهم. ومن القول المعاد أن نقول إن هذه العناصر المستعربة مخالفة للعرب في مزاجها، وتفكيرها، وتراثها. ومن القول المعاد أن نقول إن هذا الاختلاف كانت له آثار في جميع نواحي الحياة العربية، من اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية وثقافية وفنية، وخاصة الناحية التي تهمنا وهي الأدبية. وكان من أوائل الآثار التي ترتبت على نشوء الدولة والاتصال بالأجانب، ظهور ديوان الجند على يد عمر بن الخطاب. ثم تنالت الآثار بعد ذلك، وخاصة في العصر الأموي الذي لم يعد يوجد فيه تخرج الصحابة والخلفاء، وخوفهم من كل جديد لم يعرفه عصر الرسول. هذه الدولة التي ثبتت دعائمها في العهد الأموي، وانثالث عليها الأموال والغنائم من الأقطار المفتوحة، لا بد أن تأخذ بما أخذت وأخذ به غيرها من الدول، من تحضر وتمدن، وما يتبعهما من ترف وتجميل. وهذا التحضر يتبعه تعقد في الحياة، وتشابك في المصالح، وحاجة إلى التفاهم والتواصل. وهذا مما يطور كتابة الرسائل وينميها وذلك ما حدث فعلا.

فقد رأينا من قبل كتابة الرسائل يغلب عليها الإملاء من الخليفة، والنسخ من الكاتب. ولكننا لا نلبث في هذا العهد أن نرى الشواهد تترى دالة على انفراد الكاتب بنفسه، وكتابته الرسائل دون إملاء .

يقول الجهشيارى^(١): وذكر أن زيادا دخل يوما ديوانه، فوجد فيه كتابا، وفيه: ثلاثة دنان. فقال: من كتب هذا؟ ف قيل: هذا الفتى. فقال: أخرجوه من ديواننا لئلا يفسده، وامح هذا واكتب: آدن". فهذا الخبر يدل على أن الكاتب كان يكتب بنفسه، ولولا ذلك ما استفسر عنه زياد، وما كتب هذا اللفظ الذى لم يرض عنه زياد .

وكذلك يروى الجهشيارى خبرا^(٢) عن يزيد بن معاوية الذى اضطرب حين سمع بخروج الحسين إلى العراق، وأراد أن يوليه رجلا يستطيع أن يكفيه. فأشار عليه سرجون الكاتب بتولية عبيد الله بن زياد، فكره ذلك يزيد. فأخرج له سرجون عهدا من معاوية لعبيد الله بولاية الكوفة، كان كتبه معاوية قبل أن يموت. فرضى يزيد بهذا العهد، وأنفذه إلى عبيد الله. يقول الجهشيارى: "فقال (يزيد) له (لسرجون): فأنفذه إليه". ثم يستمر الجهشيارى فى رواية الخبر فيقول: "وكتب معه عن يزيد إليه: أما بعد فإن المدوح مسبوب يوما ما .." وحين نتأمل فى العبارة السابقة "وكتب معه عن يزيد إليه" قد نحار فى معناها: من الذى كتب؟ وكتب مع من؟ وإلى من؟ وأعتقد أن الكاتب هو سرجون، وأنه كتب مع العهد الذى من معاوية، وأنه إلى عبيد الله، أى أن سرجون أرسل إلى عبيد الله بن زياد عهد معاوية، ومعه رسالة كتبها بنفسه نيابة عن يزيد، ولو أراد أن سرجون "كتب مع يزيد

(١) الوزراء والكتاب ٢٥.

(٢) نفس المرجع ٣١.

الكتاب" لقال: وكتب مع يزيد إليه. وعلى هذا التفسير نرى العبارة تصرح بأن سرجون كتب "عن يزيد"، وهذا تصريح لا غموض فيه بأن الكاتب كتب بنفسه على لسان الخليفة. وهذا أمر كبير الأهمية ولا شك، إذ فيه دلالة واضحة على أن شخصية الكاتب بدأت تظهر وتنفرد فى رسائلهم، كما قلنا فى الكلام عن عهد عمر. وإذن كان الكاتب حرا فى بعض الأحيان، وخاصة حين يثق به الخليفة، فكان يكتب دون إملاء. ويسر له هذا التروى والتجبر. ولكننا قبل أن نترك هذا الشاهد يجب أن نلاحظ عليه أنه بليغ، فيه عمل وصنعة، وتحسين وتجميل، فيه ما لا أظن أن سرجون بن منصور الرومى الذى كان يتقلد ديوان خراج الشام بالرومية^(١)، يستطيعه أن يبلغه من العربية، فى ذلك العهد المبكر. وإذن فهذه الرسالة أظنها موضوعة على سرجون، ولا يمنعنا ذلك من تصديق الخبر، أو على الأقل الشعور بأن القدماء كانوا يعتقدون بأن الكتاب كانوا أحرارا فى كتابتهم أحيانا .

وهاك شاهدا ثالثا على انفراد الكاتب برسالته. روى الجهشيارى:^(٢) "أن كاتباً كان لمصعب بن الزبير كتب: "المصعب"، فقال مصعب: ما هاتان الزائدتان؟ يعنى الألف واللام". فهذا التعريف الذى أدخله الكاتب على اسم مصعب، بغير رضى الأخير، يدل على أن مصعباً لم يكن يمليه، وإلا أملاه بدون الزائدتين .

وشاهدنا الرابع على تخلص الكاتب من الإملاء رسالة عبد الرحمن بن الأشعث إلى الحجاج التى يصرحون بأن ابن القرية كتبها له عنه^(٣). يقول الدينورى: "فقال له

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ٤٦ .

(٣) الدينورى: الأخبار الطوال ٣٢٣. وابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢ : ٢٦ وأحمد صفوت: الجماهير

. ٢١٩ : ٢

(لابن القرية) عبد الرحمن (بن محمد بن الأشعث): إنى أريد أن أكتب إلى الحجاج كتابا مسجعا أعرفه فيه سوء فعاله، وأبصره قبح سريرته". وهناك شواهد أخرى لا داعى للإطالة فى ذكرها^(١).

ولكن يجب أن نقول إن كل هذا لا يدل على اختفاء الإملاء اختفاء تاما، بل لا زال موجودا، ولن يزال كذلك حتى فى العصر العباسى، وخاصة حين يستفزع الخليفة فىرى أن يجب بنفسه^(٢).

ويتطور الأمر فى أواخر العصر الأموى حتى نرى قبيصة بن ذؤيب يفحص الكتب الواردة على عبد الملك بن مروان، ويقرؤها قبل عرضها على الخليفة. يقول الجهمشيارى^(٣) "وكان يكتب لعبد الملك قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة بن عمرو الخزاعى، ويكنى أبا إسحاق. وكان خاصا به، وبلغ من طلاقة محله منه أنه كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل أن يقرأها عبد الملك". ثم يروى قصة تؤيد ذلك القول. وبعد ذلك خطوة مهمة فى تاريخ تطور كتابة الرسائل، والعلاقة بين الكتاب والخلفاء.

ديوان الرسائل

والمسألة التى أمامنا هى متى ظهر ديوان الرسائل؟ لا نجد تصریحا فى شتى المراجع التى لدينا عن تاريخ إنشاء هذا الديوان، فيما عدا ذلك القول فى صبح الأعشى للقلقشندى، وقد رفضناه من قبل.

(١) الجهمشيارى: الوزراء والكتاب ٦٢ .

(٢) الجهمشيارى: الوزراء ٥٥، ٦٩ وأحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٥٣ وابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٨ .

(٣) الجهمشيارى: الوزراء والكتاب ٢٤ .

وإذا ما قلبنا صفحات "الوزراء والكتاب"، وطالعنا أسماء كتاب الرسول والخلفاء الراشدين من بعده، وجدناه يقول عن الواحد منهم: "كان فلان يكتب كذا"^(١) أو "يكتب له"^(٢) أو "كان يكتب لفلان فلان"^(٣) أو "فلان كتب له"^(٤) أو "استكتب فلان فلانا"^(٥). ونستمر نرى هذه العبارات وحدها طوال أيام الخلفاء الراشدين، غير أننا نراه يقول عن أبي جبيرة بن الضحاك (في عهد عمر): "وكتب له على ديوان الكوفة"^(٦) وهكذا يصفه بأنه "على الديوان". فأى ديوان نراه يقصد، ديوان الجند، أو الخراج، أو الرسائل، أو غيرها؟ إذا استمررنا في تصفح نفس الكتاب نراه يعطينا الجواب، إذ يقول عن بعض الخلفاء: "ويكتب له على الديوان سرجون بن منصور النصراني"^(٧). والمعروف أن سرجون كان على ديوان الخراج^(٨) تولاه لعبد الملك بن مروان ولمن تقدمه من الخلفاء^(٩). فنستطيع من هذا أن نرجح أن كلمة "الديوان" المطلقة عند الجهشياري تعنى ديوان الخراج. ولكننا نعرف أن هذا الديوان كان يكتب بالفارسية في العراق، والرومية في الشام، وبال يونانية والقبطية في مصر يقول الجهشياري^(١٠): "ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان، أحدهما

(١) نفس المرجع ١٢، ١٣ .

(٢) نفس المرجع ١٣، ٢١٠، ٢٣ .

(٣) نفس المرجع ١٥، ١٦، ٢١، ٢٣ .

(٤) نفس المرجع ١٥، ١٦ .

(٥) نفس المرجع ١٧ .

(٦) الجهشياري: الوزراء والكتاب ١٦ .

(٧) نفس المرجع ٣٢، ٣٢٣ .

(٨) نفس المرجع ٣١ .

(٩) نفس المرجع ٤٠ .

(١٠) نفس المرجع ٣٨ .

بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم، وهذا الذى كان عمر قد رسمه، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية. وكان بالشام مثل ذلك، أحدهما بالرومية والآخر بالعربية. ومن الطبيعى أن العرب لم يكونوا هم الذين يتولون هذا الديوان الفارسى أو الرومى، ديوان الخراج أو ديوان وجوه الأموال، كما يقول الجهشياري، وإنما كان يتولاه الموالى الفرس والروم. وإذن لم يكن أبو جبيرة بن الضحاك على ديوان الخراج، بل على الديوان الآخر العربى، ديوان إحصاء الناس وأعطياتهم، وذلك هو ديوان الجند أو العطاء. يؤيد ذلك أن ديوان الخراج يُشك في وجوده فى عهد عمر، وأن الجهشياري وصف عبد الملك بن مروان بأنه كان "يكتب له (لعثمان) على ديوان المدينة"^(١). والمدينة لم يكن بها ذلك الديوان الذى يقصد منه تدوين ما يؤخذ من الأراضي المفتوحة من الجزية والخراج، وإنما كان بها بدلا عنه بيت المال، وبها أيضا ديوان العطاء. ويقطع بذلك تفريق الجهشياري بين الديوانين. حين ذكر أن على بن أبى طالب استعمل زياد بن أبيه على "الخراج والديوان"^(٢). وإذن عندما يطلق الجهشياري كلمة "الديوان" يعنى بها ديوان الجند أحيانا، وديوان الخراج أحيانا أخرى. ونرى من هذا أن أبا جبيرة بن الضحاك كان على ديوان العطاء، وأن ديوان الرسائل لم يرد ذكره طول عهد الصدر الأول من الإسلام.

وما يكاد يهل العصر الأموى حتى نرى عبارة جديدة تظهر عند الجهشياري، وهى وصفه عبيد الله بن أوس بأنه "كان يكتب لمعاوية على الرسائل"^(٣)، ويقول أيضا عن زياد بن أبيه "ويكتب له على الرسائل عبد الله بن أبى بكر

(١) نفس المرجع ٣١ .

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٣ .

(٣) نفس المرجع ٢٤ .

وجبير بن حية"^(١) فما معنى هذه العبارة الجديدة؟ هل تفيد أن الكاتب تخصص بكتابة الرسائل فحسب؟ ما أظن ذلك، لأن كثيرا من الكتاب السابقين كانوا كذلك، فلم يطلق عليهم هذا اللفظ. وإذن فما معناه؟ هل تفيد أن الكاتب كان يكتب معاوية أو لزياد على "ديوان" الرسائل؟ هذا ما أرجحه، أرجح أن معاوية أنشأ ديوان الرسائل فيما أنشأ من دواوين^(٢). ومما يؤيد ذلك أن هذه العبارة ظلت تستعمل بعد إنشاء ديوان الرسائل بزمن، إذ أطلقها الجهشيارى فى عهد عبد الملك ابن مروان على عبد الله بن أبى فروة، كاتب مصعب بن الزبير^(٣)، وعلى يحيى بن يعمر كاتب يزيد بن المهلب^(٤)، وأطلقها فى عهد هشام بن عبد الملك على رشدين كاتب يوسف بن عمر والى العراق^(٥)، على الرغم من إيقاننا بوجود ديوان الرسائل قبل ذلك العهد كما سيتضح فيما بعد. وقد ظلوا يستعملون أيضا عبارة "وكان يكتب لفلان" بعد إنشاء ديوان الرسائل^(٦). ويؤيد ذلك أيضا أن لفظ "على" يرتبط عند الجهشيارى فى أغلب الأحيان بلفظ "ديوان".

ثم يصرح الجهشيارى بوجود الديوان تصریحا لا غموض فيه فى عهد عبد الملك بن مروان، إذ يقول: "وكان يكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل أبو الزعيرة مولاة"^(٧)، ويصرح أيضا بأن سليمان بن سعد الخثيى كان يتقلد لعبد

(١) نفس المرجع ٢٦ .

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى ١ : ٥٣٠ والدكتور شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى النشر العربى ٣٤ .

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٤٤ .

(٤) نفس المرجع ٤١ .

(٥) نفس المرجع ٦٤ .

(٦) نفس المرجع ٦٤ .

(٧) نفس المرجع ٣٥ .

الملك ديوان الرسائل^(١). ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يصرح الجهمشياري بوجود ديوان للرسائل لدى الولاية، من أمثال الحجاج^(٢)، ويزيد بن المهلب^(٣). ولعل تعدد هذه الدواوين يجعلنا نرجح وجودها من قبل هذا العهد بزمن كاف، مما يطمئنا إلى ما قلناه من ظهورها في عهد معاوية بن أبي سفيان .

وهكذا نرى أن ديوان الرسائل ظهر في أوائل العصر الأموي، في أيام معاوية ابن أبي سفيان، وتطور سريعا حتى انتشر في الولايات المختلفة. فسمعنا عن ديوان العراق^(٤)، وديوان خراسان^(٥) في عهد عبد الملك بن مروان. ونرى أيضا أن أوائل الكتاب الذين تقلدوا هذا الديوان كانوا عربا خلصا (مثل عبيد الله بن أوس^(٦)، وعبد الله بن أبي بكرة^(٧) ويحيى بن يعمر^(٨)، وقبيصة بن ذؤيب^(٩)، وروح بن زنباع^(١٠))، ويدل هذا على أن ديوان الرسائل عربي النشأة، وليس بالفارسي ولا اليوناني، كما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين. وهذا أمر طبيعي في الرسائل العربية التي يطلب فيها الخلفاء الفصاحة والإجادة اللتين لم تتوفرا للأعاجم في ذلك الوقت ولكننا لا نلبث أن نرى الأعاجم ينافسون العرب في هذا الميدان، منافستهم لهم في

(١) نفس المرجع ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ٤٢ .

(٣) نفس المرجع ٤١ .

(٤) نفس المرجع ٤٢ .

(٥) نفس المرجع ٦٣ .

(٦) الجهمشياري: الوزراء والكتاب ٢٤ .

(٧) نفس المرجع ١٦ .

(٨) نفس المرجع ٤١ .

(٩) نفس المرجع ٣٤ .

(١٠) نفس المرجع ٣٥ .

جميع الميادين الأخرى، وربما كانت منافستهم لهم فيها أسرع منها في الميادين الأخرى إذ نجدهم يتعلمون العربية ويتقنونها ويستطيعون التعبير بها تعبيرا فصيحاً جميلاً بليغاً. فنرى أبا الزعيزعة مولى عبد الملك بن مروان على ديوانه ولا يزال الأمر في تطور حتى نرى ديوان الرسائل في يد الموالي في عهد هشام بن عبد الملك. إذ يتقلده مولاة سالم وابنه وتلاميذه الذين يعتبر عبد الحميد الكاتب، وهو من الموالي أيضاً، أنبغهم. فديوان الرسائل نتأ نشأة عربية خالصة، ولكنه في أثناء سيره أمدته روافد فارسية ويونانية على يد هؤلاء الموالي الذين أتقنوا اللغة العربية، وعبروا بها شعراً ونثراً.

ولا يخامرنا الشك في أن هؤلاء الكتاب طوروا الكتابة تطويراً كبيراً إذ اتخذوها مهنة لهم، يجودون فيها ويحسنون، حتى يبلغوا أعلى المراتب وما كان الكاتب منهم مستطيعاً أن يتقلد ديوان الرسائل إلا إذا أظهر هذه البراعة وأبان عن جمال في كتابته، وتفنن في أسلوبه. وهكذا تصل الكتابة إلى الفن الصحيح عندهم. ونستطيع دون وجل أن نطلق على كتابتهم اسم "الكتابة الفنية" ومما يدل على ميلهم إلى التجمل والتزين، أننا نرى الوليد بن عبد الملك يأمر بكتابة رسائله في الصحف، يقول الجهمشيارى: "وكان الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير. وأمر بأن تعظم كتبه، ويجل الخيط الذي يكاتب به وكان يقول: "تكون كتبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض"^(١) فهذا الخليفة يطلب التخصص والتجمل في الورق والخيط، والابتعاد عن مشابهة كتب الناس. ولا شك أنه لا يكره التجمل في الأسلوب والأفكار، بل يحبه ويطلبه من كتابه أيضاً. وقد عمل

(١) نفس المرجع ٤٧ . الطوامير: الصحف، الواحدة طومار وطمور .

بذلك الخلفاء من بعده، اللهم إلا عمر بن عبد العزيز المتقشف الزاهد "الذى كان .. يأمر كتابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير"^(١) .

ومن الظواهر التى تدل على اهتمام الأمويين باللغة العربية، وتعريب الأشياء الأجنبية، تحويلهم دواوين الخراج من الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية فى عهد عبد الملك بن مروان. ولا شك أن ذلك أمر له أهميته، إذا عرفنا أن الموالي اضطروا إلى تعلم العربية كى يستعيدوا الوظائف التى انتزعها منهم العرب بهذا التحويل. فلما تعلم الموالي اللغة العربية وأجادوها كى يستطيعوا منافسة العرب فى وظائفهم، أخذوا يحاولون أن يظهروا التفوق عليهم فى التعبير بهذه اللغة. وكانت ثمرة هذا التنافس السير بالكتابة إلى طريق الفن، إذ أخذوا يتجملون فى أساليبهم ويتأنقون حتى يتفوقوا على العرب. ولا شك أن العرب قابلوا هذا الصنيع بالمثل، مما سما بالكتابة إلى الدرجات العلى فى هذه الفترة المبكرة من تاريخها .

فنحن نرى أن كتابة الرسائل فى العربية كانت سريعة التطور، لم يسايرها فى ذلك فرع آخر من فروع الأدب.

خصائص الرسائل الأموية :

إذا ألقينا نظرة عامة على رسائل العصر الأموى، رأينا فيها استمرارا لرسائل الفترة السابقة، ولكنه يصل فى النهاية إلى طور يغير أوائل الفترة الأولى مغايرة تامة فليست لغتها بلغة الخطاب العادى، ولكنها لغة مهذبة مجملة ولا شك. لكن على الرغم من هذا التهذيب لا تصل إلى ميدان كد الذهن، وإنما هو نوع من التزوى والتجويد. وقد لاحظنا من قبل أن ذلك التزوى بدأ منذ أواخر الصدر الأول من

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٥٣ .

الإسلام. فالكتابة كانت تسير سيرا حثيثا نحو الفن والجمال وإن المرء منا حين يقرأ رسالة يزيد بن معاوية لأهل المدينة^(١)، وهي التي يقول فيها: "وإني والله قد لبستكم فأخلفتكم، ورفعتكم على رأسى، ثم على عيني، ثم على فمى، ثم على بطنى، وأيم الله لئن وضعتكم تحت قدمى لأطأنكم وطأة أقل بها عددكم، وأترككم بها أحاديث، تُنتسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود". لا شك أن المرء حين يقرأ هذه الرسالة يشعر بما فيها من تحبير وتجويد. فهذا هو الأسلوب التصويرى "الرمزى" يشيع فى هذه الرسالة، ليين لأهل المدينة إكرام الخليفة لهم، وسعيهم فيما يحطهم فى عينه، وإنه إن لم ينتهوا سيسحقهم سحقا، فلا يبقى منهم باقية. ولا يستولى علينا الدهش حين نقول الأسلوب التصويرى، لأن بعض أنواع هذا الأسلوب من الأساليب الفطرية التى تظهر مبكرة فى الفنون، وقد رأينا أمثلة منه فى عهد عثمان. ويظهر هذا الأسلوب أيضا فى رسالة الحجاج عند وفاته إلى الوليد، يقول^(٢):

"أما بعد ؛

فقد كنت أرعى غنمك، أحوطها حياة الناصح الشفيق برعية مولاه. فجاء الأسد فبطش بالراعى، ومزق المرعى كل ممزق".

وتبين هاتان الرسالتان أن لغة الكتابة قد ارتفعت إلى لغة الخطابة، بل أخذت تستعير منها عاريات، تضمها إلى نفسها، فتظهر كأنها منها لحمها ودما، إذ لا فرق بين العارية والأصيل. ولا شك أننا نعرف أن لغة الخطابة كان لها تراثها القديم، وأنها كانت تزفع عن لغة الكتابة من قبل.

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٩٤ .

(٢) نفس المرجع ٢٩٢ .

ومن ظواهر التحبير والتزوي ذلك السجع الذي فشا في رسائل المختار بن أبي عبيد الثقفي، وخاصة رسالته إلى أنصاره من الشيعة. فقد قال في رسالته إلى سليمان ابن صرد بعد محاربتة عبيد الله بن زياد^(١):

"أما بعد ؛

فإن الله أعظم لكم الأجر، وخط عنكم الوزر، بمفارقة القاسطين، وجهاد المحلين، إنكم لم تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خطوة، إلا رفع الله لكم بها درجة، وكتب لكم بها حسنة .. "

وكان المختار مولعا بالسجع في حديثه وخطابته وكتابه، ومغرما بمحاكاة القرآن وفواصله، والاستعارة من معانيه وأخيلته. يقول في رسالته إلى الأحنف بن قيس:^(٢)

"أما بعد ؛

فويل أم ربيعة من مضر، فإن الأحنف مورد قومه سقر، حيث لا يستطيع لهم الصدر، وإنى لا أملك ما خط في القدر، وقد بلغنى أنكم تسموننى كذابا، وإن كُذبت فقد كذبت رسل من قبلى، ولست بخير من كثير منهم" .

كل ذلك لا لرغبة فنية، ولكن لتأييد ما يدعيه من نزول الوحي عليه، ومن ادعاءات أخرى غريبة ليس هنا موضع ذكرها^(٣). والأمر الذي يعيننا في هذا أن ندرك أن السجع كان يرتبط لدى العرب بالكهانة والعرافة، ولذلك يقال إن

(١) نفس المرجع ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع ١٣١ .

(٣) تاريخ الطبرى عام ٦٦ هـ وما بعدها .

العرافين من العرب القدماء فى الجاهلية كانوا لا يقولون تنبؤاتهم إلا سجعا. وندرك كذلك أن السجع ارتبط بالأمر الدينية، ولذلك نجد يظهر ويأخذ فى النمو فى حلقات الرعظ فى الكوفة والبصرة.

وقد ظهر السجع أيضا فى بيئة أخرى غير دينية، وأعنى بذلك ظهوره فى دائرة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. روى الدينورى^(١) أن عبد الرحمن أمر ابن القرية عندما خرج على الحجاج، بكتابة رسالة مسجعة إليه يخلع فيها طاعته. ويعرفه فيها سوء فعالة، ويصره قبح سريره فكتب إليه :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الحجاج بن يوسف :

سلام على أهل طاعة الله وأوليائه، الذين يحكمون بعدله، ويوفون بعهده، ويجاهدون فى سبيله، ويتورعون لذكره، ولا يسفكون دما حراما، ولا يعطلون للرب أحكاما، ولا يدرسون له أعلاما، ولا يتكبون النهج، ولا يبرمون السى، ولا يسارعون فى الغى، ولا يدللون الفجرة، ولا يتراضون الجورة، بل يتمكنون عند الاشتباه، ويتراجعون عند الإساءة.

"أما بعد .

فإنى أحمد إليك الله حمدا بالغا فى رضاه .."

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ٣٢٣ . أحب أن أعبر عن شكى الشديد فى هذه الرسالة وأختها رسالة الحجاج . وقد يكون من أسباب هذا الشك - غير انتشار السجع والتحجير فيها - شك العلماء فى وجود ابن القرية نفسه . يقول الأسمعى (الأغانى ٢ : ٣) رجلان ما عرفا فى الدنيا قط إلا باسم : مجنون بنى عامر وابن القرية ، وإنما وضعهما الرواة" . ويقول عوانة بن الحكم (الأغانى ٢ : ٩) : "ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا : ابن أبى العقب صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية . ومجنون بنى عامر".

وكان رد الحجاج عليه مسجوعا أيضا، ونحن لو صدقنا هاتين الرسالتين لقلنا بأن السجع تعدى الدوائر الدينية، ووصل إلى الدوائر الفنية الدنيوية أيضا، بل نقول إن السجع في الإسلام فن عربي صرف، لأن ابن القرية عربي خالص من البادية كما يقول مترجموه، هذا إلى جانب وجود السجع في كلام الكهان العرب منذ جاهليتهم. وارتبط بالسجع الازدواج، فكان الكاتب في كثير من رسائله يتخلص من أولهما إلى الثاني .

وتمر الكتابة في تطورها بمرحلة غريبة عنها، بل غريبة عن العقل العربي الخالص، لم يعرفها من قبل .

تلك هي مرحلة الإطالة في الكتابة. وقد تكلمت قبل عن طول الرسائل في عهد الفتنة، وأرجعت ذلك إلى الجدل السياسي بين الأحزاب المختلفة، ولكننا في هذا العصر نجد الطبري يصرح بأن عمرو بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد أول من أطال في الكتب^(١). وكانت هذه الظاهرة من الغرابة عن العرب الخالص، بحيث لم تستطع أن تسيطر عليهم وتغزو شعرهم، وإنما تغلبت على الكتابة التي يلعب فيها العقل والثقافة الدور الأكبر. وقد أخذت هذه الظاهرة تتطور وتفشو، حتى إننا نجد عبد الحميد في آخر هذا العصر يكتب رسالة يقال إنها استوعبت مجاميع ضخمة من الصحف^(٢).

واتجه التجويد والتحسين وجهة أخرى، إذ يرى يحيى بن يعمر العدواني كاتب يزيد بن المهلب أن الجمال في الإغراب اللفظي، وتبع الألفاظ النادرة الاستعمال.

(١) الطبري ٢ : ٢٧٠ .

(٢) ابن نباتة المصري: سرح العيون ١٢٨ .

رووا أن يحيى بن يعمر كتب عن يزيد إلى الحجاج يبنه بأحد الفتوح، فقال: "إنا لقينا العدو، فقتلنا طائفة، وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة بعرائر الأودية، وأهضمام الغيطان. وبتنا بعرة الجبل، وبات العدو بحضيضه"^(١). فلما أتى الكتاب إلى الحجاج استدعى يحيى وأخذ يسأله عن فصاحته. ويدل هذا الخبر على أن بعض الكتاب كانوا يتأنقون في اختيار ألفاظهم، بل يبحثون عنها ولا يرضون بما يأتيهم عفوا. وكان هذا الإغراب اللفظي ثمرة لبيئة العراق التي اجتمعت فيها القبائل العربية، وواصلت حياتها القبلية التي كانت تحياها قبل الإسلام، أو قريبا منها.

وأخذ الكتاب يعنون بصدور رسائلهم ويتجملون فيها. فهذا كاتب المهلب يعنى بالتحميد ويطيله على غير ما اعتاد العرب فيقول^(٢):

"بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه، المعجل النعمة لمن بغاه، الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه، حتى ينقطع الشكر من عباده. أما بعد .. " ويظهر في هذا التحميد الأساس السجعي الذي سيقام عليه هذا الفن. وقد رأينا هذا أيضا في رسالة ابن القرية التي ذكرناها آنفا. ونرى في هاتين الرسالتين وغيرهما بداية ذلك الفن الذي سيراغى فيما بعد، إذ تطال التحميدات والصدور، ويراعى فيها موضوع الرسالة، فيكون التحميد مشعرا بذلك الموضوع. ولعلنا لاحظنا ذلك في رسالة المهلب السابقة التي أرسلها مبشرا ببعض انتصاراته على الخوارج، وفي رسالة ابن القرية أيضا.

(١) المبرد: الكامل ١ : ١٣٣ . عرائر الأودية: أسافلها. والأهضام: جمع هضم، وهو المطمئن الواسع من

الأرض. وعرة الجبل: أعلاه. والحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ١٨٧ .

وسيعنى بهذا الفن عبد الحميد الكاتب، فيطيل فيه ويتفنن، ويعطيه قواعده النهائية التي يسير عليها الكتاب فيما بعد، وخاصة تحميداته في الفتوح^(١). وقد أدى ذلك ببعض الأدباء إلى أن يقول إنه أول من استعمل التحميدات في فصول الكتب^(٢). وقد رأينا الآن إنه ليس أول من فعل ذلك، بل سبقه بعض الكتاب الأمويين. وربما كانت هذه التحميدات من أثر كتب النبي والصحابة وخطبهم، فقد كانت تبدأ بالحمد. ولكنه كان حمدا قصيرا موجزا، فلما أتى كاتب المهلب أطاله قليلا، ولما أتى عبد الحميد أسهب وأطنب فيه. وربما كان عبد الحميد متأثرا في تحميداته المطولة بخطب علي بن أبي طالب، التي كان يحفظها، ويقول عنها إنها سبب بلاغته. وهاك أحد تحميدات عبد الحميد^(٣):

"الحمد لله العلى مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصادق وعده، الذى قدر على خلقه بملكه وعز في سماواته بعظمته، ودبر الأمور بعلمه، وقدرها بحكمه، على ما يشاء من عزمه، مبتدعا لها بإنشائه إياها، وقدرته عليها، واستصغاره عظيمها، نافذا إرادته فيها، لا تجرى إلا على تقديره، ولا تنتهى إلا إلى تأجيله، ولا تقع إلا على سبق من حتمه. كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وحيه، لا معدل لها عنه ولا سبيل لها غيره، ولا يعلم أحد بخفاياها ومعادها إلا هو، فإنه يقول فى كتابه الصادق "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين".

(١) نفس المرجع ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ .

(٢) المسعودى: مروج الذهب ٣ : ١٧٨ .

(٣) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٥١ .

ونرى في هذا التحميد سجعا، وزواجا وعبارات متزنة موسيقية، واقتباسا من القرآن، وغير ذلك من الحلى اللفظية والأسلوبية .

وعلى الرغم من ميل الكتاب في هذا العصر إلى التحسين والتجميل، يجمل بنا أن نقول إن ذلك لم يخرج بهم إلى مرتبة التكلف، أو السعى وراء السجع أو البديع، وإنما كانوا يأتون برسائلهم في أسلوب جميل فصيح بليغ توشيه بعض الجمل المتوازنة، التي تتزاج أحيانا، وتسجع أحيانا، وتسير طبيعية في غالب الأحيان، ويجملها أيضا شيء من تشبيه واستعارة وكناية ولكننا لن نخذعنا تلك الرسائل التي نرى السجع يفشو فيها، وتنسب إلى ذلك العصر، فإنها مما حُمل عليه، ووضع على السنة أدبائه، وقد أكثرنا آنفا من التنبيه إلى عدم اطمئناننا إلى ما يروى عن هذه الفترة من التاريخ، التي كثر فيها العداء، واختلطت المصالح، سواء كان ذلك في عهدها أو بعده، واستباح كل امرئ من هؤلاء الخصوم والأولياء أن ينسب لأدبائها أو رجالها ما يؤيد حجته.

إذن نحن نجد كتابة الرسائل الرسمية تطورت تطورا سريعا، رمى بها إلى أحضان الفن، منذ أوائل العصر الأموي، وكان ممهدا للصورة الأخيرة التي ستأخذها عند عبد الحميد الكاتب وأساتذته. فقد كان هؤلاء الكتاب حلقة ذات ثقافة أجنبية أثرت في الكتابة تأثيرا جميلا، وأخذت بيدها إلى الصورة البسيطة الجميلة من الفن.

الباب الثانى

الرسائل الإخوانية

الفصل الأول

صدر الإسلام

ليس هذا العنوان بغريب على قراء الأدب العربى، ولكنى أحب أن أشير إلى أنه يطلق على جميع الرسائل غير الديوانية. ونحن - وقد عرفنا حال الكتابة فى الجاهلية - لا نستبعد وجود هذا الفرع من الكتابة فى ذلك العصر. ولكن البحث المنقب لم يؤد بنا إلى شىء من هذه الرسائل. وأما ما جمعته جمهرة رسائل العرب^(١) فقصائد شعرية، يقال إنها أرسلت إلى المكتوب إليهم، ولا يدخل فى نطاق بحثنا هذا غير الرسالتين المنسوبتين إلى أكثم بن صيفى. ويرى الناظر فيهما أنهما عبارة عن مجموعة من الحكم والأمثال، جُمع بعضها إلى جانب بعض دون رابطة أو تآلف. ونحن نرجح أنهما من جمع المتأخرين المحبين للنوادر الشوارد اللغوية، وخاصة أن من المعروف أن حكماء العرب، بل حكماء العالم أجمع، قد حمل عليهم الكثير من الأقوال. وهكذا نرى أنفسنا وليس أمامنا ما نستطيع أن نسميه إخوانيات الجاهلية. فإذا بحثنا فى الصدر الأول من الإسلام عن وسائل إخوانية لم نكد نجد شيئاً، فهم لا يروون لنا للنبي غير رسالة إخوانية واحدة، يعزى فيها معاذ بن جبل فى ابن له مات، يقول: (٢)

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ١ - ٢٤ .

(٢) نفس المرجع ٦٥ .

من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل:
سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد:

فعظم الله لك الأجر، وأهمك الصبر. ورزقنا وإياك الشكر. ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية، وعوارفه المستودعة، نمتع بها إلى أجل معدود، وتقبض لوقت معلوم. ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى. وكان ابنك من مواهب الله السنية. وعوارفه المستودعة، متعك به فى غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير: الصلاة والرحمة والهدى، إن صبرت واحتسبت. فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين: أن يجبط جزعك صبرك، فتندم على ما فاتك، فلو قدمت على ثواب مصيبتك، قد أطعت ربك وتنجزت موعوده، عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه. واعلم أن الجزع لا يرد ميتا، ولا يدفع حزنا، فأحسن الجزاء، وتنجز الموعود، وليذهب أسفك ما هو نازل بك، فكان قد^(١).

ومن يتأمل فى هذه الرسالة يرى - إذا كانت حقيقية ولم يغير فيها الرواة - نفس النمط الذى تسير عليه كتب الرسول السياسية، ويرى نفس أفكاره صلى الله عليه وسلم، بل قد تتضح فيها روح الرسول وعاطفته الدينية أكثر من غيرها. وذلك أمر لا غرابة فيه، لأنها رسالة إخوانية يصدر فيها كلام النبى عن عواطفه وأحاسيسه، التى قد لا تظهر فى المعاهدات أو كتب الأمان أو غيرها من الكتب السياسية. ونرى فى هذه الرسالة أيضا نوعا من الفصاحة والبلاغة يعلو بعض الشيء عن كتبه صلى الله عليه وسلم السياسية، ولعل السبب ما ذكرته آنفا، ويلاحظ فيها أيضا الصلة الشديدة بينها وبين أقواله فى الوعظ والإرشاد، ولعل ذلك أيضا من

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٦٥ العوارف: جمع عارفة، وهى المعروف .

أسباب السمو بأسلوبها. وستظل هذه الملاحظة تنطبق على كثير من إخوانيات صدر الإسلام، وبعض إخوانيات العصر الأموي، فلا استطاع الفصل بين الرسائل الإخوانية والرسائل الدينية فصلا تاما، إذ كان الغالب على الرسائل الإخوانية التي حفظت لنا روح الوعظ والإرشاد. ومن أوضح الأمثلة على ذلك رسالة عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله: (١)

"أما بعد،

فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه. فاجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، ولا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خلق له".

وأحب أن أعبر عن بعض الشك في هذه الرسالة التي رواها جماعة متأخرون، منهم صاحب زهر الآداب، ومجمع الأمثال. ولا يخفف من هذا الشك إلا أن أسلوبها المسجع، وعبارتها المتوازنة، تشبه أسلوب أحاديث الرسول الوعظية، والخطب الدينية، وهي لا تحتوى إلا على ذلك، حتى لنستطيع أن نضعها في باب الرسائل الدينية دون أن نخشى لوما. ومن أمثلة هذه الصلة بين الرسائل الإخوانية والدينية الرسائل المتبادلة بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي، التي توجد في جمهرة الرسائل، وفي حلية الأولياء^(٢). يقول سلمان في إحدى رسائله: (٣)

"أما بعد .

فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على

(١) نفس المرجع ٢٨١ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٣٢٤-٣٢٥. وأبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ١ : ٢١٤، ٢١٦ .

(٣) انظر النص المطول في حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

ما تكره، فليكن كلامك ذكرا، وصمتك فكرا، ونظرك عبرا. فإن الدنيا تنقلب،
وبهجتها تتغير، فلا تغتر بها، وليكن بيتك المسجد .

والسلام"

ويقول أبو الدرداء:

"سلام عليك .

أما بعد ،

فإني أوصيك بتقوى الله، وأن تأخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك
لهرمك، ومن فراغك لشغلك. ومن حياتك لموتك، ومن جفائك لمودتك، واذكر
حياة لا موت فيها، في إحدى المنزلتين: إما في الجنة، وإما في النار، فإنك لا تدرى
إلى أيهما تصير".

ونرى في هاتين الرسالتين سجعا، وزواجا، وطباقا، وجملا متوازنة، وذلك -
كما قلنا قبل - هو أسلوب المواعظ الدينية، مواعظ الرسول أو الخلفاء الراشدين أو
الصحابة. بل هو أسلوب خطب الجمعة في المساجد حتى اليوم. وقد أخذت هذه
الرسائل ذلك الطابع من أحاديث الرسول ومواعظه، التي كان يغلب عليها - فيما
يظهر - الأسلوب المتوازن، الذي قد يسجع أحيانا، وقد يزاوج كثيرا. ونرى من
هذا أن السجع ليس بغريب عن الأوساط الدينية. يؤيدنا في ذلك أقوال الكهان في
الجاهلية، والقرآن والأحاديث النبوية في صدر الإسلام، وآثار المختار، ووعاظ
الشوارع والمساجد في المدن الإسلامية في العصر الأموي، وما بعده. وينبغي أن يقر
في أذهاننا أن ليس هذا هو الأسلوب الشائع في الرسائل الإخوانية في هذا العصر،
وإنما تغلب عليها البساطة والسهولة والصراحة ومحاولة الإفهام لا غير، كما هو

الحال فى الرسائل السياسية. ويظهر هذا فى رسالتى أبى الدرداء وسلمان الفارسى التاليتين. كتب أبو الدرداء من الشام إلى سلمان فى العراق^(١).

"سلام عليك،

أما بعد،

فإن الله رزقنى بعدك مالا وولدا، ونزلت الأرض المقدسة".

فأجابه سلمان:

"سلام عليكم .

أما بعد،

فإنك كتبت إلى أن الله رزقك مالا وولدا. فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد، ولكن الخير أن يكثر حلمك، وأن ينفك علمك. وكتبت إلى أنك نزلت الأرض المقدسة، وإن الأرض لا تعمل لأحد. اعمل كأنك ترى الله، واعدد نفسك من الموتى".

وتظهر البساطة والصراحة فى الرسالتين التاليتين المتبادلتين، بين عبد الله ابن عمر وغلّام له^(٢)، كتب إليه غلامه :

"أما بعد ،

فقد أعطيت بفضل مائى ثلاثين ألفا، بعد ما أرويت زرعى ونخلى وأصلى. فإن رأيت أن أبيعهُ وأشترى به رقيقا، أستعين بهم فى عملى، فعلت".

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٣٢٤ .

(٢) نفس المرجع : ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

فأجابه عبد الله:

"قد جاءني كتابك، وفهمت ما كتبت به إلى، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من منع فضل ماء ليمنع به فضل كلاً، منعه الله فضله يوم القيامة، فإذا جاءك كتابي فاسق نخلك وزرعك وأصلك وما فضل فاسق جيرانك، الأقرب فالأقرب .

والسلام"

وفيما عدا هذه الرسائل التي لا تتجاوز عدد الأصابع نرى عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين، يمر مسرعاً أو مبطناً، دون أن يصل إلينا شيء منه ولا يعنى هذا أنه لم تكن توجد إخوانيات كثيرة، بل لقد كانت، وكانت أيضاً فى تطور سريع، حتى وجد نظام البريد فى عهد عمر. وكان سبب وجوده حب عمر فى الاتصال السريع الدائم بعماله. يؤيد ذلك قصة نصر بن حجاج الذى نفاه عمر من المدينة إلى البصرة، لجماله وخوف عمر على النساء أن تفتتن به. يقول الخبر:

وأبرد عمر بريداً إلى عتبة بن أبى سفيان بالبصرة فأقام بها أياماً، ثم نادى منادى عتبة من أراد أن يكتب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً فليكتب، فإن بريد المسلمين خارج. فكتب الناس، ودس نصر بن حجاج كتاباً^(١) .. " .

ولا شك أن هذا النظام كان عاملاً هاماً فى الرقى بالرسائل الإخوائية وغيرها ونشرها.

ولكننا لم يصل إلينا غير هذه الرسائل القليلة من ذلك العهد، فما السر يا ترى؟ السر فى ذلك - كما أعتقد - أن الأدباء العرب لم يعنوا بهذه الرسائل الإخوائية، بل ما كانوا يعنون بها فى الأزمنة المتأخرة، إلا إذا كانت آية فى البلاغة أو نهاية فى

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٨٣ .

الجمال والصنعة. وما كان ذلك ليتوافر لرسائل هذا العهد المبكر. وإذن فسبب ضياع إخوانيات الجاهلية والصدر الأول من الإسلام، بل ضياع كثير من رسائل الأزمنة المتأخرة، أن الأدباء ما كانوا يهتمون بهذا النوع من الكتابة وما كانوا يعتبرونه فنا من الفنون، وخاصة أنه يتصل بالشئون الخاصة للأدباء، والأدب العربي - للأسف - مصاب بمرض إهمال تلك الأمور، في نثره أو شعره. ويرجع ذلك إلى أنه أدب قصور، يعيش على موائد الملوك، ولا يصل إلينا منه إلا ما اقترب منهم واتصل بهم. ولعل هذا المرض لم يصب به الأدباء، وإنما أصيب به النقاد والمؤرخون، وتلك هي الحقيقة. فما كان نقادنا - رحمهم الله - يقدرون ويستحسنون غير شعراء البلاط وكتابه، فيخلدونهم في كتبهم وموسوعاتهم. أما الشعراء الخاصون والكتاب الخاصون، أو الأدباء الذين يعيشون لأنفسهم فلم يحفلوا بهم إلا قليلا. ولذلك لم نجد عنهم غير أخبار نادرة تتساقط إلينا منزوية منكمشة. وهكذا ضاع شعر كثير جميل، وكتابة كثيرة جميلة، وعاش ذلك المديح وشعراؤه، وتلك الكتابة الديوانية وكتابها. ولو وصلت إلينا آثار أولئك الأدباء المنطوين على أنفسهم، لوجدنا كنوزا أدبية تفيض بالعاطفة، ولتفتحت أمامنا ميادين فسيحة للبحث والدرس، ولعثرنا على مذاهب فنية تقوم على قوام الأدب من أفكار وانفعالات وأخيلة، لا على الصنعة والتصنيع والتصنع، التي أولع بها كتاب القصور وشعراؤها. ولعلنا نعذر هؤلاء النقاد والمؤلفين، إذا عرفنا أنهم كانوا يؤلفون كتبهم للملوك والأمراء، فيملأونها بأخبارهم، ويسقطون منها ما يعتبرونه أخبار الشعب والسوقة. والسبب الثاني لضياع إخوانيات العصر الجاهلي والإسلامي عدم سمو هذه الرسائل إلى مرتبة الفن، فما كان ذلك الفرع الناشئ من الأدب ليتخطى حدود الزمان، ويضرب إلى الفن .

أما الذى حفظ لنا الكتابة السياسية، التى لم تصل إلى مرتبة الفن، فارتباطها الشديد بالتاريخ. ولذلك نجدها مدونة فى كتب التاريخ لا فى كتب الأدب. ولن يعنى الأدباء بها إلا عندما تصير فنا جميلا خليقا بعنايتهم. وأما الذى حفظ الرسائل الإخوانية السابقة - فى ظنى - فهى المواعظ التى تشتمل عليها . ولعلها لم تبق بصورتها القديمة، وإنما نالتها أيدى الرواة بالتحبير والتحسين، ومن هنا جاء الفرق بين الرسائل المحبرة التى فيها وعظ، والرسائل العاطلة التى لا مواعظ فيها .

الفصل الثانى

العصر الأموى

فى مستهل هذا العصر يتولى الخلافة معاوية بن أبى سفيان، فى معنى بالبريد وتنظيمه، حتى يشتهر أنه أول من وضع البريد^(١)، وليس ذلك بصحيح، فإن واضعه هو عمر بن الخطاب، كما تقدم. ولكن العصر الأموى لم يكن بأحسن حظا من الفترة السابقة عليه إذ ضاع أكثر رسائله الإخوانية أيضا، ولم نستطع العثور إلا على قريب من عشرين رسالة. وهى فى النصيح والعتاب والاعتذار والتعزية والشفاعة والرجاء وتبادل الآراء والمعارف العلمية، وما إلى ذلك من الأمور التى تقع بين الأصدقاء. ولا نكاد نصل إلى عبد الحميد حتى نراهم يأتون له بنحو خمس رسائل إخوانية، بل يؤلف رسالة طويلة فى الإخاء ذاته .

ونرى هذه الرسائل فى بادئ أمرها بسيطة اللغة صريحة الأسلوب، لا ترمى إلا إلى الإفهام، دون تجمل أو تحبير، كما نرى فى رسالة محمد ابن الحنفية إلى أخيه الحسين، حين اقترفا متغاضبين، وأراد محمد الصلح^(٢):

"من محمد بن على إلى أخيه الحسين بن على،

أما بعد،

فإن لك شرفا لا أبلغه، وفضلا لا أدركه، فإن أمى امرأة من بنى حنيفة، وأمك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمى ما وفين بأملك، فإذا قرأت رقعتى هذه، فالبس رداءك ونعليك، وسر إلى لترضىنى

(١) الكتاني: التريب ١ : ١٩٢ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٤ .

وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى.

والسلام"

أما رسالة معاوية إلى ابنه يزيد فى عتابه، التى يقول فيها^(١)

"من معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية،

أما بعد،

فقد أدت السنة التصريح إلى أذن العناية بك، ما فجع الأمل فيك، وباعد
الرجاء منك، إذ ملأت العيون بهجة، والقلوب هيبة، وترامت إليك آمال الراغبين،
وهمم المتنافسين، وشحت بك فتیان قريش وكهول أهلك، فما يسوغ لهم ذكرك
إلا على الجرة المهومة، والكظ الجشء.

اقتحمت البوائق، وانقادت للمعايير، واعتضتها من سمو الفضل ورفيع القدر
فليتك - يزيد - إذ كنت لم تكن، سررت يافعا ناشئا، وأثكلت كهلا ضالعا،
فواحزنه عليك، يزيد! وياحر صدر المشكل بك، ما أشمت فتیان بنى هاشم! وأذل فتیان
بنى عبد شمس، عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب! فمن الصلاح ما أفسدت، ورتق
ما فتقت؟ هيهات! حمشت الدربة وجه التصبر بك، وأبت الجناية إلا تحذرا على
الألسن، وحلاوة على المناطق، ما أربح فائدة نالوها، وفرصة انتهزوها! .."^(٢).

(١) نفس المرجع ٦٩ .

(٢) "أدت السنة التصريح .. الأمل فيك": أى أفضت بأنباتك السنة الرقباء عليك إلى مسامع أهلك ذى العناية
الشديدة بشأنك. وصرحت له بما تقارفه من المنكرات. الجرة: ما يفيض به البعير فيأكله ثانية، وهو عه ما أكل:
قيامه إياه والمراد أنهم يستقلون ذكره، كظه الطعام كظا: ملأه حتى لا يطيق النفس. والجشء: الكثير. والبوائق:
جمع بائقة، وهى الداهية. والمعايير: المعايير. والدربة: العادة والجرأة على الأمر والمعنى دربتك على اقتراف المعاصى
والسيئات .

أما هذه الرسالة فأشك فيها شكاً قوياً، بسبب ما فيها من العبارات التي تحط قدر يزيد، وتبلغ عنه ما يريد خصمه، مما لا يصح أن يصدر عن أيه الذي يرشحه لولاية العهد. ولعل أسلوب هذه الرسالة يساعد على هذا الشك، إذ نرى فيها شيئاً من السجع، وكثيراً من الألفاظ الغريبة التي لم نعتد وجودها بهذه الكثرة عند معاوية، كما نرى فيها مجازاً بعيداً عن عصر معاوية مثل قوله "فقد أدت السنة التصريح إلى أذن العناية بك ما فجع الأمل فيك" وقوله "خشت الدربة وجه التصبر فيك". ومما يزيد من حدة هذا الشك أنها وصلت إلينا من رواية متأخرة، أعنى كتاب صبح الأعشى^(١).

وتظهر هذه البساطة أيضاً في الرسائل التي يتبادل فيها العلماء المعلومات. يقال إن عروة بن الزبير وعبد الملك بن مروان كانا يتبادلان الرسائل العلمية. يقول الطبري^(٢): ثنا هشام بن عروة، عن عروة، أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان:
أما بعد؛

فإنك كتبت إلى تسألني عن خالد بن الوليد، هل أغار يوم الفتح؟ وبأمر من أغار؟ وإنه كان من شأن خالد يوم الفتح أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما ركب النبي بطن مر، عامداً إلى مكة، وقد كانت قريش بعثوا أبا سفيان وحكيم ابن حرام يتلقيان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم حين بعثوهما لا يدرون أين يتوجه النبي صلى الله عليه وسلم: إليهم، أو إلى الطائف، وذاك أيام الفتح؟ واستتبع أبو سفيان وحكيم بن حزام بدليل بن ورقاء، وأحبا أن يصحبهما ولم يكن غير أبي

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٦ : ٣٨٧ .

(٢) ١ : ١٦٣٤ .

سفيان وحكيم بن حزام وبديل. وقالوا لهم حين بعثوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نؤتين من ورائكم، فإننا لا ندرى من يريد محمد: إيانا يريد، أو هوازن يريد، أو ثقيفا؟ وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش صلح يوم الحديبية وعهد ومدة، فكانت بنو بكر في ذلك الصلح مع قريش. فاقتلت طائفة من بنى كعب، وطائفة من بنى بكر، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين قريش في ذلك الصلح الذى اصطلحوا عليه "لا إغلال ولا إسلال" فأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، فاتهمت بنو بكر قريشا، فمنها غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة. وفي غزوته تلك لقي أبا سفيان وحكيما وبديلا بمر الظهران ..".

ولا يبقى أمر هذه البساطة طويلا، إذ لا يلبث قارئ هذه الرسائل أن يشعر بأن كتابها كانوا يطلبون من أنفسهم إحكامها، حتى لا يفلت من بين أصابعهم شىء، ويطلبون إيجازها، حتى لا ترى فيها موزعا لإطناب، فأنت تشعر فيها بنوع من الدقة والتحرز والحرص، يظهر هذا فى رسالة عبد الملك بن مروان إلى ولده يعاتبه فيها: (١)

"أما بعد؛

فإنى أمرتك بأمر فأتيت غيره، ووصيتك بوصية فأبيت إلا عصيانها، وخفت أنك بمنزلة الصبى الذى إذا أمر بشىء أباه، وإذا نهى عن شىء أتاه، فيحتال له فيما ينفعه بأن ينهى عنه، وفيما يضره بأن يؤمر به، وياسوءتى لمن هذه حاله !

والسلام"

وتظهر فى هذه الرسالة ثمرة التفكير الطويل فى طريقة العتاب، وإيلاء المعاتب

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٤٢ .

بما لا يخرج عن الأدب، بعكس الحال في رسالة معاوية. فهي عتاب ساخر مصور، يشبه الرسم "الكاريكاتورى"، لأسباب فيه ولا شتم .

ونرى ظاهرة أخرى في رسالة بشر بن مروان، التي يعتذر فيها لأخيه عبد العزيز: (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

لولا الهفوة لم أحتج إلى العذر، ولم يكن لك في قبوله منى الفضل. ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لزدت فيه، وبقية الأكابر على الأصاغر من شيم الأكارم، ولقد أحسن مسكين الدارمي حيث يقول :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإن ابن عم المرء - فاعلم - جناحه وهل ينهض البازى بغير جناح"

إذ نرى في هذه الرسالة، إلى جانب الإيجاز والإحكام والاهتمام بالأسلوب وتوازن الألفاظ في الأكابر والأصاغر والأكارم، نرى فيها إلى جانب كل هذا تفكيراً عقلياً يخرج بها إلى حد الغموض القليل، ونرى فيها أيضاً نوعاً آخر من التحلية، أعنى الاقتباس من الشعر .

وتأخذ هذه الرسائل الإخوانية في التقدم، إلا أنها تصاب بنكسة عند عمر ابن عبد العزيز، فترجع إلى حالها الأول لا ترمى إلا إلى الإفهام، ولا تأبه لزينة أو جمال، وإنما تصدر عنه بسطة خالصة صريحة. يظهر هذا في رسالته إلى عمر بن عبد الله بن عتبة يعزيه في أبيه: (٢)

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٧٠ .

(٢) نفس المرجع ٣٥٦ .

أما بعد؛

فإننا قوم من أهل الآخرة سكننا الدنيا، أموات أبناء أموات، فالعجب كل العجب لميت، يكتب إلى ميت، يعزيه عن ميت .

والسلام"

ويظهر هذا أيضا في رسالته إلى مؤدب ولده، وإن كانت أعلى من الأولى أسلوبا: (١)

"من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سهل مولاة .

أما بعد؛

فإني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك عن غيرك من موالى وذوى الخاصة بي، فخذهم بالجفاء فهو أمعن لإفدامهم؛ وترك الصحبة، فإن عاداتها تكسب الغفلة؛ وقلة الضحك، فإن كثرت تميمت القلب. وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهى التى بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه بلغنى من الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف واستماع الأغانى، واللهج بها ينبت النفاق فى القلب، كما ينبت العشب الماء، ولعمري لتوقى ذلك بترك حضور تلك المواطن، أيسر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق فى قلبه .. "

وتظهر هذه النكسة فى رسائله جميعها على اختلاف أنواعها، ولكنها لا تتعدى شخص عمر، فهذا الحسن البصرى، فى عهده، يتصل به أن مكحولا فقيه الشام توفى فيحزن عليه، ثم يتصل به بطلان ذلك فيفرح، ويكتب إليه: (٢)

(١) نفس المرجع ٣٦٨ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٣ : ٣٩٠ .

"أما بعد، أبا عبد الله،

كان الله لنا ولك في الحيا والممات، وقضى لنا ولك بخير في الدنيا والآخرة،
ويسر لنا ولك حسن المال والمنقلب .

فإنه أتانا عنك ما راعنا، ثم أتى بعده ما أكذبه، فلعمر الله لقد سررنا وإن
كان السرور بما سررنا به وشيك الانقطاع، ذاهبا عما قليل إلى الخبر الأول. فهل
أنت - عافاك الله ووفقنا وإياك لصالح العمل - كرجل ذاق الموت، وعان ما
بعده، وسأل الرجعة فأجيب إليها وأعطى ما سأل، بعد أن عان ما فاته، فتأهب في
نقل جهازه إلى دار قراره، لا يرى أن له من ماله إلا ما قدم أمامه، ومن عمله إلا
ما كتب له ثوابه.

والسلام"

فهذه الرسالة على الرغم من اختلافها عن رسائله الأخرى الدينية، تخالف كتب
عمر بن عبد العزيز، فهي تتدفق بالشعور الجميل، الذي يغدق على الألفاظ جمالا،
ويكسب الأسلوب فصاحة وبلاغة.

ويرجع الإيجاز والإحكام في التعبير، والتفكير العقلي إلى الظهور ثانية في
رسالتى سالم مولى هشام. وهاك رسالته إلى بعض إخوانه:
أما بعد؛

فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك، جسيم الرجاء فيما بقى لي
عندك، قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك، وجعل ما سلف إلى
منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك"^(١).

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٤٣١ . مؤتلف: مستأنف .

ويلاحظ على هذه الرسالة توازن جملها وتقابلها، بل تقابل ألفاظ كل جملة
بالفاظ الجملة التي تليها .

وإلى جانب هذا الإيجاز تيار آخر، هو تيار الإطناب، الذي يظهر عند عقاب ابن
شبة وعبد الحميد الكاتب . فقد كتب عقاب إلى خالد بن عبد الله القسرى فى
شفاعة: إن الله انتجك من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطرا شهرته
العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية، وأعان خطرک بقدره مبسوطة، ومنزلة
ملحوظة، فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسره ما خار الله لك،
وليس كلهم أداله الزمان، ولا ساعده الحظ، وأحق من تعطف على أهل البيوتات،
وعاد لهم بما يبقى لهم ذكره، ويحسن به نشره، مثلك .

وقد وجهت إليك فلانا، وهو من دنية قرابتي، وذوى الهيئة من أسرتى وعرف
معروفك، وأحببت أن تلبسه نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعتنى وإياه ما تجده باقيا
على النشر، جميلا فى الغب" (١) .

فهذه الرسالة فيها إطناب، آت من ترادف الجمل، الذى تعمده الكاتب ليوفر
لرسالته نوعا من التوازن، الذى يحدث جرما موسيقيا عند القراءة، وفيها أيضا فكر
يحسن التصرف فى الشفاعة، يبدأ بمدح المشفوع إليه وبيان خطره، ويشئ بالمشفع
فيه وجدارته، ويختتم بالأثر الحميد لقضاء هذه الشفاعة .

أما الإطناب عند عبد الحميد فيظهر فى رسالته إلى أخيه يعرفه بمولوده
الجديد: (٢)

(١) نفس المرجع ٤١٦ . انتجب: اختار . والخطر: القدر . وأدال: نصر . والغب: العاقبة .

(٢) نفس المرجع ٥٤٩ .

"أما بعد؛

فإني ما أتعرف من مواهب الله نعمة خُصصت بمزيتها، وأصفيت بخصيستها كانت أسرى من هبة الله لى ولدا سميته "فلانا"، وأملت ببقائه بعدى حياة ذكرى، وحسن خلافة فى حرمتى، وإشراكه إياى فى دعائه، شافعا لى إلى ربه عند خلواته فى صلاته، وحجه، وكل موطن من موطن طاعته. فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدى، وظهر به سرورى، وتعطفت عليه منى أنسة الولد، وتولت عنى به وحشة الوحدة، فأنا به جذل فى مغيبى ومشهدى، أحاول مس جسده بيدي فى الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يعدله عندى عظيمات الفوائد، ولا منفسات الرغائب، سرنى به واهبه لى على حين حاجتى، فشد به أزرى، وحملنى من شكرى فيه، ما قد أدنى بثقل حمل النعم السالفة إلى به، المقرونة سراؤها فى العجب، بتارات ما يدركنى به من رقة الشفقة عليه مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووجلا من عواصف الأيام عليه .. " ولا شك أن القارئ يشعر بإطنابه، الذى يأتى من ترادف الجمل، وتفصيله فى الكلام. ويشعر أيضا بأن الطفل مائل أمامه، وقد رفعه والده على يديه، حانيا عليه، ملاحبا إياه، حين يقرأ قوله "فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدى، وظهر به سرورى، وتعطفت عليه منى أنسة الولد، وتولت عنى به وحشة الوحدة، فأنا به جذل فى مغيبى ومشهدى، أحاول مس جسده بيدي فى الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه". وهذه قدرة عبد الحميد على التشخيص والتصوير .

وكانت ثمرة تطور كتابة الرسائل الإخوانية فى هذه العصور تلك الرسالة الجامعة التى كتبها عبد الحميد فى وصف الإخاء ذاته. يقول عبد الحميد: (١)

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٤٣٤ .

"فإن أولى ما اعتزم عليه ذوو الإخاء وتواصل عليه أهل المودات، ما دعا أسبابه صدق التقوى، وبنيت دعائمه على أساس البر، ثم أنهد البناء حريز التواصل، وشيده مستعذب العشرة، فادعم قويا، وصفا مونقا، وأخلصته المقة منعطفة، وسكنت به القلوب أنيسة، وسمت من مواصلة الهمم مستعلية عن كل زائغ معتاق، ومخوف عارض"^(١)

ويظهر في هذه الفقرة توازن الجمل وترادفها اللذان يتعمدهما عبد الحميد. ويظهر فيها أيضا ميله للسير المنطقي، فهو يمثل الإخاء بناء تجتمع له الأسس من التقوى والبر، ويرفع بناءه التواصل والعشرة العذبة، ويدعمه ويصفيه، ثم تجمله المقة والمحبة، وأخيرا تسكنه القلوب مستأنسة. ونرى في هذا السير المنطقي حبا للتجسيم والتجسيد، يجعلنا نتصور البناء، في جميع أطواره، مائلا أمام أعيننا كأننا نلمسه بأيدينا. ويظهر هذا الميل للتجسيد والتصوير في تركيب الجمل، التي توحى بالتجسيد أو تكسب الكلام البروز والوضوح كقوله "فأنا مصيخ السمع للفظه، عقل العقل عن سوى أمره، محتضر الذهن في تدبيره، ذهل القلب عن تفنين القول". ولعل هذا الميل للتجسيد والتصوير هو الذى ساقه إلى الإكثار من الحال، التي نعرف أنها تحدد الأمور وتوضحها، وتعطيها صوراً ماثلة أمام ذهن المستمع، فهو يقول في العبارة السابقة "فادعم قويا، وصفا مونقا، وأخلصته المقة منعطفة..". ويقول أيضا في نفس الرسالة: "وكشف لهم عن نفسه، مظهرا أعلامه، مبديا دفينه، طارحا قناع سره، معلنا مكنون ضميره". وتكرر عنده - غير الحال - بعض الصيغ الأخرى مثل المفعول لأجله في قوله "وبث في الحقب من المكارم قياما لهم بالنصرة، وحياطا للمودة، وترغيبا في العشرة". ونحن ندرك أن ذكر الأسباب مما يحدد

(١) أنهد: رفع . وحرير: حصين . والمقة : المحبة .

الأمر، ويحلى الظروف المحيطة بها. وتكرر عنده أيضا صيغة التفضيل يليها المضاف إليه أو التمييز مثل قوله "فكان أكهف لجأ، وأحرز حصن، وأحصف جنة، وأعون ظهير، وأبقى ذخيرة، وأعظم فائدة، وأشرف كنز، وأفخر صنعة، وآنق منظر، وأينع زهرة، أكثر الأشياء ريعا، وأنماها وصلا، وأمدها سببا، وأقواها أيذا، وأحلاها ذوقا، وأدعمها ثباتا، وأرساها ركنا"^(١) وهذا التكرار يكسب كتابته جمالا موسيقيا ملحوظا، فوق تحديده ما يريد من المعانى. وهكذا نرى عبد الحميد يوفر كل هذه الخصائص لإخوانياته مما يضى عليها جمالا وفنا، ويجعلها جديرة بزعامة العصر الأموى.

الخلاصة

وجملة القول إن الرسائل الإخوانية الخالصة التي لا وعظ فيها، بدأت بسيطة خالصة صريحة، ليس فيها شيء من الفن، واستمرت كذلك مديدة فى العهد الأموى، بخلاف الرسائل السياسية، التي سارت فى طريق الفن منذ أواخر صدر الإسلام وأوائل العهد الأموى. ولكن الإخوانيات ما لبثت أن تطورت سريعا، فسارت فى اتجاهين: اتجاه الإيجاز والإحكام والدقة عند عبد الملك بن مروان وأخيه بشر وسالم، واتجاه الإطناب وترادف الجمل وتوازنها الموسيقى عند عقال وعبد الحميد. وكان الاتجاهان كلاهما لا يرضيان بما يعطيه العقل للوهلة الأولى، وإنما يفكران، ويعمقان الفكر، فى سبيل الوصول إلى الأمر الجديد البديع. ونستطيع أن نقول إن تفنن الكتابة الإخوانية تأخر قليلا عن الكتابة السياسية، ولكن الإخوانيات سرعان ما أدركت السياسيات، وسارت بجوارها غير متخلفة عنها ولا متقدمة عليها.

(١) أكهف: أحسن وأمنع. وأحصف: أحكم. والجنة: كل ما يقى. وراع يربع ريعا: نما وزاد. والأيد: القوة.

الباب الثالث

الرسائل الدينية

الفصل الأول

الرسائل الوعظية

من المستحسن أن نبين ما نريده بهذه الرسائل قبل أن نتكلم عنها، فهي ما أرسله كبار رجال الدين والوعاظ والزهاد إلى الخلفاء والأمراء، والأصدقاء أحياناً، لوعظهم، وتوجيههم الوجهة الدينية التي يريدون، وإظهار رأى الدين فى المشكلات التي أمامهم .

ولو أردنا أن نفصل بين هذه الرسائل والأنواع الأخرى السابقة، ما استطعنا فى كثير من الأحيان، وقد رأينا ذلك من قبل فى تعزية الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل، وفى رسالة عمر بن الخطاب لابنه، وفى الرسائل المتبادلة بين أبى الدرداء وسلمان الفارسي، وغيرها من الرسائل، التي نستطيع أن ندخلها فى باب الرسائل الإخوانية أو الدينية دون حرج. وتظهر الصلة الشديدة بين الرسائل الدينية والسياسية كل ظهور فى رسائل الخلفاء إلى عمالهم، وخاصة رسائل عمر بن عبد العزيز. وليس ذلك بالأمر الغريب لأن الخليفة كان الرئيس الدينى والرئيس السياسى فى نفس الوقت. وقد يتضح السبيل أمامنا حين تغلب على الرسالة صبغة الوعظ الدينى، أو تكون مرسلة إلى أحد الخلفاء أو الأمراء .

وعندما ما نبحت هذا النوع من الرسائل نجده يختلف عن الأنواع الأخرى. فهو صادر عن عاطفة دينية لا تريد الإفهام أو الإخبار فحسب، وإنما تريد دفع المرسل إليه إلى العمل بما فى هذه الرسائل من مواعظ. وإذن فمجرد الإفهام غير مطلوب منها، وإنما يطلب منها أيضا أن تؤثر فى قارئها، وتدفعه إلى تغيير وجهة نظره فى الحياة، وإلى أن يقوم بأعمال قد يكون غير معتاد لها من قبل. وإذن يجب على الكاتب أن يراعى هذه المسألة، ويبحث عن الأمور التى تأتى له بهذه الثمرة. ومن هنا يبحث عن تحميل ألفاظه شحنا من عاطفته الدينية الثائرة المتدفقة، كى تثير هذه العاطفة شعور القراء. وما تستطيع الألفاظ جميعا أن تحمل هذه العواطف، وتؤديها الأداء الجميل، ولذلك يضطر الكاتب إلى اختيار ألفاظه واختيار جملة، واختيار أسلوبه. وهو قد يفعل كل ذلك دون أن يتنبه له، وإنما بدافع من عاطفته القوية الثائرة، وقد يفعله وهو جد واع له. ولكن الثمرة واحدة فى الحالتين، إذ استخراج رسائله سامية الأسلوب، عذبة الألفاظ، موسيقية العبارات، زاخرة بالمشاعر. وهذا ما نلاحظه على هذا النوع من الرسائل فى جملتها منذ البداية .

وقد رأينا فى باب الرسائل الإخوانية ما كانت تتحلى به رسالة عمر، ورسائل أبى الدرداء وسلمان الفارسي من خصائص، فلست بحاجة إلى تكرار الكلام عنها. ولما كان صدر الإسلام لم يصل إلينا منه رسائل غيرها، فإننا سنتقل من فورنا إلى العصر الأموى . فإذا ما انتقلنا إلى ذلك العصر، وجدنا أنه بقى لنا منه أكثر مما بقى من الإخوانيات، ويرجع أغلب رسائله إلى عهد عمر بن عبد العزيز، وكثير منها إل قلم الحسن البصرى، تلك الشخصية الدينية الرائعة التى ظلت مثلا بارزا للورع والتقوى طوال القرون السابقة حتى اليوم، والتى كانت المحور الذى دارت عليه قصص دينية جميلة، محقة ومبثلة.

وإذا ما جمعنا هذه الرسائل أمامنا، وأخذنا نتمعن النظر فيها لتبين خصائصها، وجدنا الخاصة الأولى التى تشيع فيها توازن الجمل الموسيقى. نرى هذا فى رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أحد أصدقائه: (١)

"يا أخى، إنك قد قطعت عظم السفر وبقي أقله .. وإياك أن تفرك الدنيا، فإن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، يا أخى، إن أجلك قد دنا، فكن وصى نفسك، ولا تجعل الرجال أوصياءك".

ونرى هذا التوازن الموسيقى فى أغلب الرسائل الباقية، ولعل القارئ سيلاحظ ذلك فى الأمثلة الأخرى التى سنذكرها فيما يلى .

ومن الخصائص التى تبين عنايتهم بألفاظهم، ذلك الزواج الذى يفشو فى معظم رسائلهم، والذى إن أخلى مكانه، فإنما يخليه للسجع. يقول عمر بن عبد العزيز لأبى بكر بن حزم والى المدينة: (٢)

"إن الطالبين الذين أنجحوا، والتجار الذين ربحوا، هم الذين اشتروا الباقي الذى يدوم بالفانى المذموم. فاغتبطوا ببيعهم، وأحمدوا عاقبة أمرهم. فالله الله وبدنك صحيح. وقلبك مريح: قبل أن تنقضى أيامك، وينزل بك حمامك. فإن العيش الذى أنت فيه يتقلص ظله، ويفارقه أهله. فالسعيد الموفق من أكل فى عاجله قصدا، وقدم ليوم فقره ذخرا، وخرج من الدنيا محمودا، قد انقطع عنه علاج أمرها، وصار إلى الجنة وسرورها".

ويقول الحسن البصرى فى رسالته لعمر بن عبد العزيز التى يصف فيها الإمام

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٥٥ .

(٢) نفس المرجع ٣٠٦ .

العادل^(١): "اعلم، يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفه كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف" ويظهر في هذه الرسالة ترادف الجمل وتوازنها ظهورا بينا. ويظهر السجع والازدواج في رسالة الحسن الأخرى إلى عمر بن عبد العزيز^(٢):

"فانظر، يا أمير المؤمنين، إليها (إلى الدنيا) نظر الزاهد المفارق، ولا تنظر نظر المبتلى العاشق. واعلم أنها تزيل الثاوى الساكن، وتفجع المترف فيها الآمن، ولا ترجع ما تولى وأدبر، ولا بد مما هو آت منها ينتظر، ولا يتبع ما صفا منها إلا كدر، فاحذرهما فإن أمانيتها كاذبة، وآمالها باطلة، وعيشها نكد، وصفوها كدر".

ومن الخصائص التي تنتشر في هذه الرسائل الاقتباس من القرآن، يقول غيلان بن مسلم الدمشقي لعمر بن عبد العزيز^(٣):

"وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فانظر أي الإمامين أنت. فإنه تعالى يقول: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) فهذا إمام هدى، ومن اتبعه شريكان. وأما الآخر، فقد قال تعالى: (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون)، لن تجد داعيا يقول: تعالوا إلى النار. إذن لا يتبعه أحد، لكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله".

وقد يضمن القرآن تضمينا لطيفا دون أن ينص عليه، كما في رسالة الحسن البصرى لعمر بن عبد العزيز^(٤):

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٧٨ .

(٢) نفس المرجع ٣٨٣ .

(٣) نفس المرجع ٣٩٢ .

(٤) نفس المرجع ٣٨٠ .

"واعلم، يا أمير المؤمنين، أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، ويسلمونك فى قعره فريدا وحيدا. فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه. واذكر، يا أمير المؤمنين، إذا بعثر ما فى القبور، وحصل ما فى الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها".

ومن الخصائص الظاهرة فيها أيضا الاقتباس من الحديث يقول عمر بن عبد العزيز فى رسالته لعبد الملك: (١)
"أما بعد؛

فإنك راع، وكل راع مسئول عن رعيته، حدثنى أنس بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل راع مسئول عن رعيته"، "الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، ومن أصدق من الله حديثا".
ويظهر هذا الاقتباس من الحديث واضحا فى رسالة أبى الدرداء إلى سلمان الفارسى، وهى ترجع إلى صدر الإسلام: (٢)

"يا أخى، اغتتم صحتك وفراغك، قبل أن ينزل بك من البلاء ما لا يستطيع العباد رده، واغتتم دعوة المبتلى. ويا أخى، ليكن المسجد بيتك، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن المساجد بيت كل تقى". وقد ضمن الله عز وجل لمن كانت المساجد بيوتهم بالروح والراحة والجواز على الصراط إلى رضوان الرب عز وجل. ويا أخى، ارحم اليتيم وأدنه منك، وأطعمه من طعامك، فإنى سمعت

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٤١ .

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - وأتاه رجل يشتكى قساوة قلبه - فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحب أن يلين قلبك؟ فقال: نعم. قال: أدن اليتيم منك، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، فإن ذلك يلين قلبك، وتقدر على حاجتك". ويا أخى، لا تجمع ما لا تستطيع شكره، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يجاء بصاحب الدنيا يوم القيامة الذى أطاع الله تعالى فيها، وهو بين يدي ماله، وماله خلفه، كلما تكفأ به الصراط قال له ماله: "امض، فقد أديت الحق الذى عليك". قال: "ويجاء بالذى لم يطع الله فيه، وماله بين كتفيه، فيعثره ماله ويقول له: "ويلك، هلا عملت بطاعة الله عز وجل فى؟ فلا يزال كذلك حتى يدعو بالويل". ويا أخى، إنى حدثت أنك اشتريت خادما، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يزال العبد من الله وهو منه، ما لم يُخدم، فإذا خُدم وجب عليه الحساب ..".

فإن لم تقتبس الرسائل نص الأحاديث، فإنها تقتبس منها أفكارها، بل ألفاظها أحيانا، وذلك أمر طبيعى لا ندهش لحدوثه. وقد رأيناها فى الرسائل السابقة وخاصة رسائل أبى الدرداء وسلمان الفارسي وعمر، ونراه فى رسالة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبد العزيز^(١).

"أما بعد؛

فإن الله عز وجل خلق الدنيا لما أراد أن يخلقها له، فجعل لها مدة قصيرة، كأن ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء، فقال: "كل شئ هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون".

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٨٥ .

ونرى خاصة أخرى فى الرسائل الطويلة، وهى القصص الوعظية، أو بالأحرى خيال الوعاظ الذين يصورون ما يريدون من أفكار فى صور واقعية، يقول سالم بن عبد الله فى رسالته السابقة لعمر بن عبد العزيز :

"إن استطعت ألا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل، فإنه قد كان قبلك رجال عملوا ما عملوا، وأحيوا ما أحبوا من الباطل، وأماتوا ما أماتوا من الحق، حتى ولد فى ذلك رجال ونشئوا فيه، وظنوا أنها السنة، فسدوا على الناس أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها بابا إلا فتح الله عليهم باب بلاء .. فإنهم (الموتى من خلفاء بنى أمية) قد عاينوا هول المطلاع، وعالجوا نزع الموت الذى كانوا منه يفرون، فأنشقت بطونهم التى كانوا لا يشبعون بها، وانفقات أعينهم التى كانت لا تنقطع لذاتها، واندقت رقابهم فى التراب غير موسدين، بعد ما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم، فصاروا جيفا فى بطون الأراضى تحت مهادها، والله لو كانوا إلى جانب مسكين لتأذى برمجهم، بعد إنفاق ما لا يحصى عليهم وعلى خواصهم من الطيب" .

وتوجد هذه الظاهرة أيضا فى رسالة يونس بن عبيد إلى جعفر بن برقان، حين سأله كتابة: "يا أخى، اكتب إلى بما أنت عليه" . فكتب إليه يونس^(١):

"أتانى كتابك تسألنى أن أكتب إليك بما أنا عليه، وأخبرك أنى عرضت على نفسى أن تحب للناس ما تحب لها، وتكره لهم ما تكره لها، فإذا هى من ذاك بعيد. ثم عرضت عليها مرة أخرى ترك ذكرهم إلا من خير، فوجدت الصوم فى اليوم الحار الشديد الحر، بالهواجر بالبصرة، أيسر عليها من ترك ذكرهم. هذا أمرى، يا أخى .

والسلام"

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٣ : ١٨ .

ونرى في كثير من هذه الرسائل تكرارا لبعض الألفاظ، التي لها أهميتها الخاصة في الدلالة على الانفعال والشعور الثائر، كما نرى في رسالة عمر بن عبد العزيز السابقة إلى أحد إخوانه^(١):

"يا أخى، إنك قد قطعت عظم السفر وبقي أقله، فاذكر، يا أخى، المصادر والموارد، فقد أوحى إلى نبيك صلى الله عليه وسلم في القرآن أنك من أهل الورود ... يا أخى، إن أجلك قد دنا، فكن وصى نفسك .. "

فهذا التكرار لكلمة "يا أخى" ومخاطبته بصيغة الخطاب، فيه ما يشعر بخنان عمر ابن عبد العزيز عليه، وأنه يريد خيره بهذه النصيحة، وأنها صادرة عن قلب محب وفي، مما يجعل قارئها يتأثر بها سريعا، وذلك ما يأمله عمر، وتكرر هذه الكلمة نفسها في رسالة سلمان الفارسي في حلية الأولياء^(٢):

ويظهر هذا التكرار أيضا في رسالة الإمام العادل للحسن البصرى، يقول^(٣):

"والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالراعى الشفيق على إبله، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويدودها عن مراتع الهلكة .. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا .. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعت كرها، وربته طفلا .. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، وصى اليتامى، وخازن المساكين .. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين .. "

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٥٥ .

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

(٣) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٧٩ .

ويظهر هذا التكرار أيضا في رسالة طاووس إلى عمر بن عبد العزيز التي يقول فيها^(١):

"سلام عليك يا أمير المؤمنين .

فإن الله عز وجل أنزل كتابا، وأحل فيه حلالا، وحرم فيه حراما، وضرب فيه أمثالا، وجعل بعضه محكما، وبعضه متشابها. فأجل حلال الله، وحرم حرام الله، وتفكر في أمثال الله، وعمل بمحكمه، وآمن بمتشابهه .

والسلام عليك"

فهو يؤكد كلمة "الله" و "الحلال" و "الحرام" وغيرها، ويكررها، ويضغط عليها ليغرى بالابتعاد عن حرام الله والأخذ بحلاله. وهذا الأسلوب شائع في حلقات الوعظ، في الكتابة أو الحديث. يتضح هذا في حديث الحسن البصرى مع عمر بن هبيرة والى العراق حين سأل: أطيع أوامر الخليفة ويعصى الله؟^(٢):

"يا عمر بن هبيرة، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى، فظ، غليظ، لا يعصى الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك. ياعمر بن هبيرة، إن تق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك (الخليفة) ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل. يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك .. يا عمر بن هبيرة. لقد أدركت ناسا .. يا عمر ابن هبيرة ..".

(١) نفس المرجع ٣٩١ .

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: الحلية ٢ : ١٤٩ .

ويتضح هذا أيضا في حديث عون بن عبد الله لنفسه في بكائه^(١):

"ويحى، بأى شيء لم أعص ربي. ويحى، إنما عصيته بنعمته عندي، ويحى ..".

وآخر الأمر يوضح لنا القرآن ذاته أن الوعظ والنصح يستتبع التكرار في بعض الألفاظ، ويظهر هذا في تكرار كلمة "يا بني" في سورة لقمان في أثناء النصح .

ويشيع في هذه الرسائل أيضا الطباق الذى نجده في رسالة الحسن إلى عمر التى يقول فيها^(٢):

واعلم، يا أمير المؤمنين، أن الصبر - وإن أذاقك تعجيل مرارته - فلنعم ما أعقبك من طيب حلاله، وحسن عاقبته، وأن الهوى - وإن أذاقك طعم حلاوته - فبئس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته .

ويظهر الطباق في غيرها من الرسائل أيضا .

وهناك خصائص أخرى متناثرة لا نستطيع أن نحكم بعمومها في جميع الرسائل لقلة المصادر مثل الاقتباس من الشعر، الذى نجده في رسالة الحسن البصرى إلى عمر، التى يقول فيها^(٣) :

"والدنيا - وأيم الله، يا أمير المؤمنين - حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد فى أضغاث أحلام، وإنى قائل لك، يا أمير المؤمنين، ما قال الحكيم:

فإن تنج منها تنج من عزيمة وإلا فبأنى لا إخالك ناجيا

(١) نفس المرجع ٤ : ٢٥٥ .

(٢) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٨٦ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٣٨٥ .

ومثل هذا اللعب اللفظي الفكري، في رسالة غيلان الدمشقي إلى عمر^(١):

"فهل وجدت، يا عمر، حكيمًا يعيب ما يصنع، أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى، أو يقضى بما يعذب عليه؟"، ومثل التفكير الصوفي في رسالة الحسن إلى عمر التي يقول فيها^(٢):

"أما بعد،

فإن رأس ما هو مُصلحك، ومصلح به على يدك: الزهد في الدنيا، وإنما الزهد باليقين، واليقين بالتفكير، والتفكير بالاعتبار. فإذا أنت تفكرت في الدنيا لم تجدها أهلاً أن تبيع بها نفسك، ووجدت نفسك أهلاً أن تكرمها بهوان الدنيا، فإنما الدنيا دار بلاء، ومنزل غفلة".

ولا يسود على هذه الرسائل تيار واحد من الإيجاز أو الإطناب، بل نجد رسائل موجزة غاية في الإيجاز، مثل رسالة عمر بن عبد العزيز إلى بعض أهل بيته^(٣).

"أما بعد؛

فإنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بغض إليك كل فان وحب إليك كل باق .

والسلام"

ونجد رسائل أخرى مسهبة تستغرق الصفحات، مثل الرسائل التي أشرنا إليها واقتبسنا منها من قبل.

(١) نفس المرجع ٣٩٣ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٨٨ .

(٣) نفس المرجع ٣٥٦ .

وهناك ظاهرة جديرة بالناية الشديدة لدلالاتها على ارتقاء فن الوعظ فى ذلك العصر، الارتقاء البعيد، تلك الظاهرة هى تأليف الكتب الوعظية. فهذا أبو محمد ابن خير الوراق الأسباني^(١)، ينسب إلى وهب بن منبه المؤرخ المعروف المتوفى عام ١١٠ هـ موعظة مدونة، وكتابا فى الحكمة، كما ينسب إليه ابن سعيد الكتاب الأخير^(٢). ولم يصل إلينا الكتابان كلاهما، ولكننا نظن أن كتاب الحكمة كتاب وعظى أيضا، بمعنى أنه يشتمل على الأقوال السائرة والأمثال والحكم التى تحاول إرشاد الإنسان وتسديد خطاه. وعلى الرغم من ضياع هذين الكتابين نجد بعض المواعظ والحكم المنسوبة لوهب فى الكتب المختلفة. ونحن إذا جمعنا هذه المواعظ وأحببنا التعرف على بعض خصائص وهب نجده متأثرا بالإسرائيليات تأثرا كبيرا. فهو قد قرأ الكتب المنزلة. وأخذ منها، كما يصرح قائلا: "وجدت فى بعض الكتب، أو قرأت فى بعض الكتب"^(٣). وقد ذكر أحيانا اسم التوراة صراحة، فقال^(٤): "قرأت فى التوراة أربعة أسطر متواليات من قرأ كتاب الله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله، ومن شكوا مصيبة فإنما يشكوا ربه، ومن أسف على ما فى يد غيره سخط قضاء ربه عز وجل، ومن تضعضع لغنى ذهب ثلثا دينه".

ويغلب فى مواعظه ذكر أنبياء بنى إسرائيل وأحبارهم ورهبانهم، يقول^(٥):

"إن رجلا من بنى إسرائيل صام سبعين أسبوعا، يفطر فى كل سبعة أيام يوما،

(١) المكتبة الأندلسية ٦ : ١٢٩ ، ٢٩٤ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٧ : ٩٧ .

(٣) أبو نعيم الأصبهاني: الحلية ٤ : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٨ .

(٤) أبو نعيم الأصبهاني: الحلية ٤ : ٣٨ .

(٥) نفس المرجع ٣٢ .

وهو يسأل الله تعالى أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس. فلما أن طال ذلك عليه ولم يجب قال: "لو أقبلت على خطيئتي وعلى ذنبي، وما بيني وبين ربي لكان خيرا لي من هذا الأمر الذى أطلب". فأرسل الله تعالى إليه ملكا فقال: "إن الله عز وجل أرسلنى إليك وهو يقول لك: إن كلامك هذا الذى تكلمت به أعجب إلى مما مضى من عبادتك، وقد فتح بصرك. قال: "فنظر، فإذا أجولة لإبليس قد أحاطت بالأرض، وإذ ليس أحد من بنى آدم إلا وحوله شياطين مثل الذباب، فقال: أى رب، من ينجو من هذا؟" قال: "الورع اللين".

وقد سيطرت الإسرائيليات على وهب فى كل مكان وزمان، حتى ليلقيها على سائليه فى الطريق. قال عطاء الخراسانى^(١): "لقيت وهب بن منبه فى الطريق فقلت: "حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى، وأوجز". قال "أوحى الله إلى داوود: يا داوود، أما وعزتى وعظمتى لا يشعر بى عبد من عبادى دون خلقى، أعلم ذلك من نيته، فتكیده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهم فرجا ومخرجا. أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات من يده، وأرضخت الأرض من تحته، ولا أبالى فى أى واد هلك".

ويورد وهب فى مواعظه بعض الحكم والمواعظ العربية الأصل، يقول^(٢)

"قال لقمان لابنه: يا بنى اعقل عن الله، فإن أعقل الناس عن الله أحسنهم عقلا، وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكايده". ونضيف إلى ذلك

(١) نفس المرجع ٣٠ .

(٢) نفس المرجع ٢٥ .

النوع المواعظ الإسلامية الصبغة. وقد نرى في هذا النوع العربي الأصل آثاراً فارسية يقول^(٢): قال لقمان لابنه: "يا بني، إن مثل أهل الذكر والغفلة كمثل النور والظلمة" فالنور والظلمة آتيان من الفرس، ولكننا لا نجد هذا الأثر كثيراً.

وهذه شذرات من مواعظه تمثل لنا هذه الخصائص. يقول^(٣):

"إن الله عز وجل حين فرغ من خلقه، نظر إليهم حين مشوا علي وجه الأرض فقال: "أنا الله الذي لا إله إلا أنا، الذي خلقتك بقوتي، وأتقنتك بحكمتي، حق قضائي، ونافذ أمري، أنا أعيدك كما خلقتك، وأفنيك بحكمتي، حتى أبقى وحدي، فإن الملك والخلود لا يحق إلا لي، أدعو خلقي، وأجمعهم لقضائي، يوم يخسر أعدائي، وتجل القلوب من خوفى، وتجف الأقدام من هيبتي، وتبرأ الآلهة من عبدها دونى".

ويقول^(٤): "يا بن آدم، إنما جمعت من منافع هذا اليوم لدفع ضرر الجهالة عنك، وإن ما أوقدت فيه مصابيح الهدى ليته يجزيك .. يا بن آدم إنه لا أقوى من خالق، ولا أضعف من مخلوق، ولا أقدر ممن طلبته فى يده، ولا أضعف ممن هو فى يد طالبه. يا بن آدم، إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك وأقام معك ما سيذهب، فما الجزع مما لا بد منه؟ وما الطمع فيما لا يرتجى؟ وما الحيلة فى بقاء ما سيذهب؟ يا بن آدم .. يا بن آدم .. ؟"

من هذه الفقرات المقتطفة من وهب، نرى أن أسلوبه فى القصص بسيط صريح لا يميل إلى تجويد أو تحبير، ولكنه يعنى بالتجويد فى غير القصص، حتى ليسجع

(٢) نفس المرجع ٣٨ .

(٣) نفس المرجع ٣٤ .

(٤) نفس المرجع ٣٠ .

ويوازن في العبارات، وتكاد تظهر فيه خصائص الرسائل الدينية الوعظية الكبيرة. ونرى عنده من تلك الخصائص القصص الخيالية، والتكرار وأسلوب الخطاب، إلى جانب السجع والموازنة .

الخلاصة :

وخلاصة الرأي إننا نرى هذه الرسائل الوعظية تجيش بالعاطفة الشائنة، التي تسوق كتابها إلى العناية بأسلوبها، فيخرج مختار الألفاظ عذبتها، متوازن العبارات موسيقيا، مزدوجها أو مسجعها، وقد لبس وشيا من القرآن والحديث والشعر والتعابير المكررة، وغير ذلك من الحلى التي تكسب الأسلوب جمالا طبيعيا موسيقيا في أغلبه. ولكن هذه الحلى، التي فيها الصنعة، لم تخرج بأسلوب هذه الرسائل إلى درجة التكلف، وإنما هي وحي الخاطر، ودفع العاطفة. وتخالف هذه الرسائل الإخوانيات في ازدهارها وكثرتها في عهد عمر بن عبد العزيز، الذي انتكست على يده الإخوانيات، وتخالف السياسيات والإخوانيات معا في أنها سبقتهما إلى ميدان الفن والصنعة والجمال .

الفصل الثانى

الرسائل الجدلية

وجد فى هذا العصر نوع آخر من الرسائل الدينية لم أعثر إلا على أربع منها ولكن يستحب أن نفرده بالذكر، لانفراده ببعض الخصائص. هذا النوع هو الرسائل الدينية الجدلية، وأعنى بها الرسائل التى تجادل فريقا من الفرق الدينية، أو مذهبها خاصا من المذاهب الإسلامية .

الرسالة الأولى :

تنسب أولى هذه الرسائل إلى الحسن بن على بن أبى طالب، أرسلها إلى أهل البصرة يناقش فيها مشكلة القدر، قال^(١):

"من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر، إن الله لا يطاع استكراها، ولا يُعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك. فلو أجبر الله الخلق على الطاعات لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصى لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عجزا فى القدرة. ولكن له فيهم المشيئة التى غيبتها عنهم، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم ..".

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٥ .

ويرى الناظر فى هذه الرسالة أنها تبين وجهة نظر واحدة، وأعنى بذلك أنها تحاول إقامة الدليل على حرية الإرادة الإنسانية مع الإيمان بقضاء الله وقدره، دون التفات إلى الرأى المخالف، وتفنيد أقواله، ونقض أدلته. وإذن فهى ليست جدلية بالمعنى المعروف، ولذلك نرى فيها كثيرا من التحلية التى لم يكن يتحلى بها الأسلوب الجدلى فى ذلك العهد - كما نراه فى الرسائل التالية - مثل السجع الخفيف. ونرى فى أسلوبها سموا، وفى عباراتها إحكاما، وفى ألفاظها عناية واختيارا، لعلها أكثر مما يوجد فى الرسائل الجدلية الأخرى الآتية، ما عدا رسالة ابن عباس .

ونحن لا نستطيع أن نطمئن إلى صدق هذه الرسالة أو كذبها، إن الكلام عن مشكلة القدر يبدو أنه ظهر عند المسلمين فى زمن مبكر جدا. إذ أننا عندما نقرأ تراجم الصحابة والتابعين نرى هذه المشكلة شائعة فى أوائل عهد هؤلاء وأواخر عهد أولئك، مما يجعلنا نظن أنها كانت موجودة فعلا فى زمن الحسن. ولكن قد يودى بنا أسلوب الرسالة، أو السجعة الأولى منها، التى تبدو فى نظرى على الأقل - قلقة، إلى استنكارها، وخاصة أن أصحاب المذاهب فيما بعد كانوا يحاولون دعمها بالأقوال التى يضعونها على أفواه من سبقهم من الصحابة والتابعين، بل الرسول أيضا. ولكننا لا نستطيع الجزم بشىء، وإنما هو التردد والحيطه .

الرسالة الثانية :

وأما الرسالة الثانية فكتبها عبد الله بن عباس إل مجبرة الشام، قال^(١):

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٥ .

"أما بعد؛

أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون، وتنهون الناس عن المعاصى وبكم ظهر العاصون؟ يا أبناء سلف المقاتلين، وأعوان الظالمين، وعمار مساجد الفاسقين، وخزان سلف الشياطين. هل منكم إلا مفتر على الله يحمل أجرامه عليه، وينسبها علانية إليه .. "

ويرى قارى هذه الرسالة منذ النظرة الأولى ذلك السجع الغالب عليها، الذى قد يخلى مكانه فى آخرها للازدواج، ويرى فيها الجملة متوازنة توازنا موسيقيا نتيجة ترادفها. ويرى الرسالة خالية من الجدل والنقاش بالرأى أو الدليل، وإنما هى سب وشم وتقيح لأعمالهم دون محاولة لإقناعهم بطلانها. وتلك هى جملة خصائص هذه الرسالة التى نرى فيها صنعة وعناية وفن، وهى خصائص تبعدها كل البعد عن الرسالة السابقة، بل تجعلها نسيج وحدها كما سنرى بعد.

الرسالة الثالثة :

ونرى الأسلوب الجدلى الحق، حين ننظر فى الرسالة الثالثة، التى أرسلها الحسن البصرى، أستاذ واصل بن عطاء رأس المعتزلة، إلى عبد الملك بن مروان، عن طريق الحجاج، يعرفه فيها برأيه فى القدر^(١). ويبدأ الحسن رسالته ببيان مسلك الصحابة وعدم خوضهم فى هذه المشكلة، وأنه ما دفعه إلى الكلام فيها إلا خوض الناس وإنكارهم للقدر، فيقول بعد السلام والحمد والدعاء لأمير المؤمنين:

"وقد أدركنا، يا أمير المؤمنين، السلف الذين عملوا بأمر الله، ورووا حكمته، واستنوا بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فكانوا لا ينكرون حقا، ولا يحقون

(١) نفس المرجع ٢٦٨. ورسالة الحسن البصرى، مخطوطة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٢١ أدب .

باطلا، ولا يلحقون بالرب تبارك وتعالى إلا ما أحق بنفسه، ولا يحتجون إلا بما احتج الله به على خلقه فى كتابه. فإن الله تبارك وتعالى يقول، وقوله الحق: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون". فأمرهم الله بعبادته التى لها خلقهم، ولم يكن ليخلقهم لأمر ثم يحول بينهم وبينه، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد . ولم يكن أحد من السلف ينكر هذا القول، ولا يجادل فيه، لأنهم كانوا على أمر واحد متفقين .. وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة له، فلما أحدث المحدثون فى دينهم ما أحدثوه، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يطلون به المحدثات، ويحذرون به من المهلكات". ثم يأخذ الحسن فى تنفيذ أقوالهم بالآيات القرآنية، فيقول:

"فافهم أيها الأمير ما أقوله، فإن ما ينهى الله عنه فليس منه، لأنه لا يرضى ما يسخطه من العباد، لأنه تعالى: يقول: "ولا يرضى لعباده الكفر". فلو كان الكفر من قضائه وقدره لرضى عن عمله .

"ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لتقدم حمد لما عمل، ولاعلى متأخر لوم، وقال تعالى: "جزاء بما عملت أيديهم" ولم يقل: "جزاء بما كانوا يعملون" .

"إن أهل الجهل قالوا: "إن الله يضل من يشاء، ويهدى من يشاء". ولو نظروا إلى ما قبل الآية وما بعدها، لتبين لهم أن الله تعالى لا يضل إلا بتقدم الفسق والكفر لقوله تعالى: ﴿ويضل الله الظالمين﴾ أى يحكم بضلالهم .

ويستمر الحسن على هذا المنوال من تنفيذ آرائهم بالأدلة القرآنية .

وهكذا لا نجد فى هذه الرسالة شتما أو سبا، غير تسميته للمخالفين بأهل الجهل والمخطئين والمخالفين لكتاب الله. ولكن كل هذا لا يعادل ما فى رسالة ابن

عباس القائمة على هذا النوع من القول. وإنما نجد فيها أسلوباً جديلاً بسيطاً جميلاً، يعتمد على الأدلة والبراهين المأخوذة من الآيات القرآنية. وهي تقارب رسالة الحسن ابن عليّ إلا أن الحسن البصرى يعتمد على الأدلة القرآنية على حين يعتمد الحسن ابن عليّ على الأدلة العقلية، ولا يستشهد في رسالته بشيء من القرآن .

الرسالة الرابعة:

وأخيراً نصل إلى الرسالة الرابعة التي تتناول مشكلة القدر أيضاً، وذلك مما يؤكد قول بعض العلماء الذين يذهبون إلى أن الكلاميين الأمويين كان جل همهم، إن لم يكن كله، منصبا على هذه المشكلة وحدها. وقد كتب هذه الرسالة عمر بن عبد العزيز إلى نفر كذبوا بالقدر، فقال^(١):

"أما بعد؛

فإنكم كتبتم إليّ بما كنتم تستترون منه قبل اليوم، في رد علم الله والخروج منه إلى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف على أمته من التكذيب بالقدر. وقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون: "الاعتصام بالسنة نجاة، وسيقبض العلم قبضا سريعا". وقول عمر بن الخطاب وهو يعظ الناس: "إنه لا عذر لأحد عند الله بعد البينة بضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه حسبه ضلالة، قد تبينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر ..".

ثم يأخذ في مناقشتهم، مبتعدا عن الشتم، ومستعينا بالأدلة القرآنية:

"وإنكم ذكرتم أنه بلغكم أنى أقول: "إن الله قد علم ما العباد عاملون، وإلام

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٥ : ٣٤٦ .

هم صائرون"، فإنكرتم ذلك على، وقلتم: "إنه ليس يكون ذلك من الله فى علم، حتى يكون ذاك من الخلق عملا". فكيف ذلك كما قلتم، والله تعالى يقول: "إننا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون" يعنى عائدین فى الكفر، وقال تعالى: "ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون".

ویناقشهم أيضا بالأدلة العقلية مع القرآنية - فيقول:

"فزعمتم بجهلكم فى قول الله تعالى "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" أن المشيئة فى أى ذلك أحببتم فعلتم، من ضلالة أو هدى، والله تعالى يقول: "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين" فبمشيئة الله لهم شاءوا، ولم لم يشأ لم ينالوا بمشيئتهم من طاعته شيئا قولا ولا عملا، لأن الله تعالى لم يملك العباد ما بيده ولم يفوض إليهم ما يمنعه من رسله، فقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعا، فما اهتدى منهم إلا من هداه الله، ولقد حرص إبليس على ضلالتهم جميعا، فما ضل منهم إلا من كان فى علم الله ضالا".

ويظهر الجدل العقلى فى قوله أيضا:

"وزعمتم بجهلكم أن علم الله تعالى ليس بالذى يضطر العباد إلى ما عملوا من معصيته، ولا بالذى صدهم عما تركوه من طاعته، ولكنه بزعمكم "كما علم الله أنهم سيعملون بمعصيته، كذلك علم أنهم سيستطيعون تركها" فجعلتم علم الله لغوا، تقولون: "لو شاء العبد لعمل بطاعة الله، وإن كان فى علم الله أنه غير عامل بها، ولو شاء ترك معصيته، وإن كان فى علم الله أنه غير تارك لها". فأنتم إذا شتمتم أصبتموه، وكان علما، وإذا شتمتم رددتموه، وكان جهلا. وإن شتمتم أحدثتم من أنفسكم علما ليس فى علم الله، وقطعتم به علم الله".

ولا يكتفى بالأدلة القرآنية والعقلية، بل يستنبط الأدلة أيضا من الأخبار والآثار
يقول:

"إن الله لم يجعل فضله ورحمته عملا بغير قسم منه ولا اختيار، ولم يبعث رساله
يابطل ما كان فى سابق علمه .. فسميت نفاذ علم الله فى الخلق حيفا. وقد جاء
الخبر "إن الله خلق آدم، فنثر ذريته فى يده، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون،
وكتب أهل النار وما هم عاملون".

وإذا ما نظرنا فى الصياغة الأدبية لهذه الرسالة، وجدنا أسلوبها بسيطا يجرى
دون تكلف أو تجمل، فهى جدل عادى صريح، وأما رسالة الحسن البصرى فأسمى
منها أسلوبا، وأكثر منها عناية بالألفاظ واختيارها. وقد كان ذلك شأن الحسن
وعمر أيضا فى النوع الأول من الرسائل الدينية والرسائل الإخوانية .

الخلاصة

وصفوة القول إننا نرى هذه الرسائل جميعها تتناول مشكلة القدر(١)، كما
نرى ثلاثا منها تؤيد حرية الإرادة الإنسانية، وهى رسائل الحسن بن على وابن عباس
والحسن البصرى. فأما رسالة ابن عباس فيمكن إغضاء النظر عنها، وإلحاقها بالنوع
الأول من الرسائل الدينية، لأنها ليست من الجدليات فى شىء. وأما رسالة الحسن
ابن على فهى جدلية تمتاز بكشف النقاب عن رأى صاحبها، والتدليل العقلى عليه،
دون أدنى نظر إلى الآراء المخالفة له. وأما رسالة الحسن البصرى ففيها الجدل
والنقاش، وإن كانت أدلتها كلها مأخوذة من القرآن. والرسالة الرابعة، رسالة عمر
ابن عبد العزيز، تميل إلى الحد من الإرادة الإنسانية، وهى تمثل القمة فى الأسلوب

(١) ينسب ياقوت كتابا فى هذه المشكلة إلى وهب بن منبه المتوفى عام ١١٠ هـ والذي كان يقول بالقدر ثم
رجع عن ذلك. ولم يصل إلينا هذا الكتاب، ولا أية شذرات منه نستطيع استنباط خصائصه، وإن كنا نظن
أنه لا يعدو أن يكون رسالة صغيرة تتمتع بما تتمتع به كتابات وهب الأخرى .

الجدلى الأموى من حيث استخدام جميع أنواع الأدلة من قرآنية وعقلية وأخبارية.
وأما جمال الأسلوب فيتوفر فى رسالتى الحسنين أكثر مما فى رسالة عمر .

الباب الرابع

الكتاب

الفصل الأول

حلقة سالم

لعلنا الآن نستطيع أن نتصور أنواع كتابة الرسائل تصورا صحيحا واضحا، ولسنا بحاجة إلا إلى معرفة بعض الأعلام البارزين، حتى تمثل الصورة أمام أعيننا كاملة شاملة. وقد ورد في أثناء الحديث بعض أسماء، ولكن المراجع الخاصة بهم ناقصة قليلة، لا تمدنا بالمواد التي يستطاع تصوير شخصية حية منها. كما أننا رأينا كتابة الرسائل تتخذ صورتها النهائية عند جماعة الموالى الذين رأسوا ديوان الرسائل منذ عهد هشام، وأعنى بهم سالما مولى هشام وتلاميذه، ولذلك نخصهم بالدراسة هنا. وعلى الرغم من ذلك لم يصل إلينا من أخبار سالم إلا القليل الذي لا يمكننا من معرفته معرفة واضحة .

سالم :

هو سالم أبو العلاء، مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، وختن عبد الحميد بن يحيى الكاتب وأستاذه. ويعدّه ابن النديم أحد الفصحاء البلغاء^(١)، أو أحد البلغاء العشرة الأول عند العرب^(٢). وكان يعرف اللغة اليونانية، وترجم منها بعض رسائل أرسطو إلى تلميذه الإسكندر المقدوني^(٣). وذكر ابن النديم أن رسائله جمعت في مجلد يبلغ مئة

(١) ابن النديم: الفهرست ١١٧ .

(٢) نفس المرجع ١٢٦ .

(٣) نفس المرجع ١٧ .

ورقة^(١)، ولكن مما يؤسف له أن هذا المجلد قد ضاع، ولم يصل إلينا من سالم غير رسالتين إخوانيتين قصيرتين. ومن الطبيعي أننا لا نستطيع أن نحكم على كاتب من رسالتين، وخاصة أن كلا منهما لا تزيد على ثلاثة أسطر. وقد تناولنا إحداهما من قبل، ونحاول هنا أن نتبين مزايا الأخرى .

رسائل سالم :

كتب إلى أحمد إخوانه يعتذر^(٢):

"أمتعك الله وأمتع بك، لولا أنه إذا ضاق على المخرج لك، وسعك عذرى، بسطت لسان لائمتى فى تركك لائمتى فيما خالف هواك" .

ونرى فى مفتحها لعبا بالألفاظ، ونجده يفكر فى طريقة الاعتذار قبل تدوينه وكيف يأتى بالجديد المبدع حتى لا يكون اعتذارا عاديا بسيطا. ولعل هذا يشعرنا بأنه كان يتروى أيضا فى ألفاظه وأساليبه، ويحاول أن يجدد فيها.

ويورد الطبرى^(٣) رسالة مجهولة المؤلف، صادرة من ديوان هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسرى وإلى العراق. ونحن نناقشها هنا، لأنها توضح الخصائص التى كانت تتجلى بها دائرة الكتاب المحيطة بهشام، والتى كانت تتألف من سالم وتلاميذه، وربما كانت الرسالة صادرة من سالم نفسه، كما يرجح أستاذى الدكتور شوقى ضيف^(٤). ذكر الطبرى أن ابن عمرو بن سعيد بن العاص دخل على خالد القسرى فاستخف به وعضه بلسانه، فشكاه ابن عمرو إلى هشام، فأرسل إليه

(١) نفس المرجع ١٧ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢ : ١٦٤٢ .

(٤) الدكتور شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٣٨ : ٤١ .

هذه الرسالة يوجّه فيها، قال :

"أما بعد؛

فإن أمير المؤمنين - وإن كان أطلق لك يدك ورأيك فيمن استرعاك أمره، واستحفظك عليه، للذي رجا من كفايتك، ووثق به من حسن تدبيرك - لم يفرشك غرفة أهل بيته، لتطأه بقدمك، ولا تحد إليه بصرك، فكيف بك وقد بسطت على غرتهم بالعراق لسانك بالتوبيخ؟! تريد بذلك تصغير خطره واحتقار قدره .. " .

والرسالة طويلة تستطيع أن تعطينا شيئا من تلك المزايا والخصائص التي نريدها. ولعل أول ما لاحظنا على الفقرة التي ذكرتها سابقا، ذلك الاعتراض الطويل الذي يندر أن نرى مثله في الأسلوب العربي الخالص، وإنما نراه في الأساليب الفارسية واليونانية. ثم إننا إذا دققنا النظر في الرسالة وجدنا فيها ميلا ظاهرا للسير حسب المنطق والعقل، ولعل ذلك من تأثير أرسطو في هذه الدائرة.. ويظهر لنا هذا الميل في سيرها الطبيعي المتسلسل في أفكارها، وفي ميلها لتوضيح كل معنى تأتي به. وقد أدى ذلك إلى كثرة استعمال الحال فيها، كثرة لا نراها في الرسائل الأخرى، اللهم إلا رسائل حلبة هشام، تقول:

"زعمت بالنصفة منه، حتى أخرجك ذلك إلى الإغلاظ في اللفظ عليه في مجلس العامة، غير متحلل له - حين رأيتة مقبلا - عن صدر مهادك، الذي مهد له الله، وفي قومك من يعلوك بحسبك، ويغمرك بأوليتة، فنلت مهادك بما رفع به آل عمرو من ضعتك خاصة، مساوين بك فروع غرر القبائل وقرومها قبل أمير المؤمنين، حتى حللت هضبة أصبحت تنحو بها عليهم مفتخرا، هذا إن لم يدهده عنك قلة شكرك متحطما وقيذا، فهلا - يا ابن مجرشة قومك - أعظمت رجلهم بليك داخلا، ووسعت مجلسه إذ رأيتة إليك مقبلا، وتجايفت له عن صدر فراشك مكرما،

ثم فاوضته مقبلا عليه ببشرى إكراما لأمر المؤمنين، فإذا اطمأن به مجلسه نازعته بحى السرار، معظما لقرابته، عارفا لحقه^(١).

وقد أدى إكثاره من استعمال الحال ببعض الباحثين إلى القول بأن سالما كان على اتصال باللغة اليونانية، التى يستعمل فيها الحال للتوضيح والتدقيق استعمال سالم وحلبته له. ومن مظاهر ميل هذه الرسالة للتوضيح تدقيقها فى ذكر الأسباب والعلل فى كل خطواتها، فالكاتب يذكر خالدا بأمر من الأمور، ثم يورد سبب هذا الأمر، وهلم جرا. ولذلك يكثر فيها أسلوب العلة، ذكر لام التعليل وفاء السببية وما إلى ذلك، مما يبدو فى الفقرتين اللتين ذكرتهما وفى غيرهما من الفقرات. وكان هذا الميل للوضوح والدقة سببا فى إطنابها، وتكرار بعض عباراتها، مع تغيير الألفاظ، فأدى ذلك - مع العناية الظاهرة فيها بالألفاظ - إلى توازن الجمل، وتلاؤم موسيقى العبارات. ومن الخصائص التى تتناثر فيها السجع الخفيف القليل، بل النادر، كما تمتاز بتقابل الألفاظ فى العبارات المتجاورة وتآلفها.

عبد الله بن سالم

ويبدو أن سالما بث خصائصه فى تلاميذه حتى غلبت عليهم، نرى ذلك عند ابنه عبد الله وتلميذه عبد الحميد. وقد وصلنا من عبد الله بن سالم رسالة على لسان هشام بن عبد الملك لخالد بن عبد الله القسرى، يلومه لضربه سهيل ابن حسان النبطى وإفراطه فى الدالة على هشام^(٢)، يقول :

(١) تنحو هنا: أى تشرف وتطل. ويدهده: يدحرج. والوقيد: الصريع. والمجرشة: الماشطة. والسرار: المسارة.

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢: ٤٠٢، المبرد: الكامل ٢: ٢٩٧، وانظر التشابه بين هذه الرسالة وسابقتها.

"بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد؛

فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر، لم يحتمله لك إلا لما أحب من رب الصنيعة قبلك، واستتمام معروفه عندك. وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك، فإن تعد لمثل مقاتلك، وما بلغ أمير المؤمنين عنك، رأى فى معالجتك بالعقوبة رأيه. إن النعمة إذا طالت بالعبء ممتدة أبطرته، فأساء حمل الكرامة، واستقل العافية، ونسب ما فى يديه إلى حيلته، وحسبه، وبيته، ورهطه وعشيرته. فإذا نزلت به الغير، وانكشفت عنه عماية الغى والسلطان، ذل منقادا وندم حسيرا، وتمكن منه عدوه قادراً عليه، قاهراً له.. وتوجيهك أخاك أسداً إلى خراسان مظهراً العصية بها، متحاملاً على هذا الحى من مضر، قد أتت أمير المؤمنين - بتصغيره بهم، واحتقاره لهم، وركوبه إياهم - الثقات".

ونرى فى هذه الرسالة إطناباً بتكرار المعنى الواحد فى الجملة والجملتين، وتكرار الألفاظ المترادفة، وتأکید معنى الجملة الأولى بما يقرب من معناها فى الجملة الثانية. ويبرز فيها الحال قريباً من بروزه فى الرسالة الأولى. ونستطيع أن نوجز، فنقول إن روح الرسالتين متقارب، مما يجعلنا نميل إلى أن خصائص الرسالتين كانت تتحلى بها مدرسة سالم كلها. ولعل سالماً بث فى تلاميذه أسلوبه الكتابى وحبه للثقافة اليونانية، وربما وجههم جميعاً إلى تعلمها، فظهر هذا الأثر واضحاً جلياً فيهم.

الفصل الثانى

عبد الحميد بن يحيى

يعتبر عبد الحميد بن يحيى مولى الأمويين أو العامريين أشهر كتاب العصر الأموى. وتكثر الأخبار المضطربة التى يناقض بعضها بعضا عن عبد الحميد، منذ ولادته حتى مماته. ولكننا لا نتعرض لكل هذه الأقوال التى تخبط فى دياجير الظلام ونكتفى بما تكاد تجمع عليه الروايات. فهو من أصل فارسى^(١)، من الأنبار ثم سكن الرقة^(٢)، واشتغل فى أول أمره بتعليم الصبيان، وأخذ يتنقل فى البلدان المختلفة^(٣)، ثم التحق بديوان الرسائل فى عهد هشام بن عبد الملك فى الغالب، وتلمذ لرئيسه وختنه سالم^(٤). وأخيرا صار كاتب مروان بن محمد قبل أن يتولى الخلافة أيام ولايته على أرمينية. فلما تولى الخلافة تقلد رئاسة الديوان له وبقي مخلصا وفيا له، حتى قتلا معا فى بلدة بوضير بمصر^(٥).

ويبدو أن عبد الحميد كان مرضى الأخلاق، وفيا كريما، ذا مروءة ورأى، حتى كثرت حوله الأقاويص الصحيحة والموضوعة. يقول الجهشيارى^(٦): "ولما قوى أمر

(١) الاصطخرى: مسالك الممالك ١٤٥ .

(٢) ابن خلكان: الوفيات ١ : ٣٠٧ .

(٣) نفس المرجع، وابن النديم: الفهرست ١٧ .

(٤) ابن خلكان: نفس الموضوع. والجهشيارى: الوزراء والكتاب ٦٢ .

(٥) ابن خلكان: نفس الموضوع. أما الروايات الأخرى القائلة بهروبه فى الجزيرة أو غيرها، وقتله هناك، فلا تقوم على دعامة قوية، وإنما مات عبد الحميد فى مصر، بدليل أنه كان له عقب بها، لم يكن فى أوائهم ذو نباهة، ولكن لما جاء أحمد بن طولون إلى مصر، اتصل به أربعة نفر من ولده يعرفون ببني المهاجر، وإن كان ارتفاع نجمهم لم يستمر طويلا (الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٨٢) .

(٦) نفس المرجع ٧٩ . والمسعودى: مروج الذهب ٣ : ١٧٨ .

بنى العباس وظهر، قال مروان لعبد الحميد: "إنا نجد في الكتب أن هذا الأمر زائل
عنا لا محالة، وسيضطر إليك هؤلاء القوم - يعنى ولد العباس - فصر إليهم. فبأنى
أرجو أن تتمكن منهم فتفعلنى فى مخلقى، وفى كثير من أسبابى. فقال له: وكيف لى
بأن يعلم الناس جميعا أن هذا عن رأيك، وكلهم يقول: إنى غدرت وصرت إلى
عدوك". وأنشد :

أسر وفاء ثم أظهر غدره فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره؟

وأنشد أيضا:

فذنبنى ظاهر لا عيب فيه للاثمه وعذرى بالمغيب

فلما سمع ذلك مروان علم أنه لا يفعل. ثم قال له عبد الحميد: "الذى أمرتنى
به أنفع الأمرين لك، وأقبحهما بى، لك على الصبر معك إلى أن يفتح الله عليك أو
أقتل معك".

رسائل عبد الحميد: رسالة إلى الكتاب

علينا الآن أن نقف عند بعض رسائل عبد الحميد قليلا، لنتملى من خصائصه
وتبرز أمامنا مزاياه. والرسالة الأولى التى أحب الكلام عنها رسالته إلى الكتاب^(١).
وهى تقع فى قريب من أربع صفحات من كتاب صبح الأعشى. ويرمى فيها عبد
الحميد إلى تبليغ الكتاب ما يحتاجون إليه من ثقافة، ومن أخلاق، ولذلك تزخر
بالوصايا والنصائح. وقد اكتسبت أهمية خاصة حتى صارت دستورا يرجع إليه
الكتاب ليستوحوها، ويتحلوا بفضائلها.

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٤٣ .

يبدأ عبد الحميد رسالته بمخاطبة الكتاب، ويبين لهم أن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين، أصنافا وأنه جعل "معشر الكتاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءة، والعلم والرواية".

ثم يبين حاجتهم "إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة.. فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره: أن يكون حليما في موضع الحلم، فهيمًا في موضع الحكم، مقدامًا في موضع الإقدام، محجامًا في موضع الإحجام.. قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به" إلى آخر الصفات المحمودة التي يرى أنه ينبغي أن يتصفوا بها.

ثم يذكر لهم العلوم والآداب التي يجب أن يعرفوها ويتنافسوا فيها، فيقول: "وتفقهوا في الدين، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج".

ويسمو بهم على الرذائل، والأخلاق الذميمة، فينصحهم:

"وارغبوا بأنفسكم عن المطامع، سنيها ودينها، وسفساف الأمور ومحارها فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب. ونزهوا صناعتكم عن الدناءات، واربتوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات. وإياكم والكبر والصلف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة".

ويحضهم على التحاب والتعاون فيما بينهم، فإن "نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه، حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره. وإن أقعد أحدكم الكبر في مكسبه ولقاء إخوته، فزوروه، وعظموه، وشاوروه".

ويحثهم على الوفاء لأوليائهم وساداتهم، والإخلاص لهم، "فإن الرجل منكم إذا صحبه الرجل (الخليفة أو الأمير) يبدل له من نفسه، ما يجب له عليه من حقه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره، واحتماله وصبره ونصيحته، وكتمان سره، وتدبير أمره، ما هو جزاء لحقه".

وآخر الأمر يشرح لهم ما يجب عليهم من حسن السياسة وبعد النظر حين ولايتهم "فإذا ولى الرجل منكم، أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقا، وللمظلوم منصفا. فإن الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله، ثم ليكن بالعدل حاكما، وللأشراف مكرما، وللقيء موفرا، وللبلاد عامرا، وللرعية متألفا، وعن إيذائهم متخلفا. وليكن في مجلسه متواضعا حليفا، وفي سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقا".

"وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافق من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح، بالطف حيلة، وأحلم وسيلة. وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها. فإن كانت رموحا لم يهجمها إذا ركبها، وإن كانت شبوبا اتقاها من قبل يديها، وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونا قمع برفق هواها في طريقها، فإن استمرت عطفها يسيرا، فيسلس له قيادها. وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم، وجربهم وداخلهم".

ويستمر في تبين السياسة التي يجب اتباعها من الاعتدال وتجنب السرف:

"ولا يجاوزن الرجل منكم - فى هيئة مجلسه، وملبسه، ومركبه، ومطعمه، ومشربه، وبنائه، وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره - قدر حقه، واستعينوا فى عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم، وقصصته عليكم، واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلهما".

ثم ينبههم إلى تجنب الإكثار من الكلام والوصف :

"واعلموا أن للتدبير آفة متلفة، وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله، ورويته. فليقصد الرجل منكم مجلسه قصد الكافى من منطقته، وليوجز فى ابتدائه، وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله، ومدفعة للتشاغل عن إكثاره".

ويختتم الرسالة بالإشارة إلى التواضع وعدم الغرور:

"ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور، وأهمل لعبء التدبير، من مرافقه فى صناعته، ومصاحبه فى خدمته. فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رمى بالعُجب وراه ظهره، ورأى أن صاحبه أعقل منه، وأحمد فى طريقته .

"وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل "من يلزم النصيحة يلزمه العمل"، وهو جوهر هذا الكتاب، وغرة كلامه، بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل. فلذلك جعلته آخره، وتممته به، تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه ويده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

ولعل هذه الرسالة لا تكشف عن كثير من خصائص عبد الحميد الأسلوبية على الرغم من أنها تظهر فيها عنايته الفائقة بالفاظه، وأنه كان أحيانا يأتى بالسجع الجميل غير المتكلف، يقول:

"بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلادهم. لا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم. فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون. وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم".

كما تظهر فيها موسيقية أسلوبه وجمال عباراته .

ولكن الرسالة إذا كانت فقيرة في هذه الناحية فإنها تكشف لنا عن نواح أخرى هامة في شخصية عبد الحميد. فنحن عندما ننظر إليه، وهو يصف سياسة الدابة الرموح والشبوب والشروود والحرون، رامزا بذلك إلى سياسة الكاتب للحاكم، ندرك تمام الإدراك قوة عبد الحميد في الوصف، ووجهه للتصوير، ومقدرته على إبراز الموصوف أجمل إبراز .

وتكشف الرسالة أيضا عن تأثير عبد الحميد بالثقافات والنظم الفارسية. يظهر ذلك واضحا في الآداب التي يوصى الكتاب بالتزامها. ويكفينا لمعرفة ذلك أن ننظر إلى ما كان يقول كشتاسب لكتابه^(١): "الزموا العفاف، وأدوا الأمانة في كل ما يفوض إليكم، واجمعوا على غرائزكم وعقولكم سماع الأدب بما طبعت عليه عقولكم، وليكن اجتباؤكم بالقسط والمعدلة، ولا تزينوا لنا مالا تليق بنا الأحدوثة به، والإيثار له"، وأن ننظر إلى ما قاله أبرويز لوزير^(٢):

"اكتم السر، واصدق الحديث، واجتهد في النصيحة، واحترس بالحدز".

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٨ .

(٢) نفس المرجع ٨ .

ولكن هذه الرسالة ذات أهمية كبيرة فى نظر دارس الأدب العربى، وخاصة حركة التأليف. فهذه الرسالة تشمل - كما ظهر لنا - جل، إن لم يكن كل، ما يطلب من الكتاب، كأنما تضع القوانين التى يجب أن تسود على ديوان الرسائل ويخضع لها من يريدون دخوله. فهى ترسم لهم الآداب الخلقية التى يجب أن يتحلوا بها، ثم ترسم لهم الآداب الثقافية، فتقسمها إلى ثقافة خاصة بالدين والفقه والتاريخ والحساب. وقد أثرت هذه النظرية فى المؤلفين بعد عبد الحميد. فمنهم من أخذ فرعا من هذه الثقافة فألف فيه، مثل ابن قتيبة الذى تناول الناحية اللغوية فى "أدب الكاتب"، ومنهم من تناول الثقافة الخاصة، مثل الصولى فى "أدب الكاتب"، ومنهم من تناول الثقافتين العامة والخاصة، مثل النويرى فى "نهاية الأرب فى فنون الأدب"، ومنهم من تناول الآداب الثقافية والآداب الأخلاقية جميعا، مثل القلقشندى فى "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا". ويصرح القلقشندى فى الفصل الذى عقده لآداب الكتاب الخلقية فيقول^(٢): "أصل هذه الآداب الذى ترجع إليه، وينبوعها الذى تفجرت منه، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، التى كتبها إلى الكتاب يوصيهم فيها". ولكننا نقول إن هذه الرسالة ينبوع هذا الفصل، والفصول الأخرى الباقية فى كتابه، أعنى ينبوع جميع ما احتوته تلك الكتب التى ألفها الأدباء فى بيان ما يحتاج إليه الكتاب، وإن كانوا فى الحقيقة أصابوا بعض العلوم التى لم يفكر فيها عبد الحميد، مثل الجغرافية والفلك وغيرها، ولكن كل تلك العلوم كانت من إبداع عبد الحميد أيضا.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ١ : ٨٥ .

رسالة ولي العهد

وكتب عبد الحميد رسالة عن مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله، حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي^(١). وهي تقع في قريب من أربعين صفحة من كتاب "صبح الأعشى"، ولذلك نجد خصائص عبد الحميد تنبسط فيها وتنتشر، فتظهر واضحة ماثلة. وعبد الحميد في هذه الرسالة ذو تفكير منظم منطقي، يقسم كلامه فقرات منفصلة، كل منها يؤدي فكرة منفصلة عن الأخرى، وإن جمع هذه الأفكار السياق العام. فنراه يبدأ بمقدمة يبين فيها غرض الرسالة وما يتعلق به، ثم يقسم الرسالة إلى قسمين كبيرين: يتناول الأول الآداب والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها ولي العهد في سيرته عامة، ويتناول الثاني سياسة ولي العهد في الجيش وتنظيمه. ثم يأخذ القسم الأول فيقسمه قسمين: يعالج الأول منهما آداب ولي العهد وعاداته، ويعالج الثاني آدابه في حاشيته، وآداب الحاشية ذاتها. وكذلك يقسم القسم الثاني إلى جزئين: الأول منهما في سياسة الجيش العامة، والثاني في تنظيمه الداخلي.

تبدأ المقدمة بقوله :

"أما بعد؛

فإن أمير المؤمنين - عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة، وظلم الفتنة، ومهاوى الهلكة، ورعاعه الذين عاثوا في أرض الله فسادا، وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافا، وبدلوا نعم الله

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٤٧٣ ، وابن طيفور: اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٠١ والقلشقندي: صبح

الأعشى ١٠ : ١٩٥ .

كفرا، واستحلا دماء أهل سلمه جهلا - أحب أن يعهد إليك فى لطائف أمورك،
وعوام شئونك، ودخائل أحوالك، ومصطرف تنقلك، عهدا يملك فيه أدبه،
ويشرع لك به عفته، وإن كنت - والحمد لله - من دين الله وخلافته بحيث
اصطنعك الله لولاية العهد، مختصا لك بذلك دون لحمتك وبنى أبيك" .

وتظهر فى هذه الفقرة تلك الموسيقى التى يؤلفها استعمال عبد الحميد
للمفعول المطلق والمفعول لأجله "فسادا، واستخفافا، وكفرا، وجهلا" فى آخر كل
جملة، وتلك الأضواء التى تشع من هذه الألفاظ فتميز أركان العبارات، وتسبغ
عليها الإشراق والوضوح اللذين يطلبهما عقل عبد الحميد المنطقى .

ويخاف عبد الحميد أن يفضب ولى العهد من نصحه، فيبين له أن الناس فى
حاجة إلى التأديب والوعظ، وإن كبروا وعظموا وعرفوا الفاضل والمرذول: "ولولا
ما أمر الله تعالى به دالا عليه، وتقدمت فيه الحكماء آمرين به: من تقديم العظة،
والتذكير لأهل المعرفة، وإن كانوا أولى سابقة فى الفضل، وخصيصة فى العلم،
لاعتمد أمير المؤمنين منك على اصطناع الله إياك، ولو كان المؤدبون أخذوا العلم
من عند أنفسهم، أو لقنوه إلهاما من تلقائهم، ولم يتعلموا شيئا من عند غيرهم،
لنحلناهم علم الغيب، ووضعناهم بمنزلة قصّر فيها عنهم خالقهم المستأثر بعلم
الغيب..".

وتنتهى المقدمة فيبدأ الجزء الأول من القسم الأول بقوله: "اعلم أن للحكمة
مسالك تفضى مضايق أوائلها بمن أمها سالكا، وركب أخطارها قاصدا، إلى سعة
عاقبتها، وأمن سرحها، وشرف عزها، وأنها لا تعار بسخف الخفة، ولا تنشأ بتفريط
الغفلة" . ثم يأخذ يعدد له الصفات التى يجب أن يتحلى بها، التى نراها تجمع بين
الأخلاق الإسلامية، والعادات الفارسية، فيقول: "واعلم أن احتواءك على ذلك،

وسبقك إليه، بإخلاص تقوى الله فى جميع أمورك مؤثرا لها، وإضمار طاعته منظويا عليها، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكرا له، مرتبطا فيه للمزيد بحسن الحياطة له، والذب عنه، من أن تدخلك فيه سامة ملال، أو غفلة ضياع، أو سنة تهاون، أو جهالة معرفة. فإن ذلك أحق ما بدئ به ونظر فيه، معتمدا عليه بالقوة والآلة والعدة والانفراد به من الأصحاب والحامة. فتمسك به لاجنا إليه، واعتمد عليه مؤثرا له، والتجى إلى كنفه متحيزا إليه، فإنه أبلغ ما طلب به رضا الله، وأنجحه مسألة، وأجزله ثوبا، وأعوده نفعا، وأعمه صلاحا". ونرى فى هذه الفقرة بعض الصيغ التى يجب عبد الحميد أن يكررها، مثل الحال وصيغة التفضيل مع التمييز، مما يكسب أسلوبه جمالا موسيقيا مع توضيح المعنى وتجليته.

ويستطرد فى التعداد فيقول: "ثم اجعل الله فى كل صباح ينعم عليك ببلوغه، ويظهر منك السلامة فى إشراقه، من نفسك نصيبا يجعله لله، شكرا على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح، وعافية بدن، وسبوغ نعمة، وظهور كرامة، وأن تقرأ فيه من كتاب الله - تعالى وتبارك - جزءا تردد رأيك فى آيه وتزين لفظك بقراءته .. ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق الحسنات ومفتاح السيئات، وخصم العقل. واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ويعترض غفلتك لأنها خدع إبليس، وخواتل مكره، ومصايد مكيدته. فاحذرهما مجانبيا لها، وتوقها محترسا منها .. فحاول بلوغ غايتها (منزلة أهل الحجاء) محرزا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصنا أعمالك من العجب، فإنه رأس الهوى، وأول الغواية، ومقاد الهلكة، حارسا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوى العادات وذميم إثارها" ويلاحظ فى هذه الفقرات توازن الجمل الناتج عن ترادفها مما يعطى الأسلوب توازنا موسيقيا، ويلاحظ فيها الحال أيضا. أما الآداب التى يوصى بها فيلاحظ عليها الطابع

الإسلامى، ولكنه لا يقصر نفسه على الآداب الإسلامية، فيأخذ عن الآداب
الفارسية والهلينية، التى كانت سائدة فى الشرق فى ذلك الوقت، فيقول:

"من ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتدارى جنحك بالإحسان، وتصون سررك
بالكتمان، وتداوى حقدك بالإنصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم
أودك، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردى، وأناتك فوقها الملال
وفوت العمل، ومضائك فدرعها روية النظر واكنفها بأناة الحلم، وخلوتك
فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك فانف عنه شئ اللفظ، وخف فيه سوء
القاله، واستماعك فأرعه حسن التفهم، وقوه بإشهاد الفكر، وعطاءك فامهد له
بيوتات الشرف وذوى الحسب، وتحرز فيه من السرف واستطالة البذخ وامتنان
الصنيعه، وحياءك فامنع من الخجل وبلادة الحصر، وحلمك فزرعه عن التهاون،
وأحضره قوة الشكيمة، وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط، وتعمد بها أهل
الاستحقاق، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق، وخذ به واجب المفترض، وأقم به
أود الدين، واستئناسك فامنع منه البذاءوسوء المناقشة، وتعهدك أمورك فحذّه أوقاتا،
وقدره ساعات لا تستفرغ قوتك، ولا تستدعى سآمتك، وعزوماتك فانف عنها
عجلة الرأى ولجاجة الإقدام، وفرحاتك فاشكهما عن البطر، وقيدها عن الزهو،
وروعاتك فحطها من دهش الرأى، واستسلام الخضوع، وحذراتك فامنعها من
الجبن واعمد بها للحزم، ورجاءك فقيده بخوف الفائق، وامنع من أمن الطلب"

ويبدو فى هذه الفقرة ظاهرة غريبة هى هذا المفعول به المقدم فى صدر الجمل،
الذى يضى على الفقرة كلها موسيقية واضحة، ولعل هذا الأسلوب من تأثير
الثقافة اليونانية فى عبد الحميد .

وينتهى بهذا حديثه عن الآداب الخاصة الفردية، فيختم هذا القسم بقوله:

"هذه جوامع خلال، دخال النقص منها واصل إلى العقل بطائف أبنه،
وتصاريف حويله، فأحكمها عارفا بها، وتقدم فى الحفظ لها، معتزما على الأخذ
بمراشدها، والانتهاء منها إلى حيث بلغت بك عظة أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله".
وقد تشعر هذه الخاتمة بأنه قد جمع له هذه الآداب من المصادر المتفرقة، عربية
وفارسية ويونانية.

وربما لم يظهر الأثر الفارسى بوضوح فى القسم السابق، ولكنه يتضح كل
الوضوح فى هذا القسم الذى يتناول آداب الحاشية، والذى يبدوه بقوله: "ثم لتكن
بطانتك وجلسائك فى خلواتك، ودخلائك فى شرك، أهل الفقه والورع من خاصة
أهل بيتك، وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور، وخبطته فصاها بين
فراسن البزل منها، وقلبتة الأمور فى فنونها، وركب أطوارها".

ويأخذ فى تعداد الآداب، فيقول: "ثم أحضرهم من نفسك وقارا يستدعى لك
منهم الهيبة، واستئناسا يعطف إليك منهم المودة، وإنصاتا يفل إفاضتهم عندك بما
تكره أن ينشر عنك من سخافة الرأى، وضياع الحزم .. وإياك أن يغمز فيك أحد
من حامتك وبطانة خدمك، بضعفة يجد بها مساعا إلى النطق عندك بما لا يعتز لك
عبيه، ولا تخلو من لائمته .. ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات
والحكايات والمزاح والمضحك التى يستخف بها أهل البطالة، ويتسرع نحوها ذوو
الجهالة .. مع ما فى ذلك من نقص الرأى، ودرن العرض، وهدم الشرف، وتأثيل
الغفلة، وقوة طباع السوء الكامنة فى بنى آدم كمون النار فى الحجر الصلد، فإذا
قُدح لاح شرره، وتلهب وميضه، ووقد تضرمه ..".

ويظهر فى الفقرة الأخيرة ولع عبد الحميد ببعض الصيغ جلب الموسيقى، إذ
نراه يكثر من صيغة التفضيل يليها التمييز .

ثم يبين له السعايات والوشايات والأخبار وكيفية تلافي أضرارها: "واعلم أن أقواما سيسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك من قبل النصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة ليجعلوك لهم ذريعة إلى استنكال العامة، بموضعهم منك فى القبول منهم، والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة، أو أسرعوا بك فى أمره إلى الظنة، فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة، ولا معروف بتهمة، ولا منسوب إلى بدعة .. وليكن صاحب شرطتك، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك إليه إنهاء ذلك، وهو المنسوب لأولئك، والمستمع لأقاويلهم، والفاحص عن نصائحهم. ثم لينهد لك إليك على ما يرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك، من غير أن يظهر ذلك للعامة، فإن كان صوابا نالتك حظوته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فرطة سعى بها كاذب .. لم يعصب ذلك الخطأ بك، ولم تنسب إلى تفريط .. وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر وتعتمد عليه فيه، ألا يقدم على شىء ناظرا فيه، ولا يحاول أخذ أحد طارقا له، ولا يعاقب أحدا منكلا به، ولا يخلى سبيل أحد صافحا عنه، لإصهار براءته، وصحة طريقته، حتى يرفع إليك أمره، وينهى إليك قضيته، على جهة الصدق، ومنحى الحق، ويقين الخبر .. ثم إياك وأن يصل إليك أحد من جنودك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك أو حاجة ييدهك بطلبها، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفته لذلك ونصبته له، فيعرضها عليك منها لها على جهة الصدق عنها، وتكون على معرفة من قدرها، فإن أردت إسعافه بها، ونجاح ما سأل منها، أذنت له فى طلبها، باسطا له كنفك، مقبلا عليه بوجهك، مع ظهور سرورك بما سألك، وفسحة رأى، وبسطة ذرع، وطيب نفس. وإن كرهت قضاء حاجته، وأحببت رده عن طلبته، وثقل عليك إجابته إليها وإسعافه بها، أمرت كاتبك فصفحه عنها، ومنعه من مواجعتك بها، فخفت عليك فى ذلك المؤنة، وحسن

لك الذكر " .

ويأخذ عبد الحميد في ذكر بعض الآداب العامة فيقول: "احذر تضييع رأيك، وإهمالك أدبك في مسالك الرضى والغضب، واعتوارها إياك، فلا يزددينك إفراط عجب تستخفك روائعه، ويستهويك منظره .. وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك وعامة رعيتك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة، والتقرب إليك بالسعاية، والإغراء من بعض بعض، والنميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك .. واملك نفسك عن الانبساط فى الضحك والانفهاق، وعن القطوب بإظهار الغضب وتخله، فإن ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل .. إذا كنت فى مجلس ملك وحيث حضور العامة مجلسك، فإياك والرمى ببصرك إلى خاص من قوادك، أو ذى أثره عندك من حشمك، وليكن نظرك مقسوما فى الجميع، وإعارتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة، ووقار حسن، وحضور فهم مستجمع، وقلة تضجر بالمحدث. ثم لا يرح وجهك إلى بعض قوادك وحرسك متوجها بنظر ركين، وتفقد محض، فإن وجهه إليك أحد منهم نظره محذقا أو رماك بصره ملحا، فاحفض عنه إطراقا جميلا باتداع وسكون .. " .

ويكثر فى هذا النصح، حتى إذا ما انتهى منه صرح بذلك، ودعا لولى العهد، فقال: "هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسرا، وجمع لك شواذها مؤلفا، وأهداها إليك مرشدا، فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وتثبت فى مجامعها، وخذ بوثائق عراها، تسلم من معاتب الردى، وتتل أنفاس الحظوظ، ورغيب الشرف، وأعلى درج الذكر، وتؤئل سطوة العز . والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد، وتتابع المزيد، وبلوغ الأمر .. " .

ويظهر فى هذه الخاتمة كثير من مزايا أسلوب عبد الحميد: من الزواج،

والسجع الخفيف، وتوازن الجمل، وترادفها، واستعمال الحال، وغيرها .

ثم يبدأ الجزء الأول من القسم الثانى من الرسالة، وهو القسم الحربى، بقوله:

"فإذا أفضيت نحو عدوك، واعتزمت على لقائهم، وأخذت أهبة قتالهم فاجعل دعامتك التى تلجأ إليها، وثقتك التى تأمل النجاة بها، وركنك الذى ترتجى به منالة الظفر، وتكتهف به لمعالي الحذر، تقوى الله عز وجل، مستشعرا لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته، متبعا لأمره، مجتنباً لسخطه، محتذياً سنته، والتوقى لمعاصيه فى تعطيل حدوده، وتعدى شرائعه، متوكلا عليه فيما صمدت له، واثقا بنصره فيما توجهت نحوه، متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر، وتلقاك من عز، راغبا فيما أهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك إليه، محمود الصبر فيه عند الله عز وجل وقاتل عدو الله للمسلمين، أكلمه عليهم، وأظهره عداوة لهم، وأفدحه ثقلا لعامتهم، وآخذه بربقهم، وأعلاه عليهم بغيا، وأظهره فيهم فسقا وجورا، وأشده على فيئهم" .

ويكثر عبد الحميد فى هذه الفقرة من استعمال الحال فى بدايتها، وصيغة التفضيل فى نهايتها، مما يوفر لعبارة كثيرا من الموسيقى .

ويشرع يحدد له سياسة الجيش، فيقول "ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرفتهم، ورد مستعلى جورهم، وإحكام خللهم، وضم منتشر قواصيمهم، ولم شعث أطرافهم .. ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام خارجا من جماعة أهله، المنتحل ولاية الدين مستحلا لدماء أوليائه، طاعنا عليهم، راغبا عن سنته، مفارقا لشرائعه" .

ويظهر فى هذه الفقرة أيضا ولع عبد الحميد بالترادفات، واستعمال الحال، وعنايته يتوازن جملة .

ويقول: "حَصَّنْ جندك واشكّم نفسك بطاعة الله في مجاهدة أعدائه، وارج نصره .. فإن طاعتك إياه فيهم، ومراقبتك له، ورجاءك نصره، مُسهل لك نصره مسهل لك وعوره، وعاصمك من كل شبهة، ومنجيك من كل هوة، وناعشك من كل صرعة، ومقيلك من كل كبوة، ودارئ عنك كل شبهة، ومذهب عنك لطنخة كل شك، ومقويك بكل أيد ومكيدة، ومعزك في كل معترك قتال، ومؤيدك في كل مجمع لقاء، وكالك عند كل فتنة مغشية، وحافظك من كل شبهة مردية".

وتظهر في هذه الفقرة صيغة جديدة غير الصيغ السابقة، وهي اسم الفاعل الذى يتردد في كل جملة من جملة الفقرة .

ويقول: "اعلم أن الظفر ظفران، أحدهما - وهو أعم منفعة، وأبلغ في حسن الذكر قالة، وأحوطه سلامة، وأتمه عافية، وأعوده عاقبة، وأحسن في الأمور موردا، وأعلاه في الفضل شرفا، وأصحه في الروية حزما، وأسلمه عند العامة مصدرا - ما نيل بسلامة الجنود، وحسن الحيلة، ولطف المكيدة".

ويعود إلى الظهور في هذه الفقرة صيغة التفضيل التى يليها التمييز. ثم يبين له كيف يحتال على جيش العدو ليهزمه دون إزهاق الأرواح .

وفى آخر هذا الجزء يشرح له ما يجب عليه فى نظام الجواسيس المعقد: "ثم أذك عيونك على عدوك، متطلعا لعلم أحوالهم التى يتقلبون فيها، ومنازلهم التى هم بها، ومطامعهم التى قد مدوا أعناقهم نحوها، وأى الأمور أدعى لهم إلى الصلح وأقودها لرضاهم إلى العافية .. احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك، وإياك ومعاقبة أحد منهم على خير إن أتاك به اتهمته فيه، أو سؤت به ظنا، وأتاك غيره بخلافه، أو أن تكذبه فيه فترده عليه: ولعله أن يكون قد محضك النصيحة، وصدقك الخبر، وكذبك الأول .. واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما

صدقوك، وربما غشوك، وربما كانوا لك وعليك، فنصحوا لك وغشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيرا ما يصدقونك ويصدقونه فلا تبدرن منك فرطة عقوبة إلى أحد منهم . واستنزل نصائحهم بالمياحة والمنالة .. واعلم أن لعدوك فى عسكري عيوننا راصدة، وجواسيس كامنة، وأنه لن يقع رأيه عن مكيدتك بمثل ما تكايد به، وسيحتال لك كاحتيالك له، ويعد لك كإعدادك له فيما تزاوله منه .. واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضا، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك، وممالاتهم عدوك، واجتماعهم على غشك، وتطابقهم على كذبك، وإصفاقهم على خيانتك".

وبانتهاء الكلام عن الجواسيس ينتهى الجزء الأول من القسم الثانى .

ويبدأ عبد الحميد الجزء الثانى من القسم الثانى بقوله: "فإذا أحكمت ذلك وتقدمت فى إتقانه، واستظهرت بالله وعونه، فول شرطتك وأمر عسكري أوثق قوادك عندك، وأظهرهم نصيحة، وأنفذهم بصيرة فى طاعتك، وأقواهم شكيمة فى أمرك، وأمضاهم صريمة، وأصدقهم عفافا، وأجزأهم غناء، وأكفاهم مثوبة، وأصحهم ضميرا، وأرضاهم فى العامة دينا، وأحمدهم عند الجماعة خلقا، وأعطفهم على كفاتهم رافة، وأحسنهم لهم نظرا، وأشدهم فى دين الله وحقه صلابة .. " .

وبهذه الفقرة التى تكثر فيها صيغة التفضيل مع التمييز يبدأ تنظيم الجيش وهو يبدأ فى هذه الفقرة بالقائد الأعلى .

ثم يتناول الأحراس من الجند، فيقول: "واعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك، ومكانها من جندك، بحيث الغناء عنهم، والرد عليهم، والحفظ لهم، والكلاءة لمن بغتهم طارقا، أو أرادهم مخاتلا .. " .

ثم يعالج قضاء العسكري، فيقول: "ثم اعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به

شيء من الأحكام، ولا يمثل محله أحد من الولاة، لما يجري على يديه من مغاليل
الأحكام ومجارى الحدود، فليكن من توليه القضاء في عسكريك من ذوى الخير فى
القناعة والعفاف والبراعة والفهم والوقار والعصمة والورع، والبصر بوجوه القضايا
ومواقفها، وقد حنكته السن، وأيدته التجربة، وأحكمته الأمور" .

ثم يتناول الطلائع، فيقول: "ثم تقدم فى طلائعك، فإنها أول مكيدتك. ورأس
حربك، ودعامة أمرك، فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوى نجدة وبأس،
وصرامة وخبرة، حمأة كفاة .. وإياك أن تقبل من دوابهم إلا إناث الخيل ملهوبة،
فإنها أسرع طلبا، وأنجى مهربا، وألين معظفا، وأبعد فى اللحوق غاية، وأصبر فى
معتزك الأبطال إقداما، وخذهم من السلاح بأبدان الدروع، ماذية الحديد، شاكة
النسج، متقاربة الخلق، فتلاحة المسامير، وأسوق الحديد موهة الركب، محكمة
الطبع، خفيفة الصوغ، وسواعد طبعها هندی، وصوغها فارسی .. ثم انتخب
للولاية عليهم رجلا بعيد الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، نبيه الذكر، له فى
العدو وقعات معروفة، وأيام طوال، وصولات متدمات" .

ثم يذكر الشرطة الحربية، فيقول: "ول دراجة عسكريك، وإخراج أهله إلى
مصافهم ومراكزهم، رجلا من أهل بيوتات الشرف. محمود الخبرة، معروف النجدة،
ذا سن وتجربة، لين الطاعة، قديم النصيحة .. واضمم إليه عدة نفر من ثقات جنودك
وذوى أسنانهم، يكونون شرطة معه، ثم تقدم إليه فى إخراج المصاف، وإقامة
الأحراس، وإذكاء العيون، وحفظ الأطراف .." .

ثم يتناول سلطات القواد: "فوض إلى أمراء أجنادك وقواد خيلك أمور
أصحابهم، والأخذ على قافية أيديهم، رياضة منك لهم على السمع والطاعة
لأمرائهم .. واعلم أن فى استخفافهم بقوادهم، وتضييعهم أمر رؤسائهم، دخولا

للضياح على أعمالك، واستخفا بأمرك الذى يأترون به .. وأوعز إلى القواد ألا يقدم أحد منهم على عقوبة أحد من أصحابه إلا عقوبة تأديب، وتقويم ميل، وتثيف أوده .. " .

ثم المؤخرة: " وإياك والمسير إلا فى مقدمة وميمنة وميسرة وساقة، شهروا الأسلحة، ونشروا البنود والأعلام، وعرف جندك مراكزهم؟ سائرين تحت ألويتهم، قد أخذوا أهبة القتال - ثم اجعل ساقتك أوثق أهل عسكريك فى نفسك صرامة ونفاذا، ورضى فى العامة، وإنصافا من نفسه فى الرعية، وأخذا بالحق فى المعدلة ..

ثم اكثف معه الجمع، وأيده بالقوة، وقوه بالظهر، وأعنه بالأموال .. اجعل لخلف ساقتك رجلا من وجوه قوادك. جليدا ماضيا، عفيفا صارما، شهم الرأى شديد الحذر. فى خمسين فارسا من خيلك، يحضر إليك جندك، ويلحق بك من يتخلف عنك، بعد الإبلاغ فى عقوبتهم، والنهك لهم" .

وأخيرا بعض النصائح الحربية العامة: "ليكن رحيلك إيانا واحدا، ووقتا معلوما، لتخف المتونة بذلك على جندك، ويعلمون أوان رحيلهم، فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، وأعلاف دوابهم .. فإذا انتهيت إلى منهل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله، والمعرفة بمراقفه. ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله، ويستشير لك علم دفينته، ويستبطن علم أموره .. إياك أن يكون منزلك إلا فى خندق، وحصن تآمن فيه بيات عدوك، وتستقيم فيه إلى الحزم من مكيدتك .. "

ويرجع إلى تنظيم الجيش مرة أخرى، فيقول: "ثم ولّ على كل مئة رجل منهم رجلا من أهل خاصتك ونصحتك، له صيت فى الرياسة، وقدم فى السابقة وأولية

فى المشايعة" . ويرى بعض النقاد المحدثين^(١) أن هذه الفقرة تكشف عن تأثير عبد الحميد بالثقافة الهلينية وتنظيم الجيش البيزنطى، إذ كان يتكون هذا الجيش من وحدتين: اللجيون، وتتكون من ستة آلاف رجل، والسنتريو، وتتكون من مئة رجل، ويعرف رئيس هذه المئة بالسنتريونوس. وليس ذلك بغريب، فقد رأينا سالما وحلقته كلها متأثرة بالثقافة الهلينية. وربما عرف عبد الحميد هذا الجيش عن طريق اتصاله بالروم فى الشام وآسيا الصغرى .

ويقول أيضا: "وكل بخزائنك ودواوينك رجلا ناصحا أمينا ذا ورع حاجز، ودين فاضل، وطاعة خالصة، وأمانة صادقة، واجعل معه خيلا يكون مسيرها ومنزلها وترحلها مع خزائنك وحوها، وتقدم إليه فى حفظها، والتوقى عليها .. "

وينهى الرسالة ببعض النصائح العامة: "اعلم أن أحسن مكيدتك أثرا فى العامة، وأبعدها صيتا فى حسن القالة، ما نلت الظفر فيه بحزم الروية، وحسن السيرة، ولطف الحيلة .. إذا تدانى الصفان، وتواقف الجمعان، واحتضرت الحرب، وعبأت أصحابك لقتال عدوهم، فأكثر من قول "لا حول ولا قوة إلا بالله، والتوكل على الله عز وجل .. ومر جندك بالصمت، وقلة التلفت عند المصاولة، وكثرة التكبير فى نفوسهم، والتسييح بضمائرهم .. "

ويختمها بقوله: "أيدك الله بالنصر، وغلب لك على القوة، وأعانك على الرشد، وعصمك من الزيغ، وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء، ومنازل الأصفياء. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته" .

(١) طه حسين: من حديث الشعر والنثر ص ٦٧ .

هذه هي رسالة عبد الحميد، بل كتابه إلى ولي العهد، وإنها لذات أهمية كبيرة في تاريخ حركة الكتابة والتأليف في الأدب العربي. فهي تبين لنا جميع مزايا عبد الحميد الكتابية. وأول ما يظهر فيها عقله المنطقي الذي يقسم الموضوع إلى أفكار جزئية، ويخص كل فكرة بفقرة خاصة من الكلام. ويظهر فيها تأثير عبد الحميد بالثقافة اليونانية والفارسية. وليس ذلك بالأمر العجيب. فنحن نعرف أن أستاذه كان يترجم من اليونانية، وأنه هو نفسه كان يترجم من الفارسية^(١). فلعل أستاذه علمه يونانيته، أو تأثر بها هو عن طريق فارسيتها. وربما كان هذا العقل المنطقي طبيعة فطر عليها، دون أثر من يونان أو فارس. وإن لم يكن الأمر كذلك، فقد صار طبيعة، صبغت كتابته بخصائص كثيرة، ترجع كلها إلى ذلك العقل المنطقي، الذي يأبى إلا النظام والوضوح والدقة. ومن الأمور التي تضيء على هذه الرسالة أهمية زائدة دلالتها على ثقافة مؤلفها الواسعة الشاملة، المتشعبة الأنحاء، التي توحى إلينا بما كان معروفا في المجتمع الإسلامي من آداب وثقافات ومعارف، من استنباطهم، أو من الجداول الخارجية التي شرعت تندفق على العالم الإسلامي، وكانت إرهاصا بالسيول المنهمرة المتدافعة في العصر العباسي الذهبي .

وفضلا عن هذه الأفكار، يظهر فيها عناية شديدة باختيار الألفاظ والأسلوب، حتى تتوافر الموسيقى فيها توافرا شديدا، آتيا عن توازن الجمل وازدواجها أو سجعها، وعن مراعاة عبد الحميد لبعض الصيغ الخاصة في الفقرة الواحدة، المفعول به، أو صيغة التفضيل، أو التمييز، أو اسم الفاعل، أو الحال. وكذلك تأتية الموسيقى من تقابل ألفاظ الجمل المتجاورة وتآلفها. وينتج ذلك عن حبه للترادف وإكثاره منه.

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٣ : ١٦ .

فعبد الحميد في هذه الرسالة إمام من أئمة الكتاب، يعنى بأفكاره فيستجلبها من الثقافات المختلفة، ويدقق فيها ويوضحها، بالإضافة إلى ترتيبها. ويعنى بأسلوبه فيوفر له الجمال الموسيقى، الذى يثير اللذة فى القارئ، والإعجاب بالكاتب .

وهذه الرسالة لها أهمية أخرى فى تاريخ الكتابة الفنية العربية، إذ تقف وحدها علما بين العهود التى قبلها، والتى بعدها. ونحن إذا ما جمعنا عهود الصدر الأول من الإسلام مثلا، وأنعمنا النظر فيها. نجدها مختصرة موجزة لا تعدو النصائح الدينية. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول فى عهده لعمر بن حزم حين ولاه اليمن^(١):
"بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا بيان من الله ورسوله "يأبها الذين آمنوا أوفوا بالعقود"، عقد من محمد النبي رسول الله لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن. أمره بتقوى الله فى أمره كله، إن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون" وأمره أن يأخذ بالحق كما أمر به الله، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن، ويفقههم فى الدين، ينهى الناس فلا يمس أحد القرآن إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذى لهم وبالذى عليهم، ويلين للناس فى الحق، ويشتد عليهم فى الظلم. فإن الله عز وجل كره الظلم ونهى عنه، وقال: "ألا لعنة الله على الظالمين"، ويبشر الناس بالجنة ويعملها، وينذر بالنار ويعملها، ويستألف الناس حتى يتفقهوا فى الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته.."

فهى مجرد نصائح دينية بعضها بجوار بعض. بل العهود الحربية نفسها لم تكن تتعدى هذه النصائح الدينية أيضا. وهذا عهد أبى بكر لأمرأء جيوش الردة^(٢):

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٦٢ .

(٢) نفس المرجع ١١٧ .

"بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان .. حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، عهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله، سره وعلايته، وأمره بالجد في أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان، بعد أن يعذر إليهم، فيدعوهم بداعية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرّوا له، ثم ينبههم بالذى عليهم والذى لهم، فيأخذ ما عليهم، ويعطيهم الذى لهم، لا ينظرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له، قبل ذلك منه، وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالله، على الإقرار بما جاء من عند الله. فإذا أجاب الدعوة لم يكن له عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجب داعية الله قُتل وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام. فمن أجابه وأقر به قبل منه وعلمه. ومن أبى قاتله. فإن أظهره الله عليه قتل فيهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وأن لا يدخل فيهو حشوا حتى يعرفهم، ويعلم ما هم، لئلا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقصد بالمسلمين، ويرفق بهم فى السير والمنزل، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول .. " فهذا العهد وإن كان يحتوى على بعض النصائح غير الدينية إلا أنها قليلة بجانب الدينية .

وهذا عمر يعهد إلى عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة، فيقول^(١):

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٢٤٥ .

"واتق الله فيما وليت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر يفسد عليك إخوانك، وقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعززت به بعد الذلة، وقويت به بعد الضعف، حتى صرت أميرا مسلطا، وملكا مطاعا، تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك، فياها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك، وتبترك على من دونك، احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، وهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم. أعيذك بالله ونفسي من ذلك. إن الناس أسرعوا إلى الله حين رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرد الله ولا ترد الدنيا، واتق مصارع الظالمين".

ولكن عمر كان له نصائح حربية أيضا، يظهر ذلك في رسائله لسعد بن أبي وقاص وهو يحارب الفرس^(١) :

"أما بعد؛

فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم الله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم. فإن استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. فاعلموا أن عليكم في سيركم حفاظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: "إن عدونا شر منا، فلن يسلم علينا". فرب

(١) نفس المرجع ٢٣٣ .

قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بنى إسرائيل - لما عملوا بمساخط الله -
كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعد الله مفعولا. وأسألوا الله العون
على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم..".
ويظهر في هذه الفقرة الروح الإسلامى، ولكن الروح الحربى يظهر فى الفقرة
التالية :

"وترفق بالمسلمين فى مسيرهم، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن
منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم، والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى
عدو مقيم، حامى الأنفس والكراع، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة، حتى
تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم. ونح منازلهم عن
قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحدا
من أهلها شيئا، فإن لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما
صبروا لكم فتولولهم خيرا، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخفَ عليك أمرهم،
وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن
الكذب لا ينفعك خبره، وإن صدقك فى بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك
.. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السرايا بينك
وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وتنق للطلائع
أهل الرأى والبأس من أصحابك، وتخبر لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدوا كان أول
ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجناد،
ولا تخص بها أحدا بهوى، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك،
ولا تبعثن طليعة، ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكبة. فإذا عاينت

العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسرايك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم أذك أحراسك على عسكريك، وتيقظ من البيات جهديك، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب به عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولى النصر لكم على عدوكم، والله المستعان" .

وهذا العهد ذو أهمية بالغة، بل هو أهم عهد فى الصدر الأول من الإسلام، فهو يحتوى على جل الأفكار التى عنى عبد الحميد ببسطها والإطناب فى الكلام عنها، من نظام الجيش والجواسيس والطليلة والتحذير من البيات وغيرها. ولا يخامرنا كثير من الشك فى قراءة عبد الحميد لهذا العهد وتأثره به، وإن كان عبد الحميد أدخل أشياء جديدة أتى بها من عصره ومن ثقافته .

أما عثمان فيكتفى فى عهوده إلى عماله بالإشارة إلى عهود عمر ووجوب العمل بها، كتب إلى عماله^(١) .

"أما بعد؛

فقوموا على ما فارقتم عليه عمر، ولا تبدلوا؟ ومهما أشكل عليكم فردوه إلينا نجمع عليه الأمة ثم نرده عليكم؟ وإياكم وأن تغيروا، فإنى لست قابلا منكم إلا ما كان عمر يقبل" .

كما كان عثمان يتعهدهم بالنصائح الدينية من عنده أيضا، يقول فى عهد آخر^(٢) :

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٢٩٣ .

(٢) نفس المرجع ٢٩١ .

"أما بعد؛

استعينوا على الناس وكل ما ينوبكم بالصبر والصلاة، وأمر الله أقيموه، ولا تدهنوا فيه، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك. وارضوا من الشر بأيسره، فإن قليل الشر كثير، واعلموا أن الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضها من بعض. سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة".

ويقتفى على أثر من قبله في عهوده، ولكنه له عهد مهم إلى زياد بن النضر وشريح بن هانئ في الحرب يقول^(١):

"واعلما أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع، ومن نفص الشعاب والشجر والخمر في كل جانب، كي لا يغتركما عدو أو يكون لهم كمين، ولا تسيرن الكتاب والقبائل من لدن الصباح إلى المساء إلا على تعبئة. فإن دهمكم عدو أو غشيكم مكروه، كنتم قد تقدمتم في التعبئة. فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف، وأسفاح الجبال، وأثناء الأنهار، كيما يكون ذلك لكم رداء، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا رقباء كما في صياصي الجبال، وبأعلى الأشراف، ومناكب الأنهار، يرون لكم، لا يأتىكم عدو من مكان مخافة أو أمن. وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعا، وإذا رحلتهم فارحلوا جميعا، فإذا غشيكم الليل فنزلتم فحفوا عسكركم بالرماح والترسة، ولتكن رماتكم من وراء تراسكم ورماحكم، يلونهم. وما أقمتم فكذلك فافعلوا، كي لا يصاب لكم غفلة، ولا يلقى لكم غرة، فما قوم يحفون عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار، إلا كانوا

(١) نفس المرجع ٤٦٠ .

كانهم فى حصون، واحرسا عسكركما بأنفسكما. وليكن كل يوم عندى خيركما، ورسول من قبلكما. فإنى - ولا شىء إلا ما شاء الله - حيث السير فى إثركما. وعليكما فى جريكما بالتؤدة، وإياكما والعجلة إلا أن تمكنكما فرصة بعد الإعدار والحجة. وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكم إلا أن تُبدءا، أو يأتیکما أمرى إن شاء الله".

ولا يبلغ هذا العهد مبلغ عهد عمر، إلا أننا نجد فيه قليلا من الأفكار التى وردت فى عهد عبد الحميد، ولا شك أنه أخذ بذرته منه، فإنه كان يحفظ كلام على ابن أبى طالب. وبهذا العهد نرى أن عهود الصدر الأول من الإسلام كانت تغلب عليها الصبغة الدينية ثم الحربية، وأن عمر وعلياً كان لهما من العهود ما اشتمل على أصول مجموعة من أفكار عبد الحميد إلا أن هذا استخدم هذه الأصول ونماها، فأتت أكلها على يديه .

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الأموى وجدنا نوعا آخر من العهود. ولكننا قبل الكلام عنها نحب أن نشير للمرة الثانية إلى أننا نرفض رسالة معاوية إلى ابنه يزيد، التى يعنفه فيها تعنيفا شديدا يحط قدره، وهى ما يمكن اعتباره من العهود، وبعكس ذلك نقبل رسالة عبد الملك بن مروان إلى ابنه التى يلومه فيها، وقد تكلمنا عنهما من قبل، فلا داعى للتكرار. أما هذا النوع الآخر من العهود فليس بجديد، ولكنه وحيد. وأعنى بذلك أن العهود الدينية تختفى، وتشغل المكان العهود الحربية وحدها، مما يجعلنا نطمئن إلى رأى القائل بأن العهد الأموى كان كله عهد حروب وفقن وثورات بين المذاهب الإسلامية المختلفة، وبين المسلمين ومن جاورهم من الأمم الأخرى. ويتضح ذلك أبلغ وضوح فى الرسائل بين عبد الملك بن مروان والحجاج

والمهلب بن أبي صفرة. وهاك رسالة من الحجاج إلى المهلب^(١) :
"أما بعد؛

فإنك تترأخي عن الحرب، حتى يأتيك رسلى فيرجعون بعذرک، وذلك أنك تمسك حتى تبرأ الجراح، وتُنسى القتلى، ويجم الناس، ثم تلقاهم فتحتمل منهم مثل ما يحتملون منك من وحشة القتل وألم الجراح، ولو كنت تلقاهم بذلك الجمد لكان الداء قد حُسم، والقرن قد قُصم. ولعمري ما أنت والقوم سواء، لأن من ورائك رجالا، وأمامك أموالا، وليس للقوم إلا ما معهم، ولا يدرك الوجيف بالديب، ولا الظفر بالتعذير".

ولا تختلف باقى العهود عن هذه الرسالة، فهى موجزة قصيرة وقتية لا ترتفع حتى إلى مرتبة عهدى عمر وعلى لا مرتبة عبد الحميد. ولكن يجب أن يقال إن هذه العهود تختلف فى عهد عمر بن عبد العزيز، وتظهر محلها العهود الدينية التى يرسلها إلى عماله المنتشرين فى أنحاء الدول الإسلامية المختلفة. وهاك كتابه إلى عبد الرحمن ابن نعيم عامله بخراسان^(٢):

"أما بعد؛

فكن عبدا ناصحا لله فى عباده، ولا تأخذك فى الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، فلا تولين شيئا من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعى. وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق، فإن الله لا يخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهبا، فإنه لا

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ١٨٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ٢٤٠ . وأحمد صفوت: الجمهرة ٣ : ٤٨٥ .

ملجأ من الله إلا إليه" .

وهكذا نخرج من هذا العرض للعهد في الأوقات المختلفة، قبل عبد الحميد، بأنه كان ينظر في عهده إلى عهد عمر ثم عهد علي. أما غير ذينك فلم يكن يوجد من العهود ما يصح اعتباره أصلاً لعهد عبد الحميد. ولكن الفرق شاسع أيضاً بين هذين العهدين وعهد عبد الحميد في الأسلوب، والأفكار، والغرض منه، بحيث يقف عهده وحيداً شامخاً بين هذه العهود المتضائلة المتخاذلة بجانبه .

ويشتد وضوح مكانة هذا العهد حين نقارنه بما بعده من عهود، ويكفي أن نعقد مقارنة سريعة بينه وبين عهد طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما^(١). وكان لعهد عبد الحميد أثر شديد في عهد طاهر ويتضح هذا منذ البداية، إذ يبدأ العهدان بالنصح بالتقوى، فعبد الحميد يقول بعد ديباجته: "واعلم أن احتواءك على ذلك، وسبقك إليه، بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً بها، وإضمار طاعته منظوياً عليها"، وطاهر يقول: "فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته عز وجل، ومزايلة سخطه ..". وإن كنا ينبغي علينا أن نتذكر أن البدء بالتقوى كان أمراً مألوفاً في العهود الإسلامية جميعها. ويظهر هذا الأثر في الأفكار الأخرى، بل يتعدى ذلك إلى بعض العبارات - على الرغم من اختلاف الأسلوبين - فعبد الحميد يقول "ثم اعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام". وطاهر يقول: "واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور". وتكاد العبارتان تكونان عبارة واحدة، بل لو أخفينا اسم الكاتبين لظنناهما من قلم واحد. ولكن هذا الأثر لم يجعل العهدين

(١) ابن خلدون: المقدمة ٢٤٠ . وأحمد صفوت: الجمهرة ٣ : ٤٨٥ .

صورة واحدة، بل احتفظ كل منهما بمزاياه، فنجد عهد طاهر أقصر من عهد عبد الحميد، ويميل للترادف اللفظي، ويتكلم عن آداب الوالي وحده، ويكثر من الكلام عن الخراج، وتغلب عليه السنة الدينية، على حين نجد عهد عبد الحميد يميل لترادف الجمل، ويذكر آداب الوالي وآداب البلاط، ويبين نظام الحكم، ونظام الجيش، وسياسة الحروب، ولا يلح على نظام الخراج. فهما ينفرد كل منهما بخصائصه، ولكن لا شك أن عهد طاهر كان يأخذ ويقتبس من عهد عبد الحميد في أفكاره وألفاظه .

رسالة الصيد

وهذه رسالة أخرى من رسائل عبد الحميد تكشف لنا عن نواح أخرى فيه. كتب يصف رحلة صيد للخليفة^(١):

"أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيدا بالعزيز، مخصوصا بالكرامة، ممتعا بالنعمة. إنه لم يلق أحد من المقتنصين، ولا منح متطرف من المتصيدين إلا دون ما لقانا الله به من اليمن والبركة، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا، من كثرة الصيد، وحسن المقتنص، وتمكين الجاسة، وقرب الغاية، وسهولة المورد .. "

ويظهر في هذه القرة ميل عبد الحميد للإطناب، وترادف الجمل، وتوازنها.

ويبدأ الموضوع الأساسى فى الرسالة بقوله: "وإنى أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري، أكرمها أجناسا، وأعظمها أجساما، وأحسنها ألوانا، وأحدها أطرافا، وأطولها أعضاء، قد ثقفت بحسن الأدب، وعودت

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٤٤ .

شدة الطلب .. ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة، من الشهيرة الموصوفة
بالنجابة، والجري والصلابة .. "

ونراه يلتزم في هذه الفقرة صيغة التفضيل مع التمييز، مما يكسبها موسيقية
متوافرة .

ويظهر في هذه الرسالة ميزة أخرى، لعلها لا تظهر في رسائله الأخرى بهذا
الوضوح، تلك هي واقعيته، وتحريه الدقة في وصف الواقع، حتى لنراه يصف رحلة
الصيد، وما مر به من أراض في سيره، والاختلافات التي طرأت على الجو في أثناء
طرده، فيقول:

"فلم نزل بأخفض سير، وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركا،
فربت منه الأرض، وأزهر البقل، وسكن القتام من مشار السنابك، وامتشعبات
الأعاصير، مهلة أن سرنا غلوات، ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت من
السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحك النوار، وانجلت الأبصار، فلم نر
منظرا أحسن حسنا، ولا مرموقا أشبه شكلا، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار
زهر الرياض، والخيل تمرح بنا نشاطا، وتجذبنا أعنتها انبساطا. ثم لم نلبث أن علتنا
ضباة تقصر طرف الناظر، وتخفى سبل السلام، تغشانا تارة، وتنكشف أخرى، ونحن
بأرض دمثة التراب أشبه الأطراف، مغدقة الفجاج، مملوءة صيدا من الطباء والثعالب
والأرانب .. "

فهذا إحساس مرهف من الكاتب بالطبيعة حوله، في حالاتها المختلفة، وهذا
تصوير واقعي صادق، لما يحس به الكاتب. ويستخدم عبد الحميد هذا الجو الطبيعي
ليبرز لنا صورة الطرد والصيد، ويساعدنا على تمثل المنظر كاملا واضحا .

وها هم أولاء قد وجدوا الصيد: "فأدانا المسير إلى غابة دونها مألّف الصيد، ومجتمع الوحش، ونهاية الطلب .. فإذا نحن برعلة من ظباء، وخلفة آرام يرتعن آنسات، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسنا، فلم نعج إلا والضواري لائحة لهن من بعد الغابة، ومنتهى نظر الشاخص، ثم مدت الجوارح أعنتها، واجتذبت الضواري مقاودها، فأمرت بإرسالها عن الثقة بمحضرها، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها، تسف الأرض سفا، كاشفة عن آثارها، طالبة لخيارها، حارشة بأظفارها، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد، فمن صائح بها وناعر، وهاتف بها وناعق، يدعو الكلب باسمه، ويفديه بأبيه وأمه، وراكض تحت مفره، وخافق يطلبه الريح، وطامح يمنعه، وسانح قد عارضه بارح، قد حيرتنا الكثرة، وألهجتنا القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد والله المنعم الوهاب".

فما أصدق الصورة وما أجل المنظر، وما أبلغ عبد الحميد الذي يكشف لنا عن ثقافة ومعرفة بالشعر في لفظة واحدة "خلفة آرام" فلعله أتى بها من معلقة زهير من قبيل التطرف والتلمح باستخدام الألفاظ الشعرية .

ولم تنته الرحلة بعد، فإن هناك منظرا آخر ينتظرنا: "ثم ملنا، يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب، وخبر أعلام المذانب، إلى غدير أفيح، وروضة خضرة، مستأجمة بتلاوين الشجر، ملتفة بصنوف الخمر، مملوءة من أنواع الطير. لم يذعرهن صائد، ولا اقتصهن قانص، فحُفّق لها بطبول وصفر بنفير الحتف. فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها. ثم انبرت البزاة لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضاربة، يرفعن الطلب لها، ويخفضن الظفر بها. حتى سئمنا من الذبح، وامتلأنا من النضيج، كأننا كتيبة ظفرت ببغيتها، وسرية نصرت

على عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وغلبت محسنها بمسيئها، لا تملك أنفسنا
مرحا، ولا نستفيق من الجذل بها فرحا، بقية يومنا، والله المنعم الوهاب".

وهذا منظر ثالث: "ثم غدونا يا أمير المؤمنين، إلى أرض وصف لنا صيدها
بالكثرة، ورياضها بالنزهة، فزل واصفها عن الطريقة، واعتمد بنا إلى غير الحقيقة،
فأتيناه فلم نر صيدا ولا عشا، ولا نزهة ولا حسنا. فجعلنا نسلك منها حزونا
ووعورا وجدويا وفقرا، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع
النصب. فبينما نحن كذلك إذ بدا لنا جاب قد أوفى بنا على حائل بهادل غابة، من
ورائها حمير وحش كثيرة. فأمعناها، فلما تطرفنا مشيا وتقريبا إلى عاناته، توالى نهيقه
وكثر شهيقه، فالتفتن إليه، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه، واستهلن أمره،
حتى إذا كنا بمرأى ومسمع انجذبن موليات، وهربن مسيات. فأجهدنا الركض فى
طلبهن، نتبع آثارهن، ونستشف بلاء بين أحفار ودكادك وخناذيد، حتى أشفى بنا
الطلب على واد هائل سائل بجبته غابة أشبة قد سبقن إليها، واستخفين فيها،
فنظمناها بالخيال نظم الخرز، ثم أوغلت عدة فرسان فى نفضها ومعرفة أحوالها،
والطبول خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان، والحمد لله على كل حال".

وهذه الرسالة فى نظرى من أهم رسائل عبد الحميد، فهى تكشف عن
خصائصه فى الأسلوب من إطناب، وترادف جمل، وتوازنها، ومن ازدواج، وسجع
منتشر، والتزام لبعض الصيغ للموسيقى والإيضاح مثل صيغة التفضيل والحال. ولكن
أهم من كل ذلك أن تكشف لنا عن إحساس مرهف عند عبد الحميد، فنراه يحس
بالطبيعة إحساسا شديدا، ويحاول أن يرسمها كما يراها ويحس بها فهو رسم واقعى
صادق شامل ملم للأطراف والتفاصيل. وذلك من شأن العقول المنطقية التى رأينا
أن عبد الحميد لم يكن غريبا عنها. وهكذا نعرف من هذه الرسالة عبد الحميد

الواقعي المصور الطبيعي المرهف الإحساس بالطبيعة ومفاتها .

وقد رأينا أن من أسباب أهمية كتاب عبد الحميد السابق دلالة على ثقافته العامة، ومن العوامل التي تجعل هذه الرسالة الراهنة مهمة في نظر دارسي الأدب العربي وعبد الحميد خاصة، دلالتها على ثقافته العربية. فهي تدل دلالة واضحة على اطلاع واسع على الشعر العربي القديم وطردياته خاصة، وهضم لأوصاف هؤلاء الشعراء. ثم مشاركة من عبد الحميد للمطاردين والصيادين. فهذه الرسالة لا يستطيع أن يخرجها إلا من أكثر قراءة الطرديات القديمة، ولا يستطيع أن يخرجها بهذه الحياة وهذه القوة إلا من عانى الصيد، ولاقى متاعبه وأهواله، وملاذه ومتعه.

رسالة إلى العصاة :

ولدينا رسالة أخرى لعبد الحميد تظهر فيها خاصة لم تظهر في رسائله الباقية، تلك الرسالة التي كتبها إلى بعض من خرج عن الطاعة^(١) :
"أما بعد؛

فقد بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد، فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تحتضب بالجريال، رجال هم الرجال، بين رمح وناشب، ليس معهم إلا كلب محارب، ولا ينكلون عن الأصحاب، فقد ضربوا بضرب الهام، واعتادوا الكر والإقدام، ليسوا بذى هينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، في أعنتهم الحتوف" .

فوجد عبد الحميد في الفقرة السابقة يلتزم السجع التزاما شديدا، لم نره عنده

(١) محمد كرد علي: أمراء البيان ص ٥٥ . وأحمد صفوت: الجماهرة ٢ : ٤٧١ .

فى رسائله الأخرى، مما قد يجعل شيئا من الشك يتسرب إلى نفوسنا فى صحة نسبة هذه الرسالة إليه، غير أن هناك بعض الفقرات من الرسائل الأخرى تحد من ازدياد هذا الشك. فإننا نرى هذا السجع الملتزم أو ما يقاربه فى رسالته إلى العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار العباسيين الأسود^(١):

"فلا تمكثوا ناصية الدولة العربية، من يد الفئة العجمية، واثبتوا ريشما تنجلى هذه الغمرة، ونصحو من هذه السكرة. فسينضب السيل، وتمحى آية الليل، والله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين".

بل نجد السجع فى القطعة التى يقال إن كتابه إلى أبى مسلم الخراسانى بدأ بها^(٢): "لو أراد الله بالنملة صلاحا، لما أنبت لها جناحا". فإن هذه القطعة لو كانت صحيحة تدلنا على أن عبد الحميد كان يولع بالسجع أحيانا، وخاصة فى كتبه إلى الثوار والخارجين عن الطاعة. أما إذا كانت موضوعة، فإنها تدلنا على أن واضعها كان يشعر بأن عبد الحميد كان يغرم بالسجع أحيانا، وذلك مما يجعلنا نطمئن إلى الرسائل المسجوعة المنسوبة إليه. كما نراه يسجع فى بعض تميمياته^(٣): "الحمد لله العلى مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصادق وعده ..".

مجمال خصائص عبد الحميد

نخرج من هذه الرسائل، التى حللناها، وغيرها من الرسائل التى لم نحللها هنا، بمجموعة من الخصائص كان يتحلى بها عبد الحميد. ولعل أول ما نخرج به أنه كان

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٦٩ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٦٨ .

(٣) نفس المرجع ٥٥١ .

ذا عقل منطقي، متسلسل الأفكار، منتظم الخطوات. يظهر هذا في تقسيمه رسائله إلى فقرات، تتألف كل واحدة منها من فكرة خاصة لا تتعداها إلى الفقرة الأخرى. وتتألف هذه الأفكار الخاصة في الفقرات المنفصلة، وتترابط، فيتكون منها الموضوع العام أو الرسالة. ويظهر هذا التقسيم أوضح ما يظهر في رسالته إلى ولي العهد. ولذلك يقول عنه الدكتور طه حسين. إن قارئه يستطيع أن يقرأ الفقرة ثم يقف ويستريح عند آخرها، بل يستطيع أن يطوى الكتاب يوما أو أكثر ثم يعود إلى القراءة دون أن يشعر بانقطاع المعنى^(١)، وهذا التقسيم للموضوع غريب عن العقل العربي، لم نعهده فيمن قبل عبد الحميد، وإنما عهدنا منهم ومن بعدهم استطرادا وخروجا عن الموضوع إلى اليمين والشمال، ورجوعا إليه متى أحبوا، بل قد لا يرجعون إليه أبدا فهذا التقسيم وليد هذا العقل المنطقي .

وظهر تفكيره المنطقي أيضا في ميله إلى الواقعية في التصوير، فإن هذا اللون من التصوير أشبه ما يكون بذلك التفكير. وقد اتضح لنا هذا في رسالته في الصيد التي نعرف منها أيضا حبه في تصوير المناظر الطبيعية، بل حبه في التصوير عامة. وقد ظهر لنا ذلك أيضا في رسائله الإخوانية، وخاصة رسالته عند ما أنجب ابنه، وفي رسالته إلى الكتاب أيضا. وكان من آثار حاسته المصورة هذه استعمال التشبيه والاستعارة والتشخيص، وتظهر هذه الخاصة في رسالته التي يقول فيها^(٢): "الناس أصناف مختلفون، وأطوار متباينون، منهم علق مضنة لا يباع، ومنهم غل مظنة لا يبتاع".

وقد دفعه تفكيره المنطقي أيضا إلى تحرى الدقة في عباراته، وتوضيح ما يقصده

(١) طه حسين: من حديث الشعر والنثر ٦٨ .

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ٨٢ .

من معان، فأدى به ذلك إلى الإكثار من استعمال الحال كثرة ملحوظة، لا نجدها عند غير مدرسة عبد الحميد وأستاذه من الأدباء. وهى على غرابتها عن اللغة العربية مألوفة فى اللغة اليونانية، مما جعل بعض المحدثين يربطون بين هذه المدرسة وهذه اللغة التى نعرف أن سالما كان يعرفها ويترجم منها، والتى ربما عرفها عبد الحميد، وإن لم يصرحوا لنا بذلك. ولكنه - إن لمن يكن عرفها مباشرة - فقد عرفها بطريق غير مباشر، أعنى كتابات أستاذه، التى تأثر بها، وتطبع ببعض خصائصها ولكننا نحب ألا نعطى هذه الظاهرة أكثر مما تستحق، فإن عبد الحميد لا يكثر منها وحدها، بل لعله يأتى ببعض الصيغ الأخرى أكثر مما يأتى بها. فنراه يكثر من التفضيل والتمييز والمفعول المطلق، والمفعول لأجله، وأساليب العلة. ومما لا شك فيه أن صيغ التفضيل مع التمييز أكثر دورانا فى كتابته من الحال. ولعل تحريه الوضوح هو ما دعاه إلى الاتيان بالطباق فى كتابته أحيانا، إذ من المعروف أن الطباق والمقابلة يساعدان على إبراز الفكرة وإيضاحها. ولكن إكثار عبد الحميد من هذه الصيغ فى العبارات المتجاوزة لم يكن يرجع إلى تفكيره المنطقى وحده، بل يرجع إلى مراعاته للموسيقى، ووجه توفير أكبر قسط منها لكتابته .

وليس من الغريب أن نقول عن عبد الحميد إنه كان منطقى التفكير، ما دمنا قد عرفنا أن أستاذه قد ترجم بعض رسائل أرسطو، وربما كان مطالعا على منطقته، ولعله لقنه تلاميذه أيضا، كما أننا رأينا عبد الحميد متأثرا بالثقافة اليونانية فى كثير من خصائصه، وخاصة فى رسالته لولى العهد . وقد قلنا قبل إن ذلك العقل المنطقى لا يبعد أن يكون طبيعة فطر عليها، وترعرعت معه، فسادت على جميع كتاباته .

الجزء الثانى
الكتابة التاريخية

الكتابة التاريخية

تعريف

التاريخ: تعريف الوقت، والتورخ مثله. أرخ الكتاب ليوم كذا: وقته، والواو فيه لغة. وزعم يعقوب أن الواو بدل من الهمزة^(١). وقد اختلف العلماء في أصل هذا اللفظ، فذهب به بعضهم إلى العربية الخالصة، فقال: إن التاريخ مأخوذ من لفظ الأرخ، بمعنى ولد البقرة الصغير، لأنه يشبه الشيء الحادث كما يحدث الولد، فهو حدث جديد^(٢). وعزاه بعضهم الآخر إلى الفارسية، فقال: إن أصله "ماه روز" بمعنى "يوم الشهر" فعربوها، فقالوا "مؤرخ" وجعلوا المصدر منها "التاريخ"^(٣). وهو اشتقاق بعيد، لا يظهر فيه تقارب بين اللفظين العربي والفارسي .

ويتصل هذا القول - دون شك - بالخبر القائل بأن المسلمين تأثروا بالفرس في أخذهم تاريخ الهجرة تقويماً لهم، إذ أشار الهرمزان الفارسي على عمر بن الخطاب بذلك^(٤). ولكننا نرجح الرأي القائل بعربية الكلمة، وإن كنا لا نشاركهم في أنها مأخوذة من الأرخ، وإنما هي كلمة عربية قديمة مشتركة في اللغات السامية، تلوح القرابة بينها وبين كلمتي "يرح" التي معناها "القمر" و"الشهر" في العبرية^(٥). ومن المعروف أن الساميين كانوا يحددون شهورهم بالقمر لا بالشمس، ولذلك كانوا يبنون تاريخهم على الليالي دون الأيام، كما هو الحال في التقويم الهجري الآن.

(١) لسان العرب، مادة "أرخ" .

(٢) المصدر السابق .

(٣) البيروني: الآثار الباقية ٢٩، والحوارزمي: مفاتيح العلوم ٧٩ .

(٤) نفس المرجعين .

(٥) جب : دائرة المعارف الإسلامية، مادة "تاريخ" .

وعلى هذا الرأى نرى أن معنى كلمة "التاريخ" فى مبدأ أمرها كان "تحديد الشهر"، ثم اتسع فصار التوقيت العام أى تحديد عهد أى حادث من الحوادث. ولا زالت اللغة فى تطورها حتى شمل هذا اللفظ رواية الحادث نفسه من جهة، وتحديد من جهة أخرى، وكانت هذه الخطوة الأخيرة فى سبيل بزوغ كلمة التاريخ بالمعنى الاصطلاحى المعروف .

وأطلق لفظ التاريخ فى عهده الأخير على عدة معانٍ متقاربة. فهو بمعنى التاريخ العام، أى تسجيل أهم الحوادث كما يظهر فى تاريخ الطبرى قبل الإسلام والكتب الأخرى؛ وهو بمعنى الحوليات، أى تدوين الحوادث عاما فعاما مثل تاريخ الطبرى بعد الإسلام وتاريخ ابن الأثير وغيرهما؛ وهو بمعنى تدوين الأخبار مرتبة بحسب العصور، مثل سيرة معاوية وبنى أمية لعوانة بن الحكم؛ وهو بمعنى التراجم، كما نرى فى كتاب "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" لابن القفطى ومعجم ابن خلكان وغيرهما. وأطلق أيضا على مصنفات تختلف عن المصنفات التاريخية اختلافا كبيرا، مثل "تاريخ الهند" للبيرونى، إذ هو أقرب إلى مصنفات البحوث العقلية منه إلى المصنفات التاريخية. ويعنى إلى جانب هذه المعانى، المعنى اللغوى الأول، أعنى تحديد بداية الأخبار الخاصة بعصر من العصور، أو حساب الأزمان وحصرها، أو تحديد زمن وقوع الحوادث تحديدا دقيقا.

الفصل الأول

ظهور الكتابة التاريخية

العصر الجاهلي

تكلّمنا - قبل - عن العصر الجاهلي، وما عرف فيه من كتابة. ولكننا إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية، لم نكد نظفر بشيء، حتى البلدان المتحضرة التي كنا نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها ورقياً، مثل اليمن والحيرة وغسان، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضاً، وكان تاريخها نسيا منسيا لدى العرب، سكانها أو غير سكانها، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عندما أرادوا الكتابة عنها بعد ظهور الإسلام، وحلق بهم الخيال فى الأجواء، ما نستطيع أن نركن إلى حقيقة مما يقولون، على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على الآثار الباقية فى اليمن وشمال بلاد الحجاز وجنوبى الشام، مما يدل على جهل المؤرخين العرب بالخط الحميرى والخطوط الأخرى فى بلاد العرب القديمة. والشئ الوحيد الذى نسمع عنه هو المدونات التاريخية المودعة فى أديار الحيرة وكنائسها والتي اطلع عليها الكلبي فيما بعد، وإن كنا لا نعرف عنها شيئاً فيما عدا ذلك^(١).

ولا يمكننا الركون كثيراً إلى الوثائق التي تروى فى كتب التاريخ الإسلامى عن هذا العصر، وإنما نقابلها بالشك الشديد الذى تثيره فىنا ظروف هذه الوثائق ومثلها الواضح تلك الوثيقة التي يذكرها أبو حنيفة الدينورى فى تاريخه أن عمر

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٣٧ .

ابن إبراهيم من ولد أبرهة بن الصباح آخر ملوك اليمن أرسلها إلى الكرنى حسب طلب الأخير^(١). وكانت هذه الوثيقة عبارة عن حلف عقد بين ربيعة واليمن أيام تبع ابن ملكيكر. وعبارة الوثيقة مسجوعة، وفيها عدة إشارات إلى ضروب النسك الوثني، وإن كانت تبدأ بعبارة إسلامية تقول: "بسم الله العلي الأعظم، الماجد المنعم"، وتنتهي بذكر الله وشهادته على الحلف كما كان يفعل المسلمون، إذ تقول: "وشهد الله الأجل، الذي ما شاء فعل". ولا شك أن المرء حين يقع نظره على الرسالة يغمره الشك فيها من جميع الأنحاء.

الأيام

ولكن العرب - على الرغم من كل ذلك - عرفت نوعا من التاريخ الشفهي، فقد كانت القبائل تروى أيامها: حروبها وانتصاراتها، لتفخر بها على القبائل الأخرى، سواء كان ذلك شعرا خالصا أو نثرا تتخلله الأشعار. ولم تكن الصلة واحدة دواما بين الشعر والنثر في الأخبار، فأحيانا يكون النثر شرحا للقصيدة، وأحيانا يكون الشعر مرتجلا على لسان أحد أبطال الخبر دون أن تربطه صلة بالخبر المنشور. وكان الشعر في كلتا الحالتين هو الذي يحافظ على تناقل الخبر وانتشاره فلما نسيت هذه الأشعار نسيت الروايات القديمة، وابتكرت أشعار جديدة للتنويه بمآثر القبيلة. وعلى الرغم من كل ذلك فإننا نستطيع أن نطمئن إليها بعض الاطمئنان إذ لا بد أنها تقوم على أساس واقعي، وإن اصطبغت بالتحيز والمغالاة.

الأنساب

وكانت كل قبيلة تحفظ نسبها، وتحفظه أبناءها، لتظل نقية بعيدة عن الشوائب

(١) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري: الأخبار الطوال ٣٥٢.

ولتستطيع أن تفخر به على القبائل الأخرى وسيكون لهذا الفرع من التاريخ مكانته بعد الإسلام .

وهكذا وجدت هذه القصص التاريخية المصبوغة بالخرافات والأساطير لدى القبائل، وكانت كل قبيلة تعنى بما تعتبره تاريخها، وترويه لأجيالها القادمة. ولكن عرب الشمال لم يصلوا بعد إلى تاريخ عام لهم، يشمل كل قبائلهم، إذ لم يكونوا قد أدركوا معنى الوطن، ولم تكن وُحْدَتهم الظروف في أمة واحدة .

تاريخ الأمم المجاورة

وعرف العرب تاريخ من جاورهم من الأمم، مثل الفرس والرومان، حتى ليقال إن النضر بن الحارث كان ينافس الرسول، ويُدل عليه بمعارفه عن الفرس. ولكن ذلك التاريخ كان قصصا وخرافات، لا تختلف عما عند عرب الجنوب والشمال في أغلب الظن .

ظهور الإسلام

لما جاء الإسلام انتشرت في المملكة الإسلامية في هذا العهد حركة تاريخية أخذت تتسع وتتنظم شيئا فشيئا، حتى خلفت لنا ثروة أدبية من أغنى ثروات الأدب العربي، وكانت أهم العوامل التي بعثت تلك الحركة هي:

(١) احتياج المسلمون في تفسير الآيات القرآنية إلى معرفة مناسباتها، أعنى سبب نزولها، والموضع الذي نزلت فيه، والحادثة التي تشير إليها، وما إلى ذلك مما يسمى ما حول النص. ومن الواضح أن معرفة هذه الأشياء تحتاج إلى بحث تاريخي في حوادث الإسلام، وهكذا كان التفسير من العوامل التي دعت إلى الكتابة التاريخية.

وقد أكثر القرآن أيضا من الإشارات إلى الأمم والقبائل والأنبياء في قصصه

عن الغابرين، فرغب علماء المسلمين في فهم هذه الإشارات وتوضيحها. وكان الإسلام قد أظل كثيرا من اليهود والنصارى، فلجأ اليهم المسلمون ليعرفوهم بتلك الإشارات، فأخذ هؤلاء يحدثونهم بقصص التوراة والإنجيل وشروحهما، فربطها المسلمون بالتفسير والتاريخ، واشتهرت هذه الأخبار في العلمين باسم "الإسرائيليات". ويتمثل لنا ذلك في كعب الأخبار (المتوفى عام ٣٤٤هـ) ووهب بن منبه (المتوفى عام ١١٠هـ) ولا تزال آثارهما في كتب التاريخ والتفسير التي وصلت إلينا.

(٢) كان الحديث أيضا من عوامل ظهور الكتابة التاريخية، إذ عنى المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن، ويستنبطوا منها أحكام الدين. وكان من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة النبي والصحابة، فجمعت فيما جمع، وكانت أساس كتب السيرة والمغازي فيما بعد.

(٣) شعر بعض الخلفاء أنهم محتاجون إلى نبراس يهتدون بهديه في سلوكهم إذ لم يكن لهم تراث عربي يقتدون به، كما أنهم رأوا ممالك أجنبية بهرتهم حضارتها، فأحبوا أن يعرفوا كيفية سياستها ونظامها. فقد كثرت المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حتى هدمت نظام الخلافة، وأقامت نظام الملك. وواجه العقل العربي الذي كان ساذجا في جاهليته، مشكلات حقيقة، منها ما يمس الدين والحضارة، ومنها ما يمس الحياة المادية والاجتماعية، فرأى ألا بد من الاستعانة بأخبار من سبقه من العقول ليستنير بها. روى المسعودي^(١) عن معاوية أنه كان بعد أن يفرغ من عمله "يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢ : ٥١ .

وملوكتها، وسياستها لرعيها، وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة. ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فبقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وُكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات".

(٤) كان الأجانب الذين أظلمهم الإسلام يفخرون على العرب بتاريخهم وحضارتهم، ويروون لهم أفعالهم المجيدة في ماضيهم فاضطر العرب إلى ابتكار تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف بإزاء هذا الفخر الأجنبي، ويظهرون لأبنائهم الأخرى مجدا ومكانة. وكان هذا من دواعي ظهور الكتابة التاريخية في الأمة اليونانية أيضا.

(٥) كان نظام الحكومة الإسلامية، وخاصة النظام المالي، من العوامل التي أدت إلى قيام الحركة التاريخية وانتشارها، لأن الضرائب على البلدان المختلفة تتباين حسب فتحها صلحا، أو عنوة، أو بعهد، وكانت المعاملة السياسية والاجتماعية نفسها تختلف في بعض البلدان تبعاً لما حدث في أثناء فتحها، فدعا كل ذلك، والنظام المالي خاصة، إلى بحث تاريخ الفتح، والاهتمام بهذا الفرع من التاريخ.

ودعا النظام المالي إلى نشوء فرع آخر من التاريخ، وذلك لأن نظام العطاء تغير منذ عهد عمر، فصار بحسب الأسبقية إلى الإسلام، أي أن الذين أسلموا في أول الدعوة يأخذون من العطاء أكثر مما يأخذ من أسلم بعدهم، ومن أسلم وهاجر يأخذ أكثر من المسلم بعد الهجرة، ومن أسلم وشهد بدرا يأخذ أكثر ممن لم يشهدا من الذين أسلموا بعدها، وهلم جرا. وكان هذا النظام سببا في البحث الدقيق في الدعوة الإسلامية وانتشارها. كما كان العطاء مرتبا أيضا حسب الأنساب، أي يبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب، ثم قرابة أبي بكر، ثم عمر.. وهكذا في الأنصار، وفي جميع المسلمين. ومن الواضح أن هذا النظام يدعو إلى البحث في

الأنساب، وظهر هذا النوع من التاريخ، وظهر كتب الطبقات أيضا .

(٦) ابتداء حركة التأليف فى العلوم الأخرى المعروفة بين العرب فى ذلك الوقت، حتى إننا نجد صحارا العبدى يؤلف كتابا فى الأمثال. ثم يتطور الأمر بمرور الزمن فتترجم بعض كتب الكيمياء فى عهد خالد بن يزيد بن معاوية، ويأمر عمر بن عبد العزيز بجميع الحديث، وترجمة كتاب فى الطب، ويقول بعض الرواة إن عروة بن الزبير أحرق بعض كتب ألفها فى الفقه فى يوم الحرة^(١). كل هذه الحركة التأليفية تدل على أن العقل العربى كان يعانى تمجولا خطيرا، وأنه أخذ فى التمدن السريع، والمشاركة فى التدوين والتأليف .

(٧) وآخر الأمر لا ننسى استمرار ما كان فى الجاهلية من عناية بالأنساب والأيام، ازدادت فى العهد الإسلامى، لأنها تغذى الشعراء فى ميدان الفخر والهجاء والنقائض التى شاعت فى هذا العصر، وكان لها المقام الأول فى شعر الفحول واتخذ هذا النوع من التاريخ لونا جديدا أيضا، هو العناية بغزوات الرسول. فما كان ذلك النوع من التاريخ إلا استمرارا لما عهد عند الجاهليين، إلا أن الإسلاميين قسدوا، والجاهليين حفظوا ورووا .

(١) ابن سعد: الطبقات ٥ : ١٣٣ .

الباب الثالث

الفصل الثانى

المؤرخون وكتبهم

الكتاب الأول

اجتمعت العوامل السابقة فأشعلت الروح التاريخى فى المسلمين، فأخذوا ينظرون فى هذا الفن، باحثين منقبين، وشرعوا يروون الأخبار التى يستطيعون الوصول إليها. ولكننا لا نلبث أن نرى هذه الأخبار الشفوية تدوّن فى عهد معاوية، فى رسائل صغيرة تسمى كتبا. وكان هذا تحولا خطيرا، يبشر بما سيتلوه من تقدم ورقى فى الدراسة التاريخية. ولا ندرى بالتحقيق ما أول كتاب ظهر فى التاريخ عند العرب. ولكن يتنازع الأسبقية زياد ابن أبيه (المتوفى عام ٥٣هـ) ودغفل النسابة البكرى (المتوفى عام ٦٠هـ) وعبد الله بن عباس (المتوفى عام ٦٨هـ) وعبيد ابن شرية الجرهمى (المتوفى عام ٧٠هـ تقريبا).

زياد ابن أبيه

أما زياد ابن أبيه فقد ألف كتابا فى مثالب العرب^(١). ولا يدهشنا ذلك كثيرا، إذ نعرف قصة نسب زياد، واستلحاق معاوية إياه، وكراهية المسلمين لذلك، بل

(١) ابن النديم: الفهرست ٨٩ .

سخرية بعض الشعراء من هذا الاستلحاق. ولذلك أراد أن يزود نفسه وأبناءه
بسلاح يخيف به المتعرضين له، ويشعرهم بعدم نقصه، بل بنقص الآخرين في هذه
الناحية. ولذلك أرجح أنه كتاب في الأنساب خاصة، وأنه ألفه بعد استلحاق معاوية
إياه، وتعبير الناس له. ويؤسفنا أن هذا الكتاب فقد، ولم يبق لنا منه شيء، وإن كنا
نرجح أن كتب الأنساب والشعوبيين المتأخرين أخذت عنه .

دغفل النسابة

أما كتاب دغفل النسابة فمجالس وأسمار، في بلاط الخليفة معاوية بن أبي
سفيان الذي كان محبا للمسامرة وأحاديث من مضي. ويسمى هذا الكتاب "التظافر
والتناصر". ويروى كتاب "التحفة البهية والطرفة الشهية"^(١) المجلس الثامن عشر
منه، فيقول: "ذكر في كتاب التظافر والتناصر، وهو مجالس دغفل النسابة البكري
عند معاوية، وأنه سأله في الثامن عشر من مجالسه، فقال: "من أبلغ العرب في
ثنائه؟" فقال دغفل: "ذاك النابغة الذبياني حين دخل على الحارث بن أبي شمر
الغساني، يطلب إليه في أسارى قومه، فقال: "ألا أنعم صباحا أيها الملك المبارك،
السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك، وولدى فداؤك، والعرب وقاؤك، والعجم حماؤك،
والحكماء وزراؤك، والعلماء جلساؤك، والمقاول إخوانك، والعقل شعارك، والحلم
دثارك، والسكينة مهادك، والوقار غشاؤك، والبر وسادك، والصدق رداؤك، واليمن
حداؤك، والسخاء ظهارتك، والحياء بطانتك، والعلاء غايتك، وأكرم الأحياء
أحياؤك، وأشرف الأجداد أجدادك، وخير الآباء آباؤك، وأفضل الأعمام أعمامك،
وأسرى الأحوال أخوالك، وأعف النساء حلاتك .. " .

(١) ص ٣٨ .

ونحن إذا صدقنا هذا القول ولم نذهب مع ابن النديم الذى ينص على أنه لم يصنف شيئاً^(١)، لا نستطيع أن نأخذ هذا المجلس حقيقة لا شك فيها. فإننا نرى الكلام ملازماً للسجع، وفيه أشياء متنافية لذلك العصر، ولم نعتد العثور عليها فيه. كما نرى فيه نزعة إسلامية تسير مع قول القائلين بالتبشير بمحمد قبل ظهوره. ونحن إذا لم نشك فى هذا التكهن، فإننا نشك فى تكهن النابغة بإسلام الحارث. وإنه لم يسلم فعلاً، وما أظن أنه كان يعد الإسلام فخراً له، فى عصره ذلك. ولكن هذا المجلس على كل حال، يبين لنا أن كتاب "التظافر والتناصر، إن كان وجد على الإطلاق، كان يعالج التاريخ الأدبى، ويبين مقدار عنايتهم بالسمر، وأثر هذا السمر فى تجويد العبارة وتحسينها .

ابن عباس

أما ابن عباس فقد نسب إليه بعض الرواة^(٢) مدونات استقى منها من بعده من المؤرخين. ولا يذكر أن ابن عباس جعل من هذه المدونات كتاباً خاصاً أعطاه اسماً معيناً. وهى فى غالب الظن بعض مجالسه التى كان يفسر فيها القرآن، ويتعرض لمختلف المعارف العربية، دونها أحد تلاميذه أو أبنائه. ونحن لا نستطيع أن نتكلم عنها أكثر من ذلك، لأن ابن عباس من الذين حمل عليهم كثير من الأخبار فى كل فن .

عبيد بن شريفة

أنتجت لنا مجالس معاوية الكتاب الرابع أيضاً، إذ أشار عمرو بن العاص على معاوية باستدعاء عبيد، وسؤاله عن الأخبار المتقدمة، لما رآه فيه من حب المسامرة

(١) ابن النديم: الفهرست ٨٩ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٥ : ٢١٦ .

والأخبار السالفة فأحضره واتخذها سميراً له، وأمر كتابه بتدوين أحاديثه ونسبتها إليه. فدونت تحت عنوان "كتاب الملوك وأخبار الماضين". كما يقول صاحب الفهرست^(١) وقد طبع الجزء الذى وجد من الكتاب فى حيدر آباد باسم "أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها" ولا يزعجنا هذا الاختلاف كثيراً، لأن عبيداً نفسه لم يدونه، ولا عنوانه كتاب معاوية، بل نسبوه إليه دون عنوانه، كما يبدو. ومن ثم اختلف النساخ المختلفون فى عنوانه. ولا يبعد أن يكون لهذا الاختلاف أسباب أخرى غابت عنا. ويؤكد لنا العنوان نفسه أنه من وضع أناس غير عبيد، إذ تقول النسخة المطبوعة: "أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال، والحمد لله على كل حال". فتصرّحه باسم عبيد، وقوله "على الوفاء والكمال"، يشعان بأن هذه العبارة كلها من كتابة شخص آخر غير المؤلف .

وحين نقلب صفحة العنوان نرى الكتاب يبدأ بالبسملة والحمد، ثم سند روايته: "حدثنا عبيد بن شرية الجرهمى، عن البرقى يرفع الحديث أن معاوية .. " وإذن فالكتاب من رواية البرقى، وهو تلميذ لابن هشام. وإذن فالمستر كرنكو J, Krenkow له دعامة التى يتكى عليها، حين يستنتج من ذلك أن جامع الكتاب هو ابن هشام، وأن القائل "عن البرقى" أحد تلامذته. ولسنا نستبعد ذلك، ولكن نحب أن نتصفح الكتاب قبل الإدلاء برأينا .

يقدم الكاتب بين يدي الكتاب مقدمة، يشرح فيها ولاية معاوية وخلافته وحبه للسمر، وإشارة عمرو باستدعاء عبيد، وكبر سنه، وعلمه، وسمره، وسيطرته على قلب معاوية، وأمر الأخير بتدوين أقواله .

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٩ .

ويتناول عبيد في هذا الكتاب تاريخ موطنه اليمن، بادئا باجتماع البشر فى بابل، ثم تفرقهم شيعا، وخروج بعض بنى سام إلى اليمن. ثم يأخذ فى سرد تاريخ هؤلاء اليمنيين، معتنيا بمن أرسل إليهم من أنبياء، وإن كان همه كله موجها للوكهم وغزواتهم فى بطون الأرض .

وينتهى الجزء الذى وصل إلينا بمقتل طسم وما قيل فيها من شعر. ويصرح الناسخ بأن الكتاب قد تم، ولكنه يعنى أنه كتب النسخة التى أمامه كلها فحسب، إذ الكتاب لم يتم، ولم تكمل أخبار عبيد، ولم تكمل أخبار طسم نفسها. ولعل مما يؤيدنا فى ذلك، أننا كنا ننتظر من كتبه معاوية إشارة إلى ما حدث لعبيد فى نهاية مجالس سمره .

وأول ما يلاحظ على الكتاب أنه ليس كتابا تاريخيا بالمعنى المصطلح عليه، وإنما هو مجالس سمر تاريخية مدونة. ولذلك يغلب عليه ما يغلب على تلك المجالس من خصائص. فنرى الأسلوب الحوارى يشيع فيه^(١):

"قال معاوية: وما كان اللسان يومئذ؟

قال عبيد: سريانى أوله وآخره، وهو لسان أبينا آدم عليه السلام ونوح وإدريس.

قال معاوية: كيف اختصت أرض بابل باجتماع الناس فيها؟

قال عبيد: هى سره الأرض فى فضلها، وأراد الله ذلك بها .

ولكن الأمر الجميل الذى نحسبه لمعاوية أو لكاتبه، أنه كان لا يتدخل بالأسئلة فى بعض الفصول، ولذلك نراها تجرى دون أية مقاطعة، أو بمقاطعة لا تكاد تذكر.

(١) ص ٣١٦ .

ومما يتصل بهذا ويحسب للكاتب، أنه لم يفصل بين المجالس المختلفة، فاكسب الكتاب ميزة حسنة، وهى الاتساق وعدم التقطع، كما نرى فى مجالس قصص ألف ليلة وليلة مثلاً. ولكننا خسرنا ميزة أخرى، هى عدم معرفتنا القدر الذى كان يقصه عبيد على معاوية، والمدة التى قضاها الاثنان فى سمرهما. ومما يتصل بهذا أيضاً، أننا لا نرى أحداً من جلساء معاوية يظهر فى الكتاب، سائلاً أو مجيباً إلا مرتين فى صدر الكتاب^(١).

ونحن نذكر - ولا شك - تلك المجالس الأدبية التى كانت تعقد فى بلاد الأمويين، وخاصة بلاط معاوية وعبد الملك، وكانت من الأسباب التى طورت الأدب والنقد الأدبى. ونذكر أيضاً عناية هذه المجالس بالشعر، إذا كنا نذكر ذلك، فإننا لن ندهش حين نرى عبيداً يُعنى عناية شديدة بالشعر. ونرى معاوية - على الرغم من هذه العناية الشديدة - يلمس منه الأشعار، فيقول^(٢): "وسألتك ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته"، ويقول^(٣): "فحدثنى عن لقمان بن عاد صاحب النسور .. وما قيل فى ذلك من الشعر"، ويقول بعد أن يسرد عبيد بعض الأخبار^(٤): "فهل قيل فى ذلك شعر؟" وكان معاوية يطلب منه الشعر للمسامرة، ولسبب آخر غيرها، إذ كان يعتبر الشعر الدليل على صدق الخبر، يقول^(٥): "وأبيك، لقد أتيت وذكرت عجباً من حديثك عن عاد، وقد علمت أن الشعر ديوان العرب، والدليل على أحاديثها وأفعالها، والحاكم بينهم فى الجاهلية وقد

(١) ٣١٣، ٣١٤ .

(٢) ٣١٤ .

(٣) ٣٥٦ .

(٤) ٤٠٨، ٤٠٩، ٤٢٣، وغيرها .

(٥) ٣٥٢ .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم آله وسلم يقول: "إن من الشعر لحكما".
ويقول^(١): "سألتك ألا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر، ولو ثلاثة أبيات".
وكثيرا ما كان يقول لعبيد بعد أن يذكر ما طلب من الشعر^(٢): "لقد جئت بالبرهان
في حديثك".

والشعر الذى جاء به عبید يمكن تقسيمه إلى أقسام ثلاثة: قسم ضعيف سخيف
ركيك، ليس من الشعر الحق فى شىء، وهو موضوع على من نسب إليهم، وهو
الغالب على الكتاب. ومن أمثله ما ينسب لطسم بن لاوذ بن إرم، حين انتقل من
بابل إلى بلاد العرب^(٣):

ووالدى لاوذ بن رام	إني أنا طسم شبيه سام
وإخوتى الرحيل باعتزام	لما رأيت من بنى أعمامى
كرهت بعد إخوتى مقامى	قد اقتدوا بيعرب الهمام

وقسم آخر أجود من السابق، ولكنه من الموضوعات أيضا، ومن أمثله ما
ينسب لتبع^(٤):

وما فعلت قومي بقيس أفاعلا	سيذكر قومي بعد موتى وقائعى
وكم من نساء قد تركنا ثواكلا	فكم من ملوك قد قتلنا رجالهم
يبيت يراعى غله والسلاسل	وكم من أسير ظل فى القيد ساقه
ويدخل باب العز من كان جاهلا	سيذكر قومي نجدتى ومكارمى
وصيرته للعالمين معاقلا	بنيت لهم مجدا مع النجم سمكه

(١) ٣١٨ .

(٢) ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، وغيرها .

(٣) ٣١٩ .

(٤) ٤٤٠ .

أما القسم الثالث فأشعار تنسب إلى شعراء معروفين، مثل العباس بن مرداس، وأعشى بنى وائل، وحسان بن ثابت، وأمّية بن أبى الصلت، وامرئ القيس، وعبيد ابن الأبرص. والنابعة الذبياني^(١). وقد وجدت هذه الأشعار فى دواوين أصحابها، وإن كانت قد تختلف فى بعض الألفاظ أو العبارات .

وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل فى عداد عبيد، إذ نراه يعنى فى بعض الأحيان بإيراد جملة من الأشعار بعد سرده الأخبار التى يعالجها، كما فعل بعد تناوله أخبار عاد وثمود. وكان عبيد يشعر بأن هذا هو المنهج الأكمل. قال له معاوية ذات مرة^(٢). "أقبل فى ذلك شعر؟" فى أثناء كلامه، فقال: "نعم يا معاوية، قد قالت العرب فى ذلك شعر، فإن أحببت أنشدتكها، وإن شئت فى آخر الحديث، فإنه أصلح لحديثك" فقال معاوية: "أسمعنيها فى آخر الحديث فهو أحسن" .

ومن أجل السمر أيضا عنى عبيد ببعض القطع النثرية وجودها وهذبها، حتى لتلفت النظر من بين باقى الأخبار. وصارت شبيهة بما يسمى فى الأدب الغربى "القطع الأرجوانية"، يعنون بذلك الفقرات التى تلقى العناية التامة، على حين يهمل ما حولها من كلام. وتظهر هذه الفقرات أوضح ظهورها فى بعض الأحاديث، التى ينسبها عبيد لأبطال تاريخه، وفى بعض أوصافه للأجناس. فها هى ذى جارية من عاد تقول حين رأت ريح العقوبة^(٣): "الويل لعاد، التى طغت فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد. أرى رياحا كأمثال الجبال، لها لجم بأيدى رجال، كأن فى وجوههم شهب النار" . وهذا رجل وامرأته يتخاصمان أمام عمليق فى ابنهما، فتقول^(٤): "إنى امرأة

(١) ٢٥٣، ٢٥٤، ٣٦٧، ٣٩٣، ٣٩٥، ٤٠٥ .

(٢) ٣٣٥ .

(٣) ٣٣٧ .

(٤) ٤٨٣ .

حملته تسعا، وأرضعته سبعا، ولم أر منه نفعا، حتى إذا تمت أوصاله، واستوى وصاله، أراد أن يأخذه كرها، ويتركني ورها". فيقول زوجها: "أخذت المهر كاملا، ولم أصب منها طائلا، إلا وليدا جاهلا، فافعل ما كنت فاعلا".

والكاتب فى هذه الفقرات لا يعرف من التجويد والزخرف غير السجع، بل إنه لسجع ضعيف غير جميل فى الغالب. ولا أدرى أذلك من التحريف الذى أصاب الكتاب أم من الكاتب نفسه. أما الأسلوب الغالب على الكتاب فبسيط عادى صريح، عاطل عن كل الحلى.

وظهرت فى الكتاب خاصة أخرى تظهر فى المسامرات، تلك هى الاستطراد. فكثيرا ما يذكر عبيد عرضا فى أثناء حديثه بعض الأشياء أو الأشخاص، فيسأله معاوية عنهم، فيضطر إلى الخروج إليهم، ثم يرجع إلى السياق الأسمى. وكان معاوية يشير عليه أحيانا بالرجوع إلى السياق قائلا: خذ فى حديثك^(١) أو "خذ فى حديثك الأول"^(٢) أو "دع هذا وخذ فى حديثك الأول"^(٣). وكان معاوية يستعجل أحيانا بعض الحوادث، فيشير عليه عبيد بالتمهل^(٤).

وكانت مجالس معاوية هذه استمرارا لمجالس السمر الجاهلية، ولذلك نرى موضوعات عبيد تغلب عليها الصبغة التى كانت تغلب على تلك المجالس. فغلب على أخباره الخيال البدائى المبالغ، بل المفرق فى المبالغة، وخرجت أخباره قصصا وخرافات وأساطير، عن ملوك اليمن، لا تختلف فى شىء عما كان فى الجاهلية، فى

(١) ٣٣٧، ٣٦٥، ٤٠٠، وغيرها.

(٢) ٤٠٨.

(٣) ٤٥١.

(٤) ٤١٣.

غالب الظن. بل يمكننا أن نعتبر كتابه تدوينا للقصص التاريخية التي كانت شائعة في الجاهلية، وخاصة في جنوب بلاد العرب. وهي قصص تاريخية، لا أخبار تاريخية، فلا نستطيع أن نخرج منها بأخبار تاريخية علمية، وإنما نظفر بأدب شعبي خيالي. ومما يكمل صورتها، ويقرب بينها وبين الجاهلية، تلك الأنساب التي تشيع فيها، حتى قلما يظهر شخص، دون أن تورده سلسلة نسبه، حقا كانت أو باطلة. وإذن نحن لا نبعد كثيرا عن الصواب، إذا عدنا كتاب عبيد مدونة تحوى الأخبار التاريخية، معالجة كما كان يعالجها الجاهليون، ولا يختلف عنهم إلا في اعتمادها على القرآن في قصص الأنبياء والشعوب التي تعرض لها القرآن. ولعل عبيدا كان يضيق بالأخبار التي تناوها القرآن، لأنه لا يستطيع أن يتصرف فيها، أو يترك لخياله الحرية في تناوها، أو يرويه كما وصلته عن الجاهلية، حتى ليقول لمعاوية حين سأله عن بلقيس والهدهد^(١): "قول الله أصدق، وقد أعلمتك لست بمحدث بشيء ليس في القرآن، ولست بواصف خيرا بلغنى بعد ما قال الله تبارك وتعالى" واعتمد عبيد في القصص القرآنية على ابن عباس كثيرا، فكان يقول لمعاوية: "سمعت ابن عمك"^(٢)، قاصدا عبد الله، وكان يصرح باسمه أحيانا^(٣).

وكتاب عبيد ذو أهمية كبيرة، لا في تطور حركة التأليف التاريخي فحسب، وإنما لأنه يكشف لنا النقاب عن الثقافات التي كان يعرفها العرب في الصدر الأول من الإسلام، وربما التي كان يعرفها العرب في الجاهلية، وخاصة في اليمن، وأوضح ما تجده الثقافة الإسرائيلية التي تظهر بارزة في الكتاب كله. يظهر هذا في الأخبار

(١) ٤٢٤ .

(٢) ٣٢٧ .

(٣) ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٥ ، ٤١٥ ، وغيرها .

والأشخاص والأنساب والأسماء وغيرها، بل نراه أحيانا يذكر اسم أحد الأشخاص ثم يورد اسمه فى العبرية، فأبو إبراهيم آزر واسمه تاريخ^(١)، وعابر هو هود^(٢).

هذا هو كتاب "أخبار عبيد بن شرية"؟، ملحمة من أجمل الملاحم العربية النثرية التى تتناول تاريخ العرب الجنوبيين، يلعب فيها الخيال دورا كبيرا، ويحليها الشعر والقطع النثرية الأرجوانية، والقصص الإسرائيلية المأخوذة من التوراة وأخبار الإسرائيليين، ملحمة تشبه الملاحم التى ستظهر فى العصور الإسلامية المتأخرة، من أمثال ملاحم عنزة والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهممة، ولكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها، وفصاحته العربية. ولعلنا لا نشط كثيرا حين نقارنها بشاهنامة الفردوسى الشعرية، التى تتناول تاريخ الفرس منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى. ويؤسفنا كل الأسف ضياع الجزء الأخير منها .

وفى ختام الكلام عن أخبار عبيد نذكر أمرا كبيرا الأهمية، ذلك هو دخول بعض العناصر العربية فيه. فهذا خبر يصدر بالإسناد التالى^(٣): وذكر بعض أصحاب السير عن عبيد بن شرية بأمر هود (?)، قال أخبرنى البحترى عن محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن وائلة الكنانى عن على بن أبى طالب صلوات الله عليه .. " وليس هذا بإسناد الكتاب، والخبر ليس منه، حتى يقال بعد "رجع الحديث إلى عبيد بن شرية ومعاوية" ويعلق الناشر على هذا الخبر قائلا: "لعل هذه العبارة كانت حاشية، فأدججها بعض النساخ فى الأصل، ومع ذلك فهذا عبيد بن شرية ليس له دخل فى هذه القصة" ولكنه ليس

(١) ٣١٥ .

(٢) ٣١٣، ٣١٥ .

(٣) ٣٥٠ .

خبراً واحداً. وإنما هي أخبار كثيرة من رواية محمد بن إسحاق وغيره، مثل وهب بن منبه^(١). ونحن لا نرى أن هذه الأخبار حواش، وأدخلها النساخ في الكتاب، فإننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن الخبر الآتي^(٢): "ذكر عبيد أن ثمر يرعش بنى نصبا في السغد وكتب عليه "من بلغ هذا المكان فهو مثلى، ومن جاوزه فهو أفضل منى"، ثم قال عبيد: "وأنا أرجو أن يظهر الله أمير المؤمنين بذلك الموضع من الأرض، فيعلم أنى قد أدت إليه من حديثي علما" قال معاوية: "اللهم أرنا تصديق قول ابن شرية، فإنه يذكر عجا، وإن شاء ربي فعل ذلك" فبلغني عن الشعبي أنه ذكر عن رجل من خيوان همدان يقال له عبد الله، قال: "بينما نحن بالسغد مع قتيبة بن مسلم الباهلي، وافتتح سمرقند، إذ نظر إلى حجر ملصق على الباب فيه خطوط كأنها بالعربية وليست بها.. فقرأه على مثل ما ذكره عبيد لمعاوية، ورواه عنه من رواه". فهذا الخبر ليس من رواية عبيد، ولا ندرى منه من الذي يرويه عن الشعبي ولكننا نجد الخبر نفسه في كتاب التيجان لوهب بن منبه مروياً عن ابن هشام^(٣): "قال أبو محمد (بن هشام) حدثني عامر بن جرهم الأنصاري، عن مكحول، عن الشعبي، قال: "حدثني رجل من خيوان همدان.. الخ" إذن فهذا الخبر ليس من رواية عبيد، بل حدث بعد موته، وهو من صلب الكتاب، ولا يظهر عليه أنه مقحم في هذا الموضوع. وكذلك نرى بعض الأسماء والأنساب والأشعار تختلف روايتها باختلاف المواضع، حتى أكثر الناشر من الإشارة إلى ذلك^(٤)، مما يجعلنا نظن أن هذه الاختلافات ترجع إل رواية مختلفين، لا عبيد وحده.

(١) ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ .

(٢) ٤٢٩ .

(٣) وهب بن منبه: التيجان ٢٣٧ .

(٤) ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، وغيرها .

وهناك أخبار أخرى منسوبة لعبيد، ولكننا لا نستطيع أن نصدق أنه يتفوه بها أمام معاوية. يقول^(١): "وبلغنى أن أولاد بربر بن كنعان بن كوش بن حام الذين يزحفون لرجل من ولد فاطمة حتى يردوه إلى مكة، وهو صاحب العدل فى آخر الزمان، وأصحابه يقال لهم: الغرباء". قال له معاوية: "قلت الصواب إن شاء الله، وإن كلامك طيب وشفاء لما فى الصدور". ولا شك أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عبيد أمام معاوية. أما تعليق معاوية على كلامه فلا يحتاج إلى إنكار من أحد، فإنه أوهى مما يحتاج إلى الإنكار .

وينسب إلى عبيد أيضا أنه قال^(٢): "وقد ذكرناها فى كتابنا هذا". وهذه العبارة كبيرة الأهمية، لأنها تدل على أن القائل كان يتصور هذه الأخبار كتابا لا مجالس سمر، مما قد نستنتج منه أن الكتاب لم يكن مجالس حقيقة، وإنما مؤلف على نهج المجالس. لو أضفنا كل هذا إلى ما لاحظناه على العنوان والمقدمة، لخرجنا بأن الكتاب من جمع ابن هشام، وأنه عمل فيه ما عمل فى سيرة ابن اسحاق، أو أنه دخلته عناصر غريبة كثيرة، بعضها مصرح بنسبتها، وبعضها غير مصرح .

ولكن الأستاذ كرنكو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيصرح بأن عبيد بن شرية شخص خيالى لا وجود له، وأن الكتاب من تأليف ابن هشام أو البرقى أو محمد بن إسحاق، مكملا به المؤلف ما ينقص كتاب وهب بن منبه من أخبار. ويستدل على ذلك بتلك الأخبار التى سميناها غريبة عن الكتاب، وبغيرها من الأدلة. ومنها عدم ورود ذكر لعبيد فى كتب الرجال. ونحن لا نستطيع أن نذهب معه إلى هذا الحد،

(١) ٣٢٣ .

(٢) ٣٦٧ .

كما لا نستطيع أن نرفض رأيه يقينا. فعدم ورود اسم عبيد في كتب المحدثين دليل على أنه لم يرو الحديث، وليس بدليل على عدم وجوده. ولعل هذا الرأي غريب لأنه كان من المنتظر من رجل مثل عبيد، عنى بالتاريخ الجاهلي، أن يعنى كذلك بالتاريخ الإسلامى، فيؤدى ذلك بالمحدثين إلى الكلام عنه، ولو فى باب الضعفاء من المحدثين. كما أننا لو قلبنا صفحات كتاب المعمرين^(١) نجد القصة التى يروون أنها جرت بينه وبين معاوية، تروى بأشكال مختلفة، ولكن متقاربة، على أنها حدثت لأفراد آخرين غيره من المعمرين. فهذه الدلائل تغرينا على السير إلى جانب الأستاذ كرنكو. ولكن الأمر اليقيني الذى لا يخامرنا فيه شك، أن الكتاب، بهذه الصورة الراهنة، ليس من تأليف عبيد بن شرية .

وهذه فقرة من الكتاب تبين لنا أسلوب عبيد، قال:^(٢)

"قال معاوية: فمن ملك بعده (بعد ذى القرنين)؟

قال: "ملك بعده ملكى كرب بن أسعد بن تبع الأكبر بعد أبيه. وكان رجلا ضعيفا، لم يكن يغزو أحدا حتى مات ولم يبعث جيشا. فأما أهل اليمن فيزعمون أنه كان يتحرج من الدماء. وأما أهل الرأى والمعرفة والبصر بالأمر، فإنهم يقولون لم يكن ذلك منه إلا عن قلة التجربة وقلة الأنفة وصغر الهمة، لأنه لم يحدث دعوة فى ملكه، ولم يعبر عن دين ولا طريقة أحد ممن قبله .

قال معاوية : "وما تعبير حال الملك؟"

قال عبيد: "يا أمير المؤمنين. لم يكن يغير من شىء يفعله آباؤه، ولا أزال شيئا

(١) أبو حاتم السجستاني: كتاب المعمرين ٧ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ٨٧ .

(٢) ٤٣٩ .

من جبروت الملك، ولا أحدث تواضعا ولا قربا من الناس، ولا زال عن تجبره
وعتوه، وأشد أمره باليمن لا يجاوز أرض اليمن إلى غيرها، "بلد عرب أو عجم".
قال معاوية: "فكيف ملكهم يا عبيد، وكيف استقام لهم أمرهم على تلك الحال؟".
قال عبيد: "لأنهم أحبوا الدعة والسكون، وكانوا قد ملوا الغزو والحروب، وكثرة
المسير في البلدان".

قال معاوية: "فكم ملكهم على هذا الحال؟"

قال: "ملكهم خمسا وثمانين سنة".

قال معاوية: "فمن ملك بعده؟"

قال عبيد: "ملك ابنه تبع أسعد بن ملكيكر".

هذه هي الكتب التي ترجّح بينها الرأي في اختيار الأول في الظهور. ثم
ظهرت كتب السير والمغازي التي تتناول حياة الرسول بالدرس. وقد رأينا أن من
عوامل ظهور هذه الدراسة جمع الأحاديث، سواء ما تناول الناحية الفقهية، وما
تناول الناحية التاريخية من حياته، بدافع من الرغبة الدينية. وكذلك كان العرب
ينظرون إلى النبي نظرتهم إلى بطل من الأبطال وخدمهم وهياهم لفتح الأمم، فعنوا
بتاريخه كما عنوا بتاريخ أبطالهم في الجاهلية. ولا ننسى مع ذلك أنهم أرادوا أن
يضعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بإزاء موسى وعيسى اللذين فخر بهما أهل
الكتاب وألقوا عنهما الكتب، وأحاطوهما بالقصص الصحيحة وغير الصحيحة. كل
أولئك وغيره اجتمع فأثر كتب المغازي والسير، التي تعتبر بداية التأليف العلمي في
التاريخ لأنها كانت تستند إلى الأحاديث التي كان يراعى فيها الدقة إلى أبعد غاية،
فأسبغت الأحاديث دقتها على التاريخ. ولذلك نشعر للوهلة الأولى أننا نستند إلى

أساس علمى وثيق، حتى لو سلمنا فى نفس الوقت بشىء من الشك فى الأحاديث التى تناولت العهد المكى خاصة من حياة الرسول. وقد ترك هذا الارتباط بالأحاديث أثرا لا يمحو فى أسلوب التأليف التاريخى، إذ كثرت مواطن التشابه بين النوعين. وكانت المدينة موطن هذه الدراسة، فلم يختص أحد بالتأليف فى المغازى والسير قبل القرن الثانى من الهجرة خارجها .

أبان بن عثمان

أول من اشتهر بالتأليف فى المغازى أبان بن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥هـ أو قبله. وكان أبان من علماء الحديث والفقهاء أيضا. يقول ابن سعد فى أثناء حديثه عن المغيرة بن عبد الرحمن^(١): ". وكان ثقة قليل الحديث، إلا مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذها من أبان بن عثمان، فكان كثيرا ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعلمها" وكان المغيرة هذا فى جيش مسلمة بن عبد الملك الذى توجه لحرب الروم عام ٩٦هـ، واسترجعه عمر بن عبد العزيز فى عام ٩٩هـ^(٢). ولذلك لا يمكن المغيرة أن يأخذ المغازى إلا عن أبان بن الخليفة عثمان، وليس عن أبان بن عثمان البجلي الشيعى، الذى عاش بعد ذلك التاريخ بجيل أو اثنين^(٣).

ويبدو أن هذه المغازى التى رواها المغيرة عن أبان ليست كتابا بالمعنى الدقيق، وإنما هى مجموعة من المواد المتعلقة بحياة النبى. ويظهر أن هذه الأخبار ضاعت، ولم يأخذ عنها أحد من كتاب السير المتأخرين. فلم يأخذ عنه ابن إسحاق ولا ابن سعد (الجزء المخصص للسير من طبقاته). أما خير أسر العباس وبعض بنى هاشم

(١) ابن سعد: الطبقات ٥ : ١٥٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٣٠٥ ، ١٣٤٦ .

(٣) هو روفنس: المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ص ١٩ - ٢٦ .

الذى يرويه ابن سعد^(١) عن أبان، عن معاوية بن عمار، عن جعفر بن محمد (المتوفى عام ١٤٨ هـ) فإنه يتضح من الإسناد أنه لا يقصد أباننا هذا، وإنما يقصد أبانا البجليّ الشيعي .

ولكن ابن سعد يذكر أبان بن الخليفة عثمان خارج السيرة، حين يروى الكلمات الأخيرة التي تفوه بها عمر بن الخطاب عند وفاته، وقد سمعها أبان من والده^(٢). ويذكره ابن قتيبة أيضا في الشعر والشعراء^(٣)، على أنه راوى الخبر القائل بأن معاوية اشترى البردة، التي أعطاها النبي لكعب بن زهير، مكافأة له عن قصيدته: بانث سعاد .. وأن الحكام كانوا يلبسونها في الأعياد. وفيما عدا ذلك لا يوجد لأبان ذكر في كتب التاريخ، وإن كانت كتب الحديث تكثر من ذكره .

عروة بن الزبير

عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ من معاصري أبان، الذين ألفوا في التاريخ، ولم يقتصر عروة على الروايات الشفوية، بل دون بعض الأحداث التي طلبها منه عبد الملك بن مروان، أو ابن أبي هنيذة، الذي كان في بلاط الوليد، في رسائل بعثها إليهما. وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل في صفحات ابن إسحاق، والواقدي، والطبري .

تتناول رسالة عروة الأولى إلى عبد الملك هجرة الحبشة^(٤). وتتناول الثانية

(١) ابن سعد: الطبقات ٤ : ٢٩ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣ : ٢٦٢ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٠٦ .

(٤) نفس المرجع ١ : ١١٨٠ .

موقعة بدر^(١)، والثالثة تناول فتح مكة^(٢). وتناول عروة أيضا وفاة خديجة، وهجرة النبي والصحابة إلى المدينة، وخبر زواج النبي من أخت الأشعث بن قيس. وقد روى هذه الأخبار عنه ابنه هشام. أما رسالته لابن أبي هنيذة فرواها الزهرى، وتناول المناسبة التاريخية للآية العاشرة من السورة الستين^(٣).

وتمثل كتابات عروة المشار إليها أقدم المدونات التى وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصة فى حياة النبي، كما تمثل أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية. ولا تذكر المراجع القديمة أى كتاب ألفه عروة عن المغازى، ولكن حاجى خليفة يقول إنه أول من صنف فى المغازى^(٤). ولم يعن عروة بجمع الأخبار عن جميع فترات حياة النبي فحسب، بل عنى أيضا بحوادث الخلفاء الأولين أيضا، فنراه يعالج وقعتى القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام^(٥). ويعنى أيضا بتاريخ الزبيريين، ولذلك نرى أكثر أخبار الحزب الزبيرى وحروبه وفتنه مروية عنه فى الكتب التاريخية مثل الطبرى وحلية الأولياء أو الكتب الأدبية مثل الأغانى^(٦).

وتمتاز كتابات عروة بأنها لا تهمل الإسناد إهمالا تاما، كما أنها لا تعنى به عناية متشددة. فهو أحيانا لا يذكره وأحيانا يذكره^(٧). ولذلك يكون من الخطأ أن نتهم عروة بتهمة إغفال الأسانيد، وإنما نقول إن الإسناد أصبح عادة فى ذلك

(١) نفس المرجع ١٢٨٤ .

(٢) الطبرى: تاريخ ١ : ١٦٣٤ .

(٣) ابن هشام: السيرة ٣ : ٣٤٠ . والطبرى: التفسير ٨ : ٤٢ .

(٤) كشف الظنون ٥ : ٦٤٦ .

(٥) الطبرى: تاريخ ١ : ١١٨٥ ، ١١٩٩ ، ١٢٤٢ وغيرها .

(٦) انظر فهرست الطبرى والأغانى والفصل المخصص لعبد الله بن الزبير فى الحلية .

(٧) الطبرى : تاريخ ١ : ١١٤٠ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٥٤ ، ١١٦٧ وغيرها .

الوقت، ولكنه لم يصبح بعد ضربة لازب على كل مؤلف في التاريخ. وتمتاز كتاباته أيضا بأنها تعنى بالإشارات القرآنية إلى الحوادث الإسلامية، فتحاول شرحها، كما أشرنا من قبل. بل إنه يتجاوز ذلك إلى استعمال الألفاظ القرآنية في كتاباته، لتشير إلى مدلولها القرآني، مثل استعماله لكلمة "الفتنة" في حديثه عن الهجرتين الحبشية والمدنية، متبعا الآية الأربعين من السورة الثامنة. ولا يعنى عروة بالأحاديث وحدها، وإنما يعنى أيضا بالوثائق المكتوبة، مثل رسالة النبي إلى أهل هجر، وإلى زرعة بن ذى يزن، وإلى عبد الله بن جحش^(١). وعلى الرغم من فقه عروة ودينه لم يكن خصما للشعر، ينثره في الحوادث على لسان المشتركين فيها، مثله في ذلك مثل النموذج المعروف عن التاريخ الجاهلي. ولكن يبدو أن هذا الدين كان له أثره في ناحية أخرى، تلك هو خوفه من إبداء رأيه في الحوادث، وإنما يتبع المأثور والحديث، كما يقول ابنه هشام^(٢). ولعل ذلك هو الذى جعله يروى في تاريخه بعض الأخبار التى لا نستطيع تصديقها بسهولة، وربما كانت هذه الأخبار من أثر أجنبي، يهودى أو حبشى أو نصرانى.

وهذه إحدى رسائل عروة التى أرسلها إلى عبد الملك بن مروان^(٣) :

"ثنا أبان العطار قال، ثنا هشام بن عروة، عن عروة، أنه كتب إلى عبد الملك".

"أما بعد؛

"فإنك كتبت إلى فى أبى سفيان ومخرجه، تسألنى كيف كان شأنه؟ كان من

شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام فى قريب من سبعين راكبا من قبائل

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ٦٩ ، ٧٩ . والطبرى : تاريخ : ١ : ١٢٧٣ .

(٢) ابن حجر: تهذيب ٧ : ١٨٣ .

(٣) الطبرى: تاريخ : ١ : ١٢٨٤ .

قريش كلها، كانوا تجارا بالشام، فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارتهم. فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك، فقتلت قتلى وقتل ابن الحضرمي في ناس بنخلة، وأسرت أسارى من قريش فيهم بعض بنى المغيرة، وفيهم ابن كيسان مولاهم، أصابهم عبد الله بن جحش وواقد حليف بنى عدى بن كعب في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعثهم مع عبد الله بن جحش. وكانت تلك الواقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش، وأول ما أصاب بعضهم بعضا من الحرب، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشام.

ثم إن أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومن معه من ركب قريش مقبلين من الشام، فسلكوا طريق الساحل. فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب أصحابه، وحدثهم بما معهم من الأموال، وبقلة عددهم فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه، لا يرونها إلا غنيمة لهم، لا يظنون أن يكون كبير قتال إذا لقوهم. وهى التى أنزل الله عز وجل فيها "وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم" فلما سمع أبو سفيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معترضون له، بعث إلى قريش أن محمدا وأصحابه معترضون لكم، فأجبروا تجارتكم. فلما أتى قريشا الخبر، وفى غير أبي سفيان من بطون كعب بن لؤى كلها، نفر لها أهل مكة. وهى نفرة بنى كعب بن لؤى، ليس فيها من بنى عامر أحد إلا ما كان من بنى مالك ابن حسل. ولم يسمع بنفرة قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه، حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم بدرا. وكان طريق ركب قريش من أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام، فخفض أبو سفيان عن بدر، ولزم طريق الساحل، وخاف الرصد على بدر، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى عرس قريبا من بدر. وبعث

النبى صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام فى عصابة من أصحابه إلى ماء بدر،
وليسوا يحسبون أن قريشا خرجت لهم. فبينما النبى صلى الله عليه وسلم قائم
يصلى، إذ ورد بعض روايا قريش ماء بدر، وفيمن ورد من الروايا غلام لبنى
الحجاج أسود. فأخذه نفر الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الزبير
إلى الماء، وأفلت بعض أصحاب العبد نحو قريش فأقبلوا به حتى أتوا به رسول الله
صلى الله عليه وسلم، وهو فى معرسة. فسأله عن أبى سفيان وأصحابه، لا
يحسبون إلا أنه معهم. وطفق العبد يحدثهم عن قريش ومن خرج منها، وعن
رؤوسهم ويصدقهم الخبر، وهم أكره شىء إليهم الخبر الذى يخبرهم، وإنما يطلبون
حينئذ بالركب أبى سفيان وأصحابه، والنبى صلى الله عليه وسلم، يركع ويسجد
ويسمع ما يصنع بالعبد. فطفقوا إذا ذكر لهم أنها قريش جاءتهم ضربوه وكذبوه
وقالوا: إنما تكتننا أبى سفيان وأصحابه. فجعل العبد إذا أذلقوه بالضرب، وسأله
عن أبى سفيان وأصحابه، وليس له بهم علم، إنما هو من روايا قريش، قال: "نعم
هذا أبو سفيان" والركب حينئذ أسفل منهم، كما قال الله عز وجل "إذ أنتم
بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم" حتى بلغ "أمرا كان
مفعولا" فطفقوا إذا قال لهم العبد: هذه قريش قد أتتكم، ضربوه. وإذا قال لهم، هذا
أبو سفيان: تركوه. فلما رأى صنيعهم النبى صلى الله عليه وسلم انصرف من
صلاته، وقد سمع الذى أخبرهم، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
والذى نفسى بيده، إنكم لتضربونه إذا صدق، وتتركونه إذا كذب. قالوا: فإنه
يحدثنا أن قريشا قد جاءت. قال: فإنه قد صدق، قد خرجت قريش تجير ركابها.
فدعا الغلام فسأله، فأخبره بقريش، وقال: لا علم لى بأبى سفيان. فسأله "كم
القوم؟" فقال: "لا أدرى والله هم كثير عددهم". فزعموا أن النبى صلى الله عليه

وسلم قال: "من أطعمهم أول من أمس؟" فسمى رجلا أطعمهم فقال: "كم جزائر نحر لهم" قال: "تسع جزائر" قال: "فمن أطعمهم أمس". فسمى رجلا. فقال: "كم نحر لهم" قال: "عشر جزائر" فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "القوم ما بين التسعمئة إلى الألف" فكان نفرة قريش يومئذ خمسين وتسعمئة. فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم فنزل الماء، وملا الحياض، وصف عليها أصحابه حتى قدم عليه القوم. فلما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا، قال: هذه مصارعهم. فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم قد سبقهم إليه ونزل عليه، فلما طلوعوا عليه زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: هذه قريش قد جاءت بجلبتها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني. فلما أقبلوا استقبلهم فحنا في وجوههم التراب فهزمهم الله. وكانوا قبل أن يلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبي سفيان، والركب الذين معه: أن ارجعوا، ويأمرون قريشا بالرحمة، فقالوا: والله لا نرجع حتى نزل بدرا فنقيم به ثلاث ليال، ويرانا من غشينا من أهل الحجاز. فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا. وهم الذين قال الله عز وجل "الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورثاء الناس" فالتقوا هم والنبي صلى الله عليه وسلم ففتح الله على رسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المسلمين منهم".

وإذا أحببنا أن نعرف طريقة عروة في التأليف من هذه الرسالة، نجده يعنى في سرده الغزوة بالمقدمات التي سبقتها وأدت إلى وقوعها، ويعنى في أثناء السرد بإقامة الأدلة على صحة ما يقول من الآيات القرآنية، ونجده يشير إلى الأشياء التي لا يطمئن إليها، أو يخاف أن يتحمل مسئوليتها بكلمة "زعموا"، كما حدث في روايته عدد قريش والأقوال المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن يبدو أنه كانت تأخذه أحيانا حماسة السرد، فينساق وراء الموضوع الرئيسي، ويترك بعض

التفاصيل، فيرجع إليها بعد ما ينتهى، ويقول مثلاً: "وكانوا قبل أن يلقاهم النبى صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبى سفيان".

هذا ما نستطيع أن نستخلصه من هذه الرسالة، إلى جانب تذوقنا لأسلوبه البسيط، الذى لا يخلو من فصاحة عربية غير متكلفة، بل عاطفة صادقة يحسها القارئ فى ثنايا الوصف.

وهب بن منبه

أما وهب بن منبه المتوفى ١١٠هـ فليس من المدينة، ولكن من ذمار بجوار صنعاء عاصمة اليمن. ولا تذكره كتب السيرة القديمة على أنه أحد رواة السيرة، ولكن حاجى خليفة^(١) يقول عنه: إنه جمع المغازى. وقد تبين صدقه، إذ اكتشف بيكر بين مجموعة أوراق بردى شت رينهاردت، المحفوظة فى هيدلبرج مجلداً يحتوى على قطعة من هذه المغازى. وتتناول قطعة هيدلبرج تاريخ العقبة الكبرى، واجتماع قريش فى دار الندوة، والهجرة، وغزوة بنى خيثة، مما يدلنا على أن وهباً تناول الفترة المكية والمدينة من حياة الرسول. ويقول بعض من رأى هذه القطعة إن وهباً يهمل فيها الإسناد، ويعنى بالشعر^(٢).

وحفظت حلية الأولياء لوهب قطعتين من المغازى، تتناول الأولى فتح مكة^(٣)، والثانية وفاة النبى صلى الله عليه وسلم^(٤). وهو يذكر الإسناد فى القطعتين. وهذه هى القطعة الثانية يقول فيها: "فلما كان يوم الأحد ثقل فى مرضه، فأذن بلال

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون رقم ١٢٤٦٤.

(٢) هوروفتس: كتب المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف، ص ٤٣ - ٥٢.

(٣) الأصبهاني: الحلبة ٤ : ٧٩.

(٤) نفس المرجع ٧٣.

بالأذان ثم وقف بالباب، فنادى "السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، الصلاة، يرحمك الله" فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال، فقالت فاطمة: "يا بلال، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم مشغول بنفسه". فدخل بلال المسجد، فلما أسفر الصبح قال: "والله، لا أقيمها أو أستاذن سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم". فرجع وقام بالباب ونادى: "السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، الصلاة، يرحمك الله". فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال، فقال: "ادخل يا بلال، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بنفسه، مر أبا بكر يصلى بالناس". فخرج ويده على أم رأسه وهو يقول: "واغوثاه يا الله، وانقطاع رجائي، وانقصاص ظهري. ليتنى لم تلدنى أمى، وإذا ولدتى ليتنى لم أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا اليوم" ثم قال: "يا أبا بكر: ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تصلى بالناس". فتقدم أبو بكر رضى الله عنه للناس، وكان رجلا رقيقا، فلما نظر إلى خلو المكان من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتمالك أن خر مغشيا عليه، وصاح المسلمون بالبكاء.. فلما كان فى الاثنى عشر اشهد به الوجع، وأوحى الله تعالى إلى ملك الموت عليه السلام، أن اهبط إلى حبيبي وصفيى محمد صلى الله عليه وسلم فى أحسن صورة، وارفق به فى قبض روحه. فهبط ملك الموت عليه السلام فوقف بالباب شبه أعرابى، ثم قال: "السلام عليكم، يا أهل بيت النبوة..".

وهذه الفقرة طويلة مفصلة، ولكن قارئها لا يسعه إلا أن يشك فيها الشك الشديد، فأسلوبها مما لا نألفه فى أساليب تلك الفترة، وعباراتها غريبة عن الرجل العربى الذى يعيش فى ذلك العصر، وقد لعب فيها الخيال دورا كبيرا. ولذلك إذا صحت نسبتها لوهب، فإننا لا نستطيع أن نطلق عليه لفظ مؤرخ، وإنما يلائمه لفظ قصاص .

ويجب أن نذكر أن وهبا اتجه في التاريخ وجهة جديدة لم تعن بها مدرسة المدينة قبله، تلك هي عنايته بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ وطنه اليمن. فالأستاذ هوروفتس ينسب لوهب "كتاب المبتدأ" الذي عزاه ابن النديم لحفيده عبد المنعم^(١). ويرى أن العنوان يشير إلى مبتدأ الخلق. ولكننا لا نرى داعيا لهذا، نرى أنه ربما جمع عبد المنعم مواد كتابه مما في كتب وهب الأخرى، وخاصة كتابه في تاريخ اليمن، الذي عنى فيه بتاريخ الخليقة والأنبياء. ولم يعن وهب بالأنبياء وحدهم بل بالعباد أيضا^(٢) ولعل الكتاب الذي ينسبه إليه حاجي خليفة عن "الأخبار"^(٣) هو نفس كتابه عن العباد .

ويعتمد وهب في جميع هذه الكتب على أخبار أهل الكتاب، يهودا ومسيحيين، اعتمادا شديدا. وقد اشتهر بذلك حتى قيل عنه إنه قرأ ٧٠ أو ٧٢ أو ٧٣ أو ٩٢ من كتبهم المقدسة^(٤). ولكننا لا نستطيع الاطمئنان إلى هذا القول، وإنما نرجح أنه استقى هذه الأخبار من أهل الكتاب الذين اتصل بهم في موطنه اليمن، الذي اشتهر منذ الجاهلية باستيطان هاتين الديانتين وتصارعهما فيه. بل بلغ الأمر بهذه الشهرة إلى حد أن نسب إلى وهب كتاب يسمى "الإسرائيليات"، كما يقول حاجي خليفة^(٥). ولكن ياقوتا يقول عنه إنه كان "كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات"^(٦)، أي يستعمل اللفظ وصفا لمصادر وهب، عنوانا لأحد

(١) ابن النديم : الفهرست ٩٤ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ج٧ من القسم الثاني ص٩٧ .

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون ٤ : ٥١٨ .

(٤) ابن سعد: الطبقات ٥ : ٣٩٥ وكتاب التيجان ٢ .

(٥) حاجي خليفة: كشف الظنون ٥ : ٤٠ .

(٦) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ .

كتبه ولذلك يرجح أن كتاب الإسرائيليات هذا عبارة عن مجموعة الأخبار التي استقاها وهب من أهل الكتاب جمعها بعض المتأخرين، وزاد عليها حتى صارت كتابا، عرفه حاجي خليفة بذلك الاسم. وقد قام بتلك المحاولة ثانية شوفان^(١)، ولكنها محففة، لأن هذه الأخبار غير كافية لتكوين كتاب، ولأنها دخلها كثير من الانتحال حتى عارض بعضها بعضا، وكثر فيها الخلط والتشويش. ولا يلام وهب كل اللوم على هذا الخطأ والتعارض، لأن الأخبار الصحيحة عنه تطابق أخبار أهل الكتاب مطابقة كثيرة. وما شذ عن ذلك يرجع إلى تغيير نفس المصادر التي استقى منها وهب، أو إلى تغيير منه لتلائم الذوق الشعبي، أو هي من عمل المتأخرين الذين غيروا فيها لتلائم القصص الشعبي .

والأمر الثاني الذي يمتاز به وهب هو كتابة تاريخ وطنه اليمن الخرافي القديم، في رسالة خاصة تسمى "كتاب الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم"، كما يقول ياقوت^(٢). ولسوء الحظ لم يصل إلينا هذا الكتاب، وإنما وصل إلينا كتاب يسمى "كتاب التيجان في ملوك حمير". وهو من رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبي إدريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه. ولكن كل من يتصفح الكتاب يستطيع أن يرى بسهولة أنه ليس كله لوهب، وإنما تصرف يه ابن هشام تصرفه في سيرة ابن إسحاق، وإن كان لا يصرح بذلك كما فعل في السيرة. ولذلك لا نستطيع أن نعرف مدى تصرفه، غير أننا يمكننا أن نعرف الإضافات التي جلبها من روايات أخرى، صرح بسندها فهو يروي أخبارا عن محمد بن إسحاق عن طريق تلميذه

(١) النسخة المصرية من ألف ليلة وليلة ٥٧ .

(٢) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ .

البكائي الذي روى السيرة^(١)، أو عن طريق تلميذه الآخر والمسمى أبا عباد الهمداني^(٢)، ويروى عن أبي محنف^(٣)، وعن محمد بن السائب الكلبي^(٤)، وعن عبيد ابن شرية^(٥)، وعن بعض المحدثين^(٦) ولكنه إلى جانب ذلك يروى مجموعة كبيرة من الأخبار التي لا يسندها إلى أحد^(٧). وهي بالطبع ترجع إلى رواة مختلفين، قد يكون منهم وهب نفسه^(٨). والأمر الجدير بالملاحظة أننا نرى جل الأخبار قبل الصفحة المئة من الكتاب منسوبة إلى وهب، ولكنها تقل شيئا فشيئا حتى تكاد تنعدم بعد ذلك .

والكتاب كما قلنا يتناول تاريخ اليمن، فيبدأ بخلق العالم، وقصص آدم وأولاده، حتى عهد نوح وأولاده. ثم يلتفت وهب إلى العرب من الساميين، وإلى عرب الجنوب خاصة، ويسرد تاريخ أقياهم وملوكهم، ويعنى بغزواتهم فى أرجاء الأرض، ويذكر هجرة عمرو بن عامر من اليمن إلى شمال بلاد العرب، كما يذكر ملوك غسان .

ولا يختلف كتاب التيجان لوهب كثيرا عن كتاب عبيد بن شرية فى طريقة العرض. فهما يطلقان لخيالهما العنان فى تصوير الوقائع، ويلونان الحوادث التاريخية بأطياف خيالية قد تخرج بها إلى حد الخيال والأسطورة، كما يدخلان فى تاريخهما

(١) كتاب التيجان ٧٥ ، ١١٥ ، ١٢٨ وغيرها .

(٢) ٢٥١ .

(٣) ١٨٠ ، ١٢٥ .

(٤) ١٣٢ ، ٢١٣ ، ٢٤٠ .

(٥) ٦٦ ، ٢٠٩ .

(٦) ١١١ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ٢٣٧ وغيرها .

(٧) ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٦ وغيرها .

(٨) ٢٥٥ ، وانظر حلية الأولياء ج٤ .

الكثير من الحوادث التي لا أصل لها، ولذلك يصدق عليهما اسم القصص التاريخي أكثر من أى نعت آخر. ونحن نعدهما امتدادا للحركة القصصية التاريخية التي كانت موجودة فى الجاهلية. ولعل الذى نسخ الكتابين فى نسخة واحدة رجل حكيم، عرف منهما مواطن الشبه هذه، التي تجعلنا لا نجد بينهما كبير فرق .

ويكشف هذا الكتاب عن بعض خصائص وهب، فهو مثل الجاهليين مغرم بالشعر، مكثر من روايته. وأكثر هذا الشعر منحول سخيّف ركيك، ينسب وهب إلى آدم أنه قال حين قتل هايبيل^(١) .

تغيرت البلاد ومن عليها	فوجه الأرض مغبر قبيح
وجاورنا عدو ليس يهدى	لعين لا يموت فأسزريح
أيا هايبيل يا ثمر الفؤاد	أبعد العين مسكنك الضريح
محل تخلق الأجساد فيه	ويلى عنده الوجه الصبيح
فعينى لا تجف عليك سحا	وقلبى الدهر محزون قريح

ولكن هناك بعض أشعار جيدة. ينسب إلى عبد شمس أنه قال يوصى ابنه بابليون^(٢):

ألا قل لبابليون والقول حكمة	ملكتم زمام الشرق والغرب فاجمل
وخذ لبنى حام من الأمر وسطه	فإن صدقوا يوما عن الحق فاقتل
وإن جنحوا بالقول للرفق طاعة	يريدون وجه الحق والعدل فاعدل
ولا تظهرن الرأى فى الناس يجزوا	عليك به، واجعله ضربة فيصل
ولا تأخذن المال من غير وجهه	فإنك إن تأخذنه بالرفق تسهل

. ١٧ (١)

. ٤٩ (٢)

ويروى وهب أيضا بعض أشعار ينسبها للنابغة الذبياني، ولييد، والأعشى، وامرئ القيس^(١). أما بيت النابغة ومقطوعة لييد فهما في ديوانيهما، وأما مقطوعتا الأعشى وامرئ القيس فلم أجدهما في ديوانيهما المطبوعين .

وقد تأثر وهب بالقرآن أيضا في القصص التي ورد ذكرها فيه، فيحاول أن يتبع خطاه، وأن يستند إلى آياته. يقول في وصفه الخلق^(٢): "فاضطرب الماء وهاج، فاصطفق، فأزبد، فصار أرضا، فخلق الله الحوت والبحر من ذلك الزبد ثم رفع الله السماء وهي دخان" فقال لها وللأرض آتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين" وخلق الملائكة، وأوحى في كل سماء أمرها، أسكنهم السماوات يسبحون ويهللون ويقدمون الواحد القهار، وخلق الجبال في الأرض أوتادا" .

وتظهر عند وهب نزعة إسلامية واضحة، فهو يعنى بجلب آراء العلماء المختلفين في بعض المواضع، مثل اختلافاتهم في خلق الجنة، وفي قتل قابيل لهايل^(٣).

وأسلوب وهب في كتابه بسيط صريح منطلق لا تثقله أى حلى، ولا يقف عند زينة، ولكن نجد عنده القطع الأرجوانية التي تكلمنا عنها في أثناء حديثنا عن عبيد، تلك القطع رسائل المشتركين في الحوادث وخطبهم وشيء من حوارهم قال وهب^(٤): "ولما أراد الله إتمام أمره، وإظهار العربية، أنزل كتابا مقطعا، وهو:

(١) ٧٦، ٧٧، ١١٥ .

(٢) ٣ .

(٣) ٢٦ .

(٤) ٢٦ .

"شهد الله بالحق، بسم الله الرحمن الرحيم، شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة، وأولو العلم، قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. حكم الحى القيوم أنه إذا اعتكر الزمان، وكثر النسيان، وحكم فى ذرية آدم الشيطان، وغلب هذا اللسان، فعبدت الأوثان، وقتل الولدان: أن يبعث الله محمدا بالعدل والبيان، يصدع بالقرآن، وينصر الإيمان، زمان ظهور السودان، نبى لا نبى بعده، ولم يخلف الله وعده .."

وتذكرنا هذه القطع الأرجوانية بالشاعر الشعبى فى المقاهى فى مصر، إذ نراه يقص حكايته بأسلوب بسيط منطلق، حتى يأتى إلى حديث أبطال قصصه وخطبهم، ورسائلهم، فنرى أسلوبه يرتفع ويجميل، بل نراه يفخم من لهجته وينطق بها متعملا مترويا. ولا يظهر فى هذه القطع الأرجوانية من الحلوى إلا السجع والازدواج وتوازن العبارات. ويبدو أن وهبا كان عارفا باللغة وأساليبها الأدبية. يقول فى شرحه للآية "لا عاصم اليوم من أمر الله" فى أثناء كلامه عن نوح^(١): "والعرب تجعل فاعل فى موضع مفعول، قال الله: "فى عيشة راضية" و "ماء دافق" أى "مرضية ومدفوق" .

وأخيرا فى تاريخ وهب ما وجدناه فى مواعظه من إسرائيليات تنفذ إليه وتشيع فيه، وخاصة أن الموضوعات التى تناولها كانت تساعد على هذا الانتشار وأظهر ما تتضح هذه الإسرائيلييات فى الجزء الأول من الكتاب الذى يعالج فيه المؤلف كيفية خلق العالم وآدم وأولاده حتى نوح عليه السلام وأبنائه الثلاثة. كما يشتد وضوحها أيضا فى تناوله لقصة بلقيس وسليمان. ويبدو أن وهبا كان يحسن

(١) ٢٤ .

العبرية والسريانية، فنراه يذكر الاسم وترجمته العربية، فقينان عبراني تفسيره باللسان العربي مشترى^(١)، ومهيلل عبراني وتفسيره باللسان العربي ممدوح^(٢) ومالالي سرياني وتفسيره بالعربي مسيح الله^(٣).

ويلاحظ عليه الأستاذ كرنكو وهو يصف غزوات ذى القرنين قائلا^(٤): "هذا الشعب ينفذ إلى جابرصا، وهذا الشعب يصل إلى هرات ومرو وسمرقند، وهذا ينفذ إلى جاجا وبلخا وحابلجا وبارد، وأرض يأجوج ومأجوج" يلاحظ عليه ملاحظة جديرة بالاهتمام ويقول^(٥): "هذه الأسماء كلها محرفة في الأصل، والمراد بجاجا مدينة جاج فيما وراء النهر، وهي بجيمين فارسين، وقد عربت العرب اسم هذه المدينة فقالت شاش. وبلجا محرف من بلخ بالخاء، وحابلجا لعله محرف من جابلق. والظاهر أن هذه الأسماء كلها مأخوذة من كتاب باللغة الآرامية بحيث في آخرها ألف. وأما بارد فلا أدري أى بلد يعنى بهذا".

فلو صدقت هذه الملاحظة لكان وهب يحسن الآرامية أو يأخذ عنم يحسنها.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل نراه يذكر بعض اللغات الأخرى مثل الحميرية حيث يقول^(٦): وكان يقال لحمير "العرنجج"، والعرنجج: العتيق" وحين يقول^(٧): "ذو شدد بلغة حمير كقولك: ذو شطط بن مناح أى ذو عطاء"، ومثل اللغة الحامية

(١) ٢١ .

(٢) ٢١ .

(٣) ٢١ .

(٤) ٩٩ .

(٥) هامش ٩٩ .

(٦) ٥٦ .

(٧) ٧٨ .

حين يقول^(١) : والشام اسم أعجمي من لغة بني حام، وهو طيب تفسيره بالعربي" .
قد نخرج من هذه الشواهد ونحن على ما يشبه الاطمئنان من معرفة وهب
باللغة العبرية والسريانية، وفي أنفسنا شيء من معرفته باللغة الآرامية والحميرية.
ومما يزيدنا يقينا بمعرفته اللغات غير العربية ذلك القول في كثير من المراجع
بأنه قرأ الكتب، أو العدد الفلاني منها، وأن تفسيره الكلمات العبرية والسريانية
كان صحيحا في أغلبه. وربما استمد وهب بعض معارفه مما كان شائعا من قصص
بين أهل الكتاب، وإن لم يوجد في إنجيل أو توراة.

هذا هو وهب بن منبه في "كتاب التيجان" صورة مكبرة مهذبة من عبيد ابن
شريعة، صورة أحاطت بما تركه عبيد من الأخبار، وأكثر من الإضافات الأجنبية عن
العرب الجاهلين، وهي إضافات أملاها الإسلام والقرآن، وإضافات أملاها الاتصال
الشديد بأهل الكتاب، وتقبُّل المسلمين لمعلوماتهم ومعارفهم. وإذن فوهب هو
المؤرخ القصاص، الذي تغنى بمفاخر وطنه، وأشاد بها ملحمة نثرية بسيطة صريحة،
تلبس وشيا من الشعر والقرآن والرسائل والخطب والأحاديث المخبرة الجملة، وقد
صاغها الخيال في إطار أدبي جذاب.

وهذه فقرة من كتاب التيجان^(٢) :

"ملك الهمال بن عاد"

المعروف بذي شدد، ملك متوج

وإنه لما مات لقمان بن عاد صار الملك إلى أخيه الهمال بن عاد بن اللطاط بن

(١) ٤٩ .

(٢) ٧٨ .

السكسك بن وائل بن حمير. والهمال بن عاد هو ذو شدد، فلما صار الملك إلى همال ذى شدد دخل إلى المغارة التي دفن فيها أخوه شداد بن عاد، فأخرج التاج وتزوج به. وكان لقمان غيبه في تلك المغارة، لأنه لم يكن متوجا، كان متواضعا لله. فلما ولي الهمال بن عاد أخذ الملك أخذا شديدا، فولى ذلك حيناً من الدهر ثم مات. وإنما قيل له ذو شدد بلغة حمير كقولك ذو شطط بن مناح، أى ذو عطاء".

وينسب حاجى خليفة^(١) إلى وهب كتابا آخر يسمى "كتاب الفتوح". ولكن المؤرخين الآخرين لا يذكرون عنه شيئا آخر.

عاصم بن عمر

نرجع إلى المدينة لنجد عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى المتوفى عام ١١٩هـ أو ١٢٠هـ. وقد روى عاصم عن أبيه، واشتهر بأحاديثه عن حياة الرسول عامة، حتى وصفه ابن قتيبة بأنه "صاحب السير والمغازى"^(٢)، وروى عنه محمد بن إسحاق والواقدي.

وتوضح اقتباسات ابن سعد فى طبقاته عناية عاصم بالفترة المكية من حياة الرسول، إلى جانب عنايته بالفترة المدنية. كما توضح مقتطفات الطبرى أنه اهتم بتاريخ الخلفاء الراشدين، وخاصة أخبار فتنة عثمان. ويذكر عاصم سند رواياته فى غالب الأحيان، ولكنه يهمله كثيرا أيضا، ويتبع غيره فى رواية الأشعار على السنة المشتركة فى

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون ٣٨٧:٤.

(٢) ابن قتيبة: المعارف ٢٣٦.

الحوادث^(١) وإنما يمتاز بأنه لم يقتصر على جمع الحوادث وروايتها، بل كان يبذرى رأيه فيها، ويعلق عليها^(٢).

وهذا مثال من أخباره فى وصف بيعة العقبة^(٣):

قال إسحاق، وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة:

إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عباد بن نضلة الأنصارى، أخو بنى سالم بن عوف: يامعشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعون على حرب الأحر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرفكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن؛ فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة^(٤) الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك: فبسط يده، فبايعوه.

وأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال: والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعناقهم.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢: ٦٧، ٤: ١٣.

(٢) نفس المرجع ٢: ٨٩.

(٣) نفس المرجع ٨٨.

(٤) نهكة الأموال: نقصها.

الزهرى

أشهر مؤرخى جيل التابعين هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى عام ١٢٤هـ. وقد أمره خالد بن عبد الله القسرى بكتابة السيرة له^(١)، كما أمره أيضا بكتابة كتاب عن القبائل العربية الشمالية، ففعل ولم يتمه^(٢). ومن الواضح أن قُرّة ابن عبد الرحمن يعنى الكتاب الأخير بقوله: "لم يكن للزهرى كتاب إلا كتاب نسب قومه"^(٣). ويبدو أن الزهرى كان واسع المعرفة بالأنساب، يقول عنه الليث^(٤): "وإن حَدَّثَ عن العرب والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا". ويخبرنا الزهرى نفسه أنه كتب "أسنان الخلفاء" لجدّه^(٥)، وهى عبارة عن قائمة يذكر فيها تاريخ وفاة الخلفاء وأعمارهم عند الوفاة، ومقدار ملكهم، كما يظهر من القطعتين اللتين اقتبسهما منها الطبرى. ونسب له شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى كتابا يسمى "مشاهد النبى صلى الله عليه وسلم" رواه عنه يونس بن يزيد^(٦). ولا يصل إلينا من الزهرى كتاب خاص مستقل فى التاريخ، على الرغم من كثرة ما دونه لنفسه أو للأمويين، حتى كثرت القصص عن هذا التدوين^(٧). ولكن بعض المتأخرين جمع الأحاديث التى اقتطفها من مدونات كتبه الأحاديث المتأخرة فى مجلد سماه "الزهريات"^(٨).

(١) الأصفهاني: الأغاني ١٩ : ٦٩.

(٢) نفس المرجع ٥٩.

(٣) الذهبى: تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٦٨.

(٤) أبو نعيم: الحلية ٣ : ٣٦٠.

(٥) الطبرى: التاريخ ٢ : ٤٢٨، ١٢٦٩.

(٦) السخاوى: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ٨٨.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٢ : ١٣٥.

(٨) كتاب المغازى الأولى ومؤلفوها ٦٥ - ٨٤.

ويبدو من الشذرات الباقية من كتابات الزهري في الطبقات خاصة أنه تناول حياة الرسول عامة، ولم يقصر نفسه على الغزوات الفعلية وحدها، وقد تسربت إلى أخباره بعض الإسرائيليات، حتى قال عنه الليث^(١): "وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب لقلت: لا يحسن إلا هذا". ويُعزى إلى الزهري الفضل في أنه كان أول من قرن بين الأحاديث المختلفة المصادر في موضوع واحد لإدماجها في حديث واحد إجمالي، يصدره بأسماء الرواة مجتمعين^(٢). وكانت هذه خطوة إلى الأمام في العرض التاريخي. وكان الزهري أيضا أول من عنى بتدوين الأنساب، لما تجبه بذلك وجهة جديدة في التاريخ. وقد سار الزهري على منوال غيره من المؤلفين في ذكر الإسناد تارة^(٣)، وحذفه أخرى^(٤)، وفي العناية بإدخال الشعر في أخباره^(٥).

وللزهري فضل كبير على الحركة التاريخية، إذ أنه نشر كتبه بين الجمهور، وحض على ذلك^(٦). عن يونس قال الزهري: "إياك وغُلُول الكتب" قلت: "وما غلولها؟" قال "حبسها عن أهلها"^(٧). وقد افتخر بنشر العلم فقال: "ما صير أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشرى"^(٨).

وهذه فقرة من كتاب "أسنان الخلفاء" تظهر لنا طريقته فيه؟ قال

(١) أبو نعيم: الحلية ٣: ٣٦٠.

(٢) ابن هشام: السيرة ٣: ٣٠٩.

(٣) أبو نعيم: الحلية ٣: ٣٦٥.

(٤) ابن هشام: السيرة ١: ١٢، ٧٢، ٣٣٨، وغيرها.

(٥) ابن هشام: السيرة ٤: ٥٩، ٢١٥، ٢٣٨، وغيرها.

(٦) أبو نعيم: حلية الأولياء ٣: ٣٦٦.

(٧) نفس المرجع.

(٨) نفس المرجع.

الطبرى^(١) "عن هشام بن الوليد المخزومي أن الزهري كتب لجده أسنان الخلفاء، فكان فيما كتب من ذلك:

"ومات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين. وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، في قول بعضهم، ويقال ثمانية أشهر".

وهذه فقرة من حياة الرسول في مكة تناول مبعثه صلى الله عليه وسلم^(٢) قال ابن إسحاق، فذكر الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضى الله عنها أنها حدثته: "أن أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح". قالت: "وحب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده".

وأسلوب الزهري كما يبدو من هذه الفقرات سهل منطلق جميل بسيط.

موسى بن عقبة

ينقضى جيل الزهري، ويظهر جيل آخر، كله من تلاميذه. ونبدأ بموسى بن عقبة المتوفى عام ١٤١هـ. وهو من المشهورين بمعرفة المغازي، وألف فيها كتابا رواه عنه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم المتوفى عام ١٥٨هـ^(٣) وقد ضاع هذا الكتاب إلا شذرات نحاول أن نتبين صورته منها. ويبدو أنه كان أصغر حجما من كتب المغازي الأخرى، لأن مالك بن أنس

(١) ٢ : ٤٢٨ .

(٢) ابن هشام: السيرة ١ : ٢٤٩ .

(٣) ابن سعد: الطبقات ٥ : ٣١٠ .

يقول عنه ^(١) : "عليكم بمغازى موسى بن عقبة ... فإنه رجل ثقة، طلبها على كبر السن، ولم يكثر كما كثر غيره، وقد أكد بعضهم لألويس شبرنجر Aloys Sprenger فى دمشق أنه توجد منه نسخة هناك، ولكنه لم يستطع أن يراها ^(٢) .

ولكن وجدت فى المكتبة البروسية الرسمية قطعة من هذه المغازى، ترجمها الأستاذ إدوارد سخاو E. Sachau إلى الألمانية فى عام ١٩٠٤م ^(٣) ويتضح من هذه القطعة أن موسى لم يتناول المغازى بالمعنى الخاص، بل تناول الهجرة أيضا. وقد اقتبس ابن سعد كثيرا منه عن طريق أستاذه الواقدي ^(٤)، وعن طريق ابن أخى موسى السابق ذكره ^(٥). وتكشف لنا هذه المقتطفات أن مغازى موسى كانت تحتوى على قوائم بالمهاجرين إلى الحبشة، وبالمشركين فى بيعتى العقبة، وبالمخاربن فى بدر ^(٦)، فتدعم قول ابن حجر بأنه كتب هذه القوائم عند ما رأى شرحبيل بن سعد يدخل فى البدرين من لم يشهد بدر ^(٧). وكان الطبرى من الذين رجعوا إليه، فاقبس منه أخبارا يشير أكثرها إلى عهد الخلفاء الراشدين، والأمويين، إلى جانب عهد الرسول ^(٨). ويروى فى الأغانى خبر يدل على أن موسى بن عقبة اهتم بالأحداث

(١) ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٦١ .

(٢) المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ٨٥ - ٨٩ .

(٣) سخاو : القطعة البرلينية من مغازى موسى بن عقبة، (تقرير عن أعمال المجمع البروسى للعلوم عام ١٩٠٤م).

(٤) ابن سعد : الطبقات ٣ : ٢٤١، ٨ : ١٠، ١١، ١٧١، ١٩٠، وغيرها .

(٥) نفس المرجع ٢ : ١، ٣ : ١، وغيرها .

(٦) ابن سعد : الطبقات ٢ : ١، ٣ : ١ .

(٧) ابن حجر : تهذيب التهذيب ١ : ٣٦١ .

(٨) ابن سعد الطبقات ٥ : ٣٨٣ .

الجاهلية أيضا^(١) .

نرى مما سبق أن موسى بن عقبة ينفرد عن المؤلفين قبله بعنايته الزائدة بالقوائم، وتدوينه لتاريخ الخلفاء الراشدين، وبعض الأمويين، بل التاريخ الجاهلي أيضا. ويختص بمراعاته أكثر من غيره لنظام الإسناد^(٢)، وإن تركه أحيانا^(٣). ويعنى أيضا بالأخذ عن مدونات من سبقه، مثل ابن عباس^(٤)، كما يعنى بالوثائق المكتوبة^(٥). ويقتبس بعض الأشعار^(٦)، ويحاول ترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا^(٧). ويمتاز أيضا بعنايته بأخبار الحزب الزبيرى، ولعل سبب ذلك أنه يكثر الرواية عن جده لأمه أبى حبيبة مولى الزبير بن العوام^(٨)، كما يروى عن علقمة بن وقاص الليثى الذى يبدو أنه كان فى جيش الزبير وطلحة يوم الجمل^(٩).

وهذه فقرة من تاريخه تبين لنا طريقة تناوله وأسلوبه^(١٠): موسى بن عقبة عن أبى حبيبة مولى الزبير قال: "لما قتل الناس عثمان رضى الله عنه وبايعوا عليا، جاء على إلى الزبير، فاستأذن عليه، فأعلمته به، فسل السيف، ووضعته تحت فراشه، ثم قال: "اأذن له". فأذنت له، فدخل فسلم على الزبير، وهو واقف بنحوه، ثم

(١) أبو الفرج: الأغاني ٣: ١٦.

(٢) الطبرى: التاريخ ١: ٢٥٠، ١٨٥١، ٢٠١٤ وغيرها.

(٣) الطبرى: التاريخ ١: ٢٧٥٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٥: ٣١٦.

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان ٨٠.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٤١، وغيرها.

(٧) هو روفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ٨٩.

(٨) الطبرى: التاريخ ١: ٢٩٨١، ٢٩٩٨ وغيرها.

(٩) نفس المرجع ٣: ٣١٠٣، ٣١٣٧.

(١٠) نفس المرجع ٣: ٣٠٧٣.

خرج. فقال الزبير: "لقد دخل المرء، ما أقصاه. قم في مقامه فانظر: هل ترى من السيف شيئا؟" فقامت في مقامه، فرأيت ذباب السيف فأخبرته، فقال: "ذاك أعجل الرجل". فلما خرج على سألته الناس، فقال: "وجدت أبراً ابن أخت وأوصله". فظن الناس خيراً، فقال على: "إنه بايعه".

ويظهر لنا في هذه الفقرة نظرة الحزب الزبيرى لمسألة الخلافة بين على والزبير، أكثر مما يظهر أى شيء آخر. وهذا ما يلاحظ على موسى فى أغلب أخباره التى يتبع فيها أخبار الزبيرين حتى عهد عبد الملك بن مروان.

سليمان بن طرخان

تنتقل الكتابة التاريخية إلى البصرة ليظهر فيها سليمان بن طرخان المتوفى عام ١٤٢هـ. ولم تذكر المراجع القديمة التى بين أيدينا أنه ألف كتاباً، وإن كنا نرى اسمه يتردد فى الطبرى. ولكن الأستاذ فون كريمر وجد مخطوطاً يحتوى على مغازى الوراقدى التى لا تصل إلا إلى إجلاء بنى النضير من المدينة ثم تكمل بجزء من مغازى أبى المعتمر سليمان بن طرخان التيمى المسماة "السيرة الصحيحة" كما يقول الناسخ^(١). وتبدأ سيرة سليمان بالكلمة الأولى فى السطر ١٩ من الصفحة ٣٦٠، وتنتهى فى الصفحة ٤٢٧. فهى تتألف من ٧٧ صفحة من النسخة المطبوعة.

ولا نستطيع من هذا الجزء الباقى من سيرته أن نحكم: هل تناول التاريخ الجاهلى، وتاريخ النبى فى مكة، أو اقتصر على المغازى وحدها، وإن كان الاسم "السيرة" قد يجعلنا نميل إلى الظن بأنه تناول الفترة المكية من حياة الرسول أيضاً.

(١) فون كريمر : مغازى الوراقدى ٤٣٨، المقدمة ٢٣.

ولكن الطبرى يذكر له خبرين عن خلق آدم^(١)، وعن حرق إبراهيم^(٢)، ثم لم يذكر له شيئا فى حياة الرسول، وإنما يرجع إليه ثانية فى عهد عثمان، حيث يروى بعض ما حدث فى الفتنة. ولا ندرى لهذا سببا: أكان الطبرى غير واثق بمغازيه، أم لم تصل إليه، أم لم يؤلف سليمان مغازى، وهذه المغازى التى بين أيدينا محمولة عليه.

ويرى قارئ "سيرته" أن الأخبار موجزة مضغوطة منسقة منتظمة لا تكثر خلالها الفواصل والزوائد، كما نرى عند غيره من المؤرخين. فهو لا يذكر الأسانيد، ولا يعنى بالروايات المتعددة، وإنما يسير على رواية واحدة لا يتعدها. ويمتاز وصفه بالقوة والحياة، يشعر القارئ أنه مشرف على المعركة يرى الأبطال ويشاركهم مشاعرهم وأفعالهم، كما يشعر بأن المؤلف لا يكتفى بمجرد الأعمال وإنما يدقق فيها وييسطها بسطا صادقا، يجعلنا نستطيع أن نميز ما يدور فى خلجات المؤمنين فى كل موضع من المواضع. وكثيرا ما تكون هذه الانفعالات فى غير صالح المسلمين^(٣).

ولكننا نراه يأتى بروايات غريبة فى الغزوات الكبيرة المعروفة، تخالف ما أجمع عليه المؤرخون الآخرون. ولنذكر على سبيل المثال ذلك الدور الذى قام به نعيم بن مسعود الأشجعى فى غزوة الخندق. فسليمان يراه من الجواسيس على النبى، على حين يراه المؤرخون الآخرون من المؤمنين الذين خدموا النبى خدمة عظيمة، وساعد على تفريق كلمة المشركين واليهود بخداعهم. وكذلك يأتى بروايات مخالفة فى غزوات بنى قريظة والحديبية وخيبر ومؤتة ووفاة الرسول. أما المؤلفون الآخرون فلا يعنون بذكر رواياته على الرغم من اهتمامهم بسرد غيرها من الروايات الكثيرة.

(١) الطبرى: التاريخ ١ : ٩١.

(٢) نفس المرجع ٢٦٦.

(٣) انظر غزوة الخندق وغيرها.

ولا ندرى ما سبب هذه الإهمال، إلا أن هناك ظنا يخامرنا وهو أن كثيرا من أخباره كان يصور المسلمين صورا لا ترضيهم أو لا ترضى بعضهم^(١). ويورد سليمان أخبارا عن العباس لا نجد لها عند غيره من المؤرخين^(٢)، وهي كلها فى جانب العباس، مما يغرى المرء بالقول إنها من وحى العباسيين. ولكننا - بعد كل ذلك - نحب أن نشير إلى أن سليمان بن طرخان من المشهود لهم بالعدالة والفضل^(٣).

ويعنى سليمان بإيراد الآيات القرآنية^(٤)، وشرح مناسباتها التاريخية، والاعتماد عليها، كما يعنى أيضا بالشعر^(٥). ولكن هذا الشعر قليل متضائل بالنسبة لغيره من الكتاب.

وهذه المغازى لها أهمية فوق كل ذلك، إذ أنها أقدم كتاب تاريخى يتناول حياة الرسول، سلم من الضياع، ووصل إلينا شبه كامل، فيما عدا الجزء الذى وجده بيكر من مغازى وهب. وهاك بعض الأمثلة التى تصور لنا طريقة تناوله للتاريخ. يقول فى وصفه لموقعة الخندق^(٦): "فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أتاه المشركون، فنزلوا به فاقتلوا قتالا شديدا، بلغ من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كل مبلغ. فحصرهم حصارا شديدا ارتاب منه المنافقون، وشكوا فى نبى الله صلى الله عليه وسلم، وأساءوا. اللفظ فقام رجل من الأنصار يقال له مغيث بن بشير، فقال: "أوعدنا محمد أن يفتح قصور فارس

(١) انظر غزوتى الخندق وخير.

(٢) ٤٣٥، ٣٩٦.

(٣) مقدمة فون كريم ٦ وابن حجر: تهذيب التهذيب.

(٤) ٣٦١، ٣٦٤، ٣٧٢، وغيرها.

(٥) ٣٧٤، ٣٩٠، ٣٩٦، ٤٠٢، وغيرها.

(٦) ٣٦٣.

والروم واليمن، ولا يتبرز أحدنا إلى الخلاء من رحله؟ والله لغرور". وتابعه على ذلك رهط من المنافقين، فأنزل الله تعالى: "وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا". وزعموا أن قبيلتين من الأنصار، بنى حارثة بن الحارث وبنى سلمة، هموا أن يخلوا من مراكزهم، وقالوا: يابى الله، إن بيوتنا خلية، نخاف عليها السرقة". فلهم يقول الله تعالى: "يقولون إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا". وذكر فى سورة أخرى: "إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا، والله وليهما، وعلى الله فليتوكل المؤمنون". فقالوا بعد ذلك: "ما نحب أن نهم بالذى هممنا به إذا كان الله ولينا":

ويظهر أسلوب سليمان فى هذه الفقرة سهلا بسيطا سيالا، حارا صادقا

موجزا.

وهذه فقرة مما اقتبسه الطبرى من سليمان^(١): "معتمر بن سليمان التيمى. قال ثنا أبى قال قال ثنا أبو نضرة عن أبى سعيد مولى أبى أسيد الأنصارى، قال: "سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم وكان فى قرية له خارجة من المدينة، أو كما قال. فلما سمعوا به أقبلوا نحوه إلى المكان الذى هو فيه. قال: وكره أن يقدموا عليه المدينة أو نحوه من ذلك، قال: فأتوه، فقالوا له: "ادع بالمصحف". قال: فدعا بالمصحف، قال: فقالوا له: "أفتح السابعة" قال: وكانوا يسمون سورة يونس السابعة، قال: فقرأها حتى أتى على هذه الآية "قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا، قل آ الله أذن لكم أم على الله تفترون". قال: قالوا له: "قف". فقالوا له: "أرأيت ما حميت من الحمى، آ الله أذن لك أم على الله

(١) الطبرى: التاريخ ١: ٢٩٦٣.

تفتري؟" قال: فقال: "امضه، نزلت في كذا وكذا" قال: وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلى لإبل الصدقة، فلما ولت زادت إبل الصدقة فزدت فى الحمى لما زاد فى إبل الصدقة، امضه...".

ويلاحظ فى هذه الفقرة، وفى فقرة ثانية فى الطبرى^(١) تناول تكملة الحادثة، الإكثار من اعتراض "قال" فى السياق، مما لانبج مثله كثيرا عند الطبرى، مما يجعلنا نرجح أنه من خصائص كتاب سليمان الذى أخذ عنه الطبرى. ولكن المغازى التى بين أيدينا ليس فيها هذا الاعتراض الكثير. ونحن لا نستطيع أن نعمم هذا الحكم من فقرتين فحسب، لأن الفقرات الباقية فى الطبرى من القصر بحيث لا تظهر فيها هذه الظاهرة.

عوانة بن الحكم:

من مؤرخى العراق أيضا أبو الحكم عوانة بن الحكم الضرير الثقة المتوفى عام ١٤٧هـ أو ١٥٨هـ ونسب له ابن النديم فى "الفهرست"^(٢) كتابين: "كتاب التاريخ" و "كتاب سيرة معاوية وبنى أمية". وقد شك بعض العلماء فى الكتاب الأخير، ونسبه لمنجاب بن الحارث التميمى المتوفى عام ٢٣١هـ.

وروى عبد الله بن المعتز عن الحسن بن عليل العنزى أن عوانة كان عثمانيا يضع الأخبار لبنى أمية، وترجح دائرة المعارف الإسلامية ذلك الرأى^(٣). ولكن الهيثم بن عدى يروى خبرا عنه حين قتل محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن

(١) نفس المرجع ٣٠٠٦.

(٢) الفهرست ٩١.

(٣) ياقوت: معجم الأدياء ٦: ٩٤، ودائرة المعارف الإسلامية مادة (عوانة).

أبى طالب بالمدينة، وكيف أنه ترحم عليه وذكر فضله، مما يدل على أنه كان يظهر العثمانية تقيّةً منه، وخاصة أنه فى نهاية الخبر السابق يستفسر من الجالسين إذا ما كان أحد عيون الأمويين حاضرا. فإذا تحقق من عدم حضور أحد أخذ يمدح محمدا مدحا رائعا.

ولا تؤيد الأخبار الباقية لنا منه عند الطبرى^(١) والبلاذرى^(٢) تلك التهمة، إذ لا يظهر فيها أى هوى للأمويين. ولعل الطبرى والبلاذرى لم يذكرنا تلك الأخبار التى تظهر فيها عثمانيته وأمويته. ويجب أن نحترز فى هذا الرأى لأننا نجد كثيرا من التهم توجه لعوانة تريد الغض من قدره، مثل تلك الأخبار التى تجعله لا يميز بين الشعر والقرآن^(٣)، على الرغم من قولهم إنه كان عالما بالشعر والفصاحة^(٤)، وعلى الرغم من القصة السابقة التى يمدح فيها محمد بن عبد الله بالآية "التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله" مما يدل على معرفة بالقرآن أيضا. كل هذه التهم تدلنا على أنه كان كثير الخصوم، وإن لم نستطع معرفتهم، وسبب خصومتهم له، وإن خامرنا الظن بأن عثمانيته المزعومة ربما كانت سبب هذه العداوة.

ولا تتناول المقتطفات الباقية من تاريخ عوانة شيئا من حياة الرسول، وإنما تبدأ ببيعة أبى بكر، وتصف الردة، وفتح العراق، وفتح بلدان فارس المختلفة مثل المدائن وجُلولاء، وهمذان، ووقعة الجمل، وحروب على ومعاوية، والحسن ومعاوية،

(١) التاريخ ١ : ١٨٢٧ ، ٢٧٥٥ ، ٣٢٠٤ ، وغيرها.

(٢) فتوح البلدان ٦٢ ، ٩٤ ، ١٨٢ ، ٢٤٠ ، وغيرها.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٩٤ : ٦.

(٤) نفس المرجع ٩٥.

وتاريخ العراق، وقتل الحسين، وثورة عبد الله بن الزبير، وتنتهى الأخبار بخروج ابن الأشعث وقتل ابن القرية^(١).

ونرى عوانة فى هذه المقتطفات لايبنى بالأسانيد كثيرا، ويبحث عن المواد فى كل مكان حتى ليأخذها من أقارب المشتركين فى الحوادث. ويعنى كذلك بإيراد الأشعار.

وهذه فقرة من أخباره^(٢): "يحيى بن آدم عن عوانة بن الحكم عن جرير ابن يزيد عن الشعبي، قال، قال عبد الله بن مسعود: لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه، لولا أن من الله علينا بأبى بكر: اجتمع رأينا جميعا على ألا نقاتل على بنت مخاض وابن لبون وأن نأكل قرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين. وعزم الله لأبى بكرى رضى الله عنه على قتالهم فوالله ما رضى منهم إلا بالخطبة المخزية أو الحرب المجلية. فأما الخطبة المخزية فإن أقروا بأن من قُتل منهم فى النار، وأن ما أخذوا من أموالنا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فإن يخرجوا من ديارهم".

وأسلوب عوانة منسب منطلق، يعنى فى بعض الفقرات بالحوار، والشعر، وما يدور من أبطار الحوادث.

محمد بن إسحاق

أخيرا يظهر محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥٠هـ تقريبا، فيؤلف كتابا يغطى به على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين، ويجذب أنظار المتأخرين على

(١) انظر فهرست الطبرى والبلاذرى.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ٩٤.

الدوام. ويسمى كتاب ابن اسحاق هذا "كتاب المغازى". ولم يصل إلينا الكتاب بصورته الأصلية. ولكن وصل إلينا قسط عظيم منه فى سيرة ابن هشام، ويقال إن مكتبة كوبريلى بالآستانة تحتوى على مخطوطة من النسخة الأصلية من الكتاب ولكن الأستاذ هوروفتس يرى أننا إذا ما عاينا هذه المخطوطة وفحصناها فحسبنا دقيقا. وجدناها نسخة من كتاب ابن هشام لابن إسحاق^(١).

وقيل^(٢) إن سبب تأليفه المغازى أنه دخل ذات يوم على المنصور وبين يديه ابنه المهدي، فقال له المنصور: أتعرف هذا يا ابن إسحاق؟ قال: "نعم، هذا ابن أمير المؤمنين": قال: "أذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا". فصنف ابن إسحاق هذا الكتاب، فقال له المنصور: "لقد طولته، يا ابن إسحاق، إذهب فاختره". وحفظ المنصور الكتاب الكبير فى خزائنه.

ولكن الأستاذ فيك^(٣) يرى أن ابن إسحاق لم يؤلف كتابه بأمر من الخليفة ولا فى بغداد أو الحيرة، وإنما فى المدينة قبل إقامته لدى العباسيين. ويستدل على ذلك بأن رواته الذين أخذ عنهم جميعا مديون ومصريون. ولا يذكر أحدا من العراقيين. كما نجد أحد تلاميذ ابن إسحاق المديين يروى الكتاب، وذلك هو إبراهيم بن سعد^(٤) المتوفى عام ١٨٤هـ بل نرى فى الكتاب حوادث ما كان يرضى لذكرها العباسيون مثل تدوينه اشتراك العباس فى بدر إلى جانب الكفار، وأسر

(١) المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ٩٨.

(٢) ابن هشام: السيرة ١: ط.

(٣) هوروفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ٩٦.

(٤) نفس المرجع. وياقوت: معجم الأدباء ٦.

المسلمين له^(١) ، ذلك الخبر الذى حذفه ابن هشام فيما بعد خوفاً من العباسيين . وربما أجرى ابن إسحاق بعض التغييرات الإضافية الطفيفة فى الكتاب إرضاء للخليفة ، مثل رواياته عن مناصرة العباس للإسلام ، أو اعتناقه له سرا^(٢) ، وإن كانت هذه الروايات أيضا رواها عنه تلميذه المدنى إبراهيم بن سعد ، مما يجعلنا نعتقد أنه لم يجرها فى العراق للمرة الأولى .

وعلى الرغم من عدم وصول النسخة الأصلية من الكتاب كاملة إلينا ، وحذف ابن هشام أجزاء كثيرة منه ، نستطيع تكوين صورة قريبة من الكمال عنه ، بفضل المقتطفات العديدة عند الطبرى والمؤرخين المتأخرين ، والتي قد تكون محذوفة عند ابن هشام . ويساعدنا على تكوين الصورة تصريح ابن هشام بما أجراه من تغييرات فى الكتاب ، إذ يصدره بقوله^(٣) "وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده ، وأولادهم لأصلابهم ، الأولى فالأولى ، من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل ، على هذه الجهة للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شأن وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ،

(١) الطبرى: التاريخ ١ : ١٣٤١ ، ١٣٤٤ . وابن سعد : الطبقات ٤ : ٧ .

(٢) ابن هشام : السيرة ٢ : ٣٠١ .

(٣) نفس المرجع ١ : ٤ .

وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته، ومستقصٍ إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له، والعلم به". وكان ابن هشام دقيقا في تصريحه بكل ما يفعله من زيادة أو حذف على الدوام. وفيما عدا هذه التغييرات لا يجرى أى عمل من عنده فى النص الأسمى .

ويظن أن الكتاب كان فى أصله مقسما إلى ثلاثة أجزاء: المبتدأ، والمبعث، والمغازى. أما المبتدأ فيتناول التاريخ الجاهلى. وقد خص ابن هشام هذا الجزء بالحذف أكثر من غيره، ولكن الطبرى حفظ جزءا كبيرا منه فى تاريخه وتفسيره وخاصة ما يتعلق بالأنبياء منه، كما حفظ الأزرقى أخبارا كثيرة تتناول تاريخ مكة القديم، ووعى كتاب عبيد بن شرية بعض أخباره كما ذكرنا من قبل.

وينقسم هذا الجزء إلى أربعة فصول: يتناول أولها تاريخ الرسائل السابقة على الإسلام منذ خلق العالم حتى ظهور عيسى. ويرجع ابن إسحاق فى هذا الفصل إلى وهب ابن منبه، وابن عباس، وأهل الكتاب، بل التوراة ذاتها، إلى جانب رجوعه إلى القرآن. ويورد فيه أخبار أهل الكتاب، والقبائل العربية التى ذكرها القرآن مثل عاد وثمود، بل التى لم يذكرها القرآن مثل طسم وجديس. ويتناول الفصل الثانى تاريخ اليمن فى العصور الجاهلية، وسبب عنايته بهذا التاريخ وجود الإشارات العديدة فى القرآن إليهم، مثل إشارته إلى أهل الأخدود، وأصحاب الفيل. وقد وعى ابن هشام والطبرى جزءا كبيرا من هذا الفصل. وأما الفصل الثالث فيتناول القبائل العربية وعبادة الأصنام. ويتناول الرابع أجداد النبى المباشرين وديانة أهل مكة. ولا يعنى ابن إسحاق فى هذا الجزء بالأسانيد إلا نادرا، وأغلبها فى الفصل الأول .

أما المبعث فيشمل حياة النبى فى مكة، والهجرة، وربما العام الأول من نشاطه فى المدينة، ونراه فى هذا الجزء يصدر الأخبار الفردية بموجز حاولها، ويدون

مجموعات كاملة من القوائم: فقائمة بمن أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر^(١)، وأخرى بالمهاجرين إلى أرض الحبشة^(٢)، وثالثة بمن عاد من أرض الحبشة لما بلغهم إسلام أهل مكة^(٣)، وأخرى وأخرى، مما يطول حصره. ويوجد في هذا الجزء وثيقة انفرد بها ابن إسحاق من بين المؤرخين الآخرين، وهي معاهدة النبي الأولى^(٤)، التي كتبها لينظم التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود، بعد هجرته إلى المدينة مباشرة. ويعنى ابن إسحاق في هذا الجزء بالترتيب الزمني للحوادث، كما تزداد عنايته بالأسانيد التي يرجع معظمها إلى شيوخه المدنيين .

وأخيرا المغازي، وهي تتناول حياة النبي في المدينة منذ أول سهم أطلق في الحرب إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. وتملاً الغزوات الحربية هذا الجزء، فلا يستطيع المؤلف أن يفصل الكلام إلا عن مرض النبي الأخير ووفاته. ويسير ابن إسحاق في هذا الجزء على خطة رسمها لنفسه ولم يتجاوزها، إذ يبدأ الخبر بملخص حاو لمحتوياته، ثم يتبعه بخبر من جميع الأقوال التي أخذها من رواته، وفي النهاية يكمله بما جمعه هو نفسه من المصادر المختلفة. وتكثر القوائم أيضا، عمن حضر بدرًا من المسلمين، ومن استشهد من المسلمين يوم بدر، ومن قتل ببدر من المشركين، وما مائل ذلك في الغزوات المختلفة. ويلتزم ابن إسحاق هنا إيراد الأسانيد، وجميع رواته من المدينة، وأهمهم الزهري وعاصم بن عمر وعبد الله بن أبي بكر بن حزم، الذين أمدوه بما ساعده في ترتيبه الزمني للحوادث. وقد زاد ابن إسحاق المادة التي

(١) ابن هشام : السيرة ١ : ٢٦٧ .

(٢) نفس المرجع ٣٤٤ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٣ .

(٤) نفس المرجع ١٤٧ .

أخذها منهم بما جمعه بنفسه من غيرهم من الرواة، ومن أقارب المشتركين في
الحوادث المؤرخة .

وقد لقيت هذه السيرة منذ ظهورها عناية كبيرة، فرواها خمسة عشر تلميذا
لابن إسحاق كما يقول فيك^(١). أما ابن هشام فكان يرجع إلى رواية البكائي، وأما
الطبرى فكان يرجع في الغالب إلى رواية سلمة بن الفضل المتوفى عام ١٩١هـ،
وأما ابن الأثير في "أسد الغابة" وابن حجر في "الإصابة" فكانا يرجعان إلى رواية
يونس بن بكير المتوفى^(٢) عام ١٠٩هـ . ثم كان الناس إلى اليوم يرجعون إليها في
نسخة ابن هشام بعد ظهور هذه .

ونرى ابن إسحاق يرجع في سيرته إلى العلماء من غير المسلمين في أخباره عن
الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية. ولذلك نراه يذكر بين رواته "بعض أهل
العلم من أهل الكتاب الأول"^(٣) أو أهل التوراة"^(٤) أو "من يسوق الأحاديث عن
الأعاجم"^(٥). ويعد هذا تحولا خطيرا من مدرسة المدينة التي لم تكن تقبل مثل هذه
الأخبار، ولا مثل هؤلاء الرواة. فابن إسحاق أول من اقترب بمدرسة المدينة إلى
مدرسة اليمن في قبول هذه الأخبار، حتى إننا نراه يأخذ بعض الأخبار عن وهب بن
منبه. بل يذهب ابن إسحاق إلى أبعد من ذلك، فيعطينا فقرات من العهدين القديم
والجديد مترجمة ترجمة حرفية^(٦) .

(١) هوروفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ١٠٣ .

(٢) نفس الموضع .

(٣) الطبرى: التاريخ ١ : ١٤٠ .

(٤) الطبرى: التاريخ ١ : ٤١٣ ، ٤٤١ .

(٥) ابن هشام : السيرة ١ : ٣٢٨ .

(٦) هوروفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ١٠٥ .

وعنى ابن إسحاق بالرجوع إلى الوثائق والمدونات، كما حاول أن يذكر الأسانيد، ولكن مادته الكثيرة المتنوعة اضطرته إلى توسيع دائرة روايته، وقبول بعض الأحاديث غير المرضية، والإخلال بنظام الأسانيد، مما أزعج مدرسة الحديث وهاتها، فكالت له التهم، وسحبت منه ثقتها^(١).

وينفرد ابن إسحاق عن باقي المؤرخين في كثرة الأشعار التي أدخلها في كتابه كثرة أفزعت معاصريه ومن بعدهم. إذ لم يكن يتحقق من صحة الشعر بل يدخل ما يحمل إليه دون تحقيق. ولذلك نجد عنده أشعارا منتحلة ظاهرا انتحالا، مثل تلك التي قيلت في عهد عاد وثمود^(٢). ولكن بعض العلماء^(٣) اعتذر عنه بأنه اقتبس هذه الأشعار لتزيين تاريخه لا لصحتها عنده، فهو ما كان يتمسك بأنها صحيحة لو أثبت له غير ذلك. وكل ما في الأمر أن فن الكتابة التاريخية كان اعتاد إدخال الشعر للتحلية منذ الجاهلية. كما أنه اعتذر عن نفسه بأنه ليس عالما بالشعر وأنه يدون ما يحمل إليه^(٤).

وكان ابن إسحاق غاية في النزاهة في تاريخه، يدون آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة وبدون تحيز، حتى لقد روى أشعار المشركين في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه^(٥)، وحتى اضطر ابن هشام أن يلفظ من حدة بعض عبارات هذه الأشعار أو أن يحذفها^(٦).

(١) ياقوت معجم الأدباء ٦ : ٣٩٩ .

(٢) الطبرى : التاريخ ١ : ٢٣٦ وما بعدها .

(٣) هوروفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ١٠٨ .

(٤) ابن سلام: طبقات الشعراء ٤ .

(٥) انظر شعر ابن الزبيرى فى بدر وأحد فى السيرة .

(٦) ابن هشام: السيرة ٣ : ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ وغيرها .

ويمتاز ابن إسحاق بأنه لم يكن أول من عرض فترات حياة الرسول باتساق فى كتابه فحسب، بل وسع أفق هذه السيرة، فجعلها تاريخاً للرسالة الإلهية عامة، فأدخل فيها تاريخ الأنبياء المتقدمين. ويتحلى كذلك بتلك الخصيصة التى تحلى بها أستاذه الزهرى من قبل، وأعنى بها العناية بربط الأحاديث بموجز يربط بينها ويحوى ما تشمل من أخبار، والعناية بتأليف خبر عام موحد من الروايات المختلفة. وهو يعطينا فى بعض الأحيان تعليقات على الحوادث برأيه. ويظهر ابن إسحاق فى سيرته كتاباً ساحراً، يعرف كيف يجمع مادته بطريقة تجذب انتباه القارئ على الدوام، ويصور لنا الشخصيات التى يصفها بحيث تبرز أمامنا كأننا نراها رأى العين. ومهما اختلفت وجهات النظر فى سيرته، فإنها تقف فوق مستوى سام جداً، بل تزداد قيمتها حين نعرف أنها من أقدم الكتب العربية الثرية التى وصلت إلينا .

ويبدو أن ابن إسحاق لم يكتف بتاريخه الجاهلى والنبوى، بل أراد أن يكمل التاريخ الإسلامى أيضاً، فألف "كتاب الخلفاء"^(١). ولكن هذا الكتاب فقد، ولم يصل إلينا منه غير فقرات عند الطبرى، تدون حوادث وقعت فى عهد الخلفاء الراشدين، وعثمان خاصة، بل بعض حوادث العهد الأموى أيضاً^(٢). ومع ذلك ليست هذه الفقرات كافية لأن تعطينا صورة واضحة نحكم بها على الكتاب .

وهذه فقرة من مغازيه فى غزوة مؤتة^(٣): "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة فى جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: "إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله

(١) ابن النديم: الفهرست ٩٢ وياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٤٠١ .

(٢) الطبرى: التاريخ ١ : ١٨٢٣ وما بعدها. والبلاذرى: فتوح البلدان ٢٧٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٧ ، وغيرها .

(٣) ابن هشام: السيرة ٤ : ١٥ .

ابن رواحة على الناس" .

"فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف. فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم. فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودع من أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى، فقالوا: "ما يبكيك يا ابن رواحة"؟ فقال: "أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباة بكم. ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، ويذكر فيها النار "وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا" فلست أدري كيف لى بالصدر بعد الورود" فقال المسلمون: "صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين" فقال ابن رواحة :

ولكننى أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة	بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى	أرشده الله من غاز وقد رشدا

الفصل الثالث

مظاهر الكتابة التاريخية

رأينا أن الكتابة التاريخية العربية نشأت من تيارين مختلفين:

(١) تيار قديم يتألف من القصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب، التي كان يرويها القصاص المتنقلون عن العرب الشماليين وأنسابهم وأيامهم، وعن ملوك العرب الجنوبيين وفتوحاتهم. وهي قصص لخمها وسداها الخيال المبالغ، تكثر بها الأشعار، التي كانت في بعض الأحيان، وخاصة في الأيام، المحور الذي تدور عليه القصة الثرية، حتى إنه عندما نسيت تلك الأشعار، اندثرت تلك القصص، فاضطر القصاص إلى استحداث أشعار جديدة وإحاطتها بقصص مبتكرة عن هذه الأيام. ولا تعتمد هذه القصص على توقيت تاريخي لحوادثها، بل تتناول الأحداث المهمة، والحروب خاصة، دون ربط بينها، ودون أن تنظم البحث في المجرى التاريخي العام. ويتمثل هذا التيار الخيالي في العهد الإسلامي في عبيد بن شربة ووهب بن منبه .

(٢) والتيار الثاني جديد استحدثه الإسلام وهو تيار السيرة، الذي يتكون من أخبار علمية دقيقة مضبوطة، متفرعة من علم الحديث، ولذلك نالها ما ناله من نقد وتمحيص. وكانت هذه السيرة تتألف من القصص الصحيحة والخيالية التي أحاطت بشخص الرسول بسبب إجلال المسلمين له. وأخذ المؤرخون يجمعون هذه القصص ويروونها، ويربطون بينها، مستعينين بالآيات القرآنية .

وقد لعب التيار الأول، وخاصة فرع الأيام منه، دورا فى هذا التيار، وخاصة فى الفترة المدنية من حياة الرسول، التى تمتلى بالغزوات. ويظهر هذا الدور فى طريقة تناولهم هذه الغزوات، فإنها تشبه طريقة تناول القصاص القدماء لآيام الجاهليين بل لعل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يمثل فى السير دور البطل فى قصص الأيام الجاهلية. ونذكر إلى جانب هذا كله آثارا يهودية ومسيحية، بل آثارا فارسية ضئيلة، وجدت أيضا فى هذه السير. وتظهر هذه الآثار جميعا عند وهب بن منبه الذى تعتبر كتابته روايات تاريخية لا كتبا تاريخية. ولكن تيار السيرة كان له صبغة علمية دقيقة فى المدينة أكثر منها فى أى موطن آخر، لارتباط المؤرخين فيها بالأحاديث الصحيحة أكثر من المؤرخين الآخرين، ويظهر هذا التيار العلمى الدقيق عند أبان وعروة .

وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية نشأت نشأة عربية خالصة، لا يد فيها للفرس أو اليونان فهذه الكتابة بجميع صورها استمرار لما كان يوجد فى الجاهلية أو تفرع لعلم الحديث العربى الخالص. وكان أوائل المؤرخين عربا، سواء كانوا من الجنوب مثل عبيد ووهب، أو من الشمال كأبان وعروة. ولكن هذه الحركة العربية ما لبثت أن تأثرت بمؤثرات خارجية من أهل الكتاب والفرس، بل صار جميع المؤرخين من الموالى فى أواخر القرن الثانى من الهجرة. وإذن فالتاريخ الإسلامى يخالف كثيرا من العلوم الإسلامية الأخرى فى نشأته العربية الخالصة، ولكن لا يلبث أن يقع فى أيدي الموالى مثل جميع العلوم الإسلامية الأخرى .

وأخذت هذه التيارات التاريخية المختلفة فى التطور، فنجد التاريخ القبلى الجاهلى أو الأيام والأنساب يعنى بها فى العراق خاصة، ويدخلها علماء اللغة فى نطاق أبحاثهم، إذ أنها تعينهم على فهم الأشعار التى يريدون جمعها وشرحها ويتمثل

لنا جهد اللغويين فى هذه الناحية فى نقائض أبى عبدة المتوفى عام ٢٠٩ هـ التى يروى فيها أخبار الأيام، ويطيل فى ذلك. أما العناية بالأنساب فتتمثل فى محمد ابن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦ هـ، وغيره من النسابين .

ونجد القصص الخرافية الشعبية تستمر فى الوجود، فيظهر عبيد بن شرية الذى يعنى بتاريخ القبائل البائدة من العرب، ووهب بن منبه الذى يعنى بتاريخ اليمن وأهل الكتاب، ويسير على النمط الجاهلى المأثور فى القصص الشعبية الخرافية المغرقة فى الخيال .

وأما تاريخ السير والمغازى المولود فى المدينة، والمتفرع من علم الحديث فقد تأثر منذ بادئ الأمر بذلك العلم، فظهر الإسناد عند أول كاتبين فيه، وهما أبان وعروة، وإن لم يصر ضربة لازم بل كانا يتجاهلانه كثيرا. وأخذت السير والمغازى تتطور سريعا، فنجد الزهرى يخطو بالتاريخ خطوة بارعة إلى الأمام، إذ يحاول الربط بين الأحاديث، بل يحاول تأليف خبر واحد من الأحداث المختلفة بعد إدماجها، كما يحاول ألا يجعل من التاريخ وقفا على فئة معينة من الناس، وإنما ينشره للجمهور كله. هذا إلى جانب عنايته بالأنساب، وخاصة أنساب قومه .

ويشرع مؤرخو المدينة فى الالتفات إلى ميادين تاريخية أخرى على يد عروة وموسى بن عقبة، إذ يمدان البحث فيشمل تاريخ الخلفاء الراشدين، ثم الأمويين وكان ذلك الامتداد من تأثير السيرة أيضا .

ويتوج هذا التطور بمحمد بن إسحاق المؤرخ الحقيقى، الذى يمثل نهاية تطور السيرة ذات النموذج الدينى عند المحدثين، وذات النموذج الملحمى عند القصاص الشعبيين، والذى يمد بحثه إلى آفاق بعيدة لم يرها المديون من قبل، وأعنى بها تاريخ الجاهلية، وتاريخ النبوات قبل محمد عليه الصلاة والسلام، وتاريخ الخلفاء بعد

محمد. فمحمد بن إسحاق هو المؤرخ الذى تتمثل فيه كل التيارات التاريخية الموجودة فى عصره .

وتمتاز الحركة التاريخية العربية بعدة ظواهر، نحاول أن نسجل بعضها هنا غير ما ناقشناه من قبل. وأول هذه الظواهر أن المؤرخين لم يكونوا موظفين حكوميين، وإنما كانوا أناسا عنوا بالتاريخ مجرد الرغبة الشخصية، وحباً فى ذلك العلم. ولذلك نجدهم يؤلفون ما يحلو لهم من كتب، وعما يحلو لهم من حوادث، دون أن تصدر إليهم الأوامر بتناول أمر من الأمور، وترك آخر، إلا فى أحوال نادرة كان يلتمس الحكام فيها من المؤرخ معالجة بعض الأمور التى تذلهم. وضمن لهم ذلك حرية الأداء، وصدق تناول، والنزاهة فى معالجة الأحداث، وخاصة أن أكثر هؤلاء المؤرخين كانوا رجال فقه وحديث .

وهاك مثالا يبين مقدار استقلال هؤلاء المؤرخين، وشجاعتهم فى الثبات على آرائهم، وعلى ما يعتقدونه صدقا. روى الشافعى عن عمه قال^(١): "دخل سليمان ابن يسار على هشام (بن عبد الملك) فقال: "من الذى تولى كبره منهم؟" (يشير إلى الآية فى حديث الإفك) قال: "عبد الله بن أبى بن سلول" فقال: "كذبت، هو على. يا ابن شهاب، من هو؟" قال: عبد الله بن أبى" فقال: "كذبت، هو على" قال: أنا أكذب، لا أبالك، فوالله لو نادانى مناد من السماء: إن الله أحل الكذب، ما كذبت. حدثنى سعيد بن المسيب، وعروة، وعبيد الله، وعلقمة بن وقاص، عن عائشة: "إن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى" قال: فلم يزل القوم يغرون به، فقال له هشام: "ارحل فوالله ما ينبغى لنا أن نحمل عن مثلك" قال: "ولم، أنا أغتصبتك

(١) الذهبى : تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٧٢ .

على نفسى أو أنت اغتصبتنى؟ فخلّ عنى" قال: "لا، ولكنك استندت ألف ألف"
فقال: "قد علمت، وأبوك قبلك، أنى ما استندت هذا المال عليك ولا على أهلك ..
وكان هؤلاء المؤرخون علماء يدرسون تلاميذ من الشعب، ويؤلفون كتبهم
لهؤلاء التلاميذ، وللشعب أيضا، غير معتمدين على الخلفاء فى الغالب، إلا عند
الشدائد .

والظاهرة الأخرى هى صحة الأخبار المروية عن الحوادث الإسلامية خاصة،
وقد أتتهم هذه الصحة من الطريقة التى عاجلوا بها هذه الأخبار. فهم لم يأخذوا إلا
عن العدول الثقات، واتبعوا فى ذلك ما اتبعه علماء الحديث فى نكدهم، فسلمت
لهم مجموعة كبيرة من الحوادث. وأتت هذه الصحة أيضا من ابتكارهم التوقيت
الكامل، حتى كانوا يوقتون الحوادث بالأيام والشهور والأعوام. وذلك مما يدعو إلى
التدقيق فى الأخبار وصحتها. حقا، إن هذا التوقيت بدأ ضعيفا مضطربا. ولكن
الروايات المختلفة من المصادر المتباينة جعلتهم يطمئنون إلى بعض التواريخ
ويستطيعون أن يتحققوا من صحتها .

ولكن هذه الروايات الكثيرة التى كانت تعتمد غالبا على الذاكرة سببت بعض
وجوه النقص والفوضى. فإن النسيان اعترى بعض هؤلاء المؤرخين، فجعل بعض
رواياتهم يضطرب، ويسوده الفوضى. ولكن على الرغم من هذا يجب أن نقول إن
تلك الظاهرة كانت نادرة، وكان المؤرخون يكتشفونها سريعا بفضل الروايات
الأخرى الآتية عن مصادر مخالفة للأولى .

وأدت العناية بالروايات المختلفة والأسانيد المتنوعة إلى التكرار إلى درجة
الإملال. فالحدث الواحد يوصف عدة مرات، دون أية زيادة أو تفصيل، على
حسب الأسانيد المختلفة التى روتها ولكن هذه الظاهرة - فيما يبدو - كانت سائدة

في الكتب الكبيرة وحدها. أما الرسائل الصغيرة فقد نجت من هذه الظاهرة، كما يبدو من سيرة سليمان بن طرخان .

وجعلهم تأثرهم بالأحاديث يصبون كل نقدهم على الأسانيد دون النصوص، مما يسر الانتحال والاختراع. فإن الإسناد يمكن اختراعه بسهولة. وهكذا يمكن القول بدخول بعض الموضوعات في الميدان التاريخي، وإن كانت هذه الظاهرة يجب النظر إليها على أنها ضعيفة نادرة بسبب نقدهم الشديد للرجال. ولكن لم يكن هذا النقد ذا فائدة كبيرة في ميدان التاريخ القبلي والقصصي والإسرائيليات .

وآخر الأمر نجد التاريخ الإسلامي بجميع صورته يسير على النمط المعروف عن الرواة الجاهليين، من سوق القصة التاريخية، وتقطيعها بالأشعار التي قد تشرح شيئا من الحوادث أو تعلق عليها، أولا تتصل بها إلا اتصالا طفيفا، وكذلك يعنون بسرد الرسائل والوثائق منذ أوائل عهدهم بالتاريخ .

وإذا ما أحببنا أن نتكلم عن أسلوب الكتب عامة، وجدناه عربيا سهلا بسيطا مبينا، ونجد تصوير الحوادث فيه وضوح وقوة وحياة، حتى ليشعر المرء بالحوادث تقع أمامه، لولا تقطع القصة بالأشعار والتكرار .

ونختم كلامنا عن الكتابة التاريخية بذكر المدارس التاريخية، التي ربما شعر بها القارئ من قبل. فإننا عند تدقيق النظر في تطور الحركة التاريخية نجد أن هناك ثلاث مدارس واضحة كل الوضوح .

المدرسة الأولى في الظهور هي المدرسة اليمنية التي يمثلها عبيد بن شربة، ووهب بن منبه. وهي المدرسة التي تظهر فيها الكتابة التاريخية العربية للمرة الأولى. وهي تعنى بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ اليمن، وتسرد التاريخ قصصا خيالية

وأساطير شعبية. فهي تمثل استمرار التيار الجاهلي أصدق تمثيل، ولذلك نستطيع أن نطلق على مؤرخيها اسم القصاص الشعبيين، أو الإخباريين، وعلى كتاباتهم اسم الروايات التاريخية .

والمدرسة الثانية مدرسة المدينة، وهي تتألف من الفقهاء والمحدثين من أمثال أبان وعروة والزهرى. وهي مدرسة التاريخ العلمى الدقيق الذى يعنى بالسيرة والمغازى ويسير على خطا علم الحديث، ويعنى بالأسانيد، وتتطور مادة هذه المدرسة، فتتسع وتشمل تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين .

وأما المدرسة الثالثة والأخير فى الوجود فمدرسة العراق، ويمثلها عوانة وأبو مخنف الكلبي وغيرهم. وهذه المدرسة واسعة الصدر تعنى بكل تيارات التاريخ الجاهلي والإسلامى. وتعطى عناية خاصة لتاريخ الخلفاء، وكان من أثر عنايتهم تلك أن احتل العراق المراكز الأولى فى هذه التواريخ. لذلك نجد تاريخ العراق وأحداثه مفصلة مطولة لدينا، بينما الأمصار الأخرى، لا تنال غير الإشارات .

ثم نجد هذه المدارس الثلاث تلتقى فتخرج لنا محمد بن إسحاق. فيتناول هذا المؤرخ تاريخ اليمن وأهل الكتاب مثل اليمانيين، ويتناول السيرة مثل المدنيين، وتاريخ الخلفاء مثل العراقيين. بل نجد عنده خصائص المدارس الثلاث، من قصص شعبية، وأسانيد، وأشعار لتحلية القصص، ومن أخبار أهل الكتاب، وباختصار جميع ما فى المدارس يوجد عند محمد بن إسحاق.

خاتمة

هذه هي الكتابة العربية فى نشأتها، قد عرضتها فى مراحلها المختلفة عرضا شاملا، مدققا، يحاول أن ينفذ إلى الأعماق، ويستكشف فى الظلمات، ما يستهدى به إلى السبيل السوى .

وقد رأينا العصر الجاهلى لا يعرف من الكتابة غير بعض المعاهدات والأحلاف وبعض العقود التجارية، وما إلى ذلك مما يمكن تسميته بالكتابات السياسية والاقتصادية أما الكتابة الفنية فلم يعرفها ذلك العصر، ولم تصل إلينا منه أية شواهد كتابية فنية .

وعندما جاء الإسلام انتشرت الكتابة انتشارا كبيرا، وظهرت الرسائل المتبادلة بين النبى والرؤساء، وبين الخلفاء والولاة، بل ظهرت أنواع كثيرة من الكتابات السياسية، والكتابات الدينية، والكتابات الإخوانية. ولكنها كانت كتابة صريحة بسيطة لا ترمى إلا إلى مجرد الإفهام، دون محاولة للتزين أو التجميل، وإن كانت فى أواخر الصدر الأول من الإسلام ظهرت عليها بعض المظاهر التى تنبئ عما ينتظرها فى العصر القادم من عمل وفن .

ومنذ أوائل العصر الأموى ظهر كتاب محترفون، وظهر ديوان الرسائل. فعرفت الرسائل الفن، وتنافس الكتاب فى إظهار البراعة والفصاحة، ليكسبوا رضى الخلفاء وعطفهم. فظهرت أمامنا عدة ظواهر تدل على تطور الكتابة وترقيتها فهذا كاتب يطيل، وذلك يكثر من الغريب، وثالث يستعمل السجع، ورابع ينتقى ألفاظه ويهذب صيغتها، إلى غير ذلك .

وأخيرا تظهر حلقة من الكتاب فى بلاط هشام بن عبد الملك يتزعمهم سالم مولاہ، فتأخذ من الثقافات اليونانية والفارسية ما تجمل به أفكارها وأساليبها. وتتمثل هذه المدرسة بأجلى مظاهرها، وأوضح خواصها، فى عبد الحميد الكاتب، الذى كان يمثل أيضا تطور الخصائص الكتابية منذ البداية إلى النهاية. فعبد الحميد إذن العلم البارز فى الصدر الأول من تاريخ الكتابة العربية الفنية، وهو الذى اطلع على كتابات من سبقه، وتشبع بها، وهضمها، وأخرجها خصائص يتحلى بها وكأن لم يتحل بها أحد قبله. ولكن عبد الحميد - كما رأينا - لم يكن متبعا فحسب، بل كان مبتدعا أيضا، مبتدعا فى أسلوبه الذى لم يرتفع إليه أحد قبله، ومبتدعا فى أفكاره التى استخلصها من المصادر الثقافية المختلفة فى الشرق العربى فى ذلك العصر. فكان العلم البارز من بين سابقه، والمنار الهادى للاحقيه، ينظر إليه كل من أراد الجمال والفصاحة فى كتابته .

وصفوة القول إن كتابة الرسائل بجميع أنواعها نشأت فى عصر مبكر، بدافع من الظروف والعوامل التى كانت تحرك الجماعة العربية فى عصرها ذلك. فهى ثمرة الثورة التى قام بها الإسلام، وأخضع العرب لها، أمدهم بأسسها التى يقيمون عليها حياتهم الجديدة. وإذن فكتابة الرسائل الفنية العربية كانت ظاهرة حتمية لم يتجنبها العرب، وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها، بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة، التى ذهبت بنظمهم الجاهلية السياسية أدراج الرياح، وأقامت نظما أخرى سامية الذرى، شامخة البيان. فالعرب ما كانوا يستطيعون بعد انتشار الإسلام أن يرجعوا إلى جزيرتهم، وأن يرجعوا إلى نظمهم القبلية فى الحياة الاجتماعية والسياسية. وكذلك ما كانوا قادرين على الرجوع إلى الشعر والخطابة وحدهما فى حياتهم الأدبية. وإذن نعود إلى القول بأن الكتابة الفنية العربية وليدة الثورة التى قام بها محمد عليه

الصلاة والسلام، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير، وحولت أنظار العالم القرون الطوال إلى تلك الأصفاع الإسلامية، التي سترى من الحضارة والرقى ما لم يره كثير من شعوب العالم المتمدين .

ونحن نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية كل رفض، فهي ليست مما أدخله الفرس أو اليونان على العرب، وليست مما أدخله غير الفرس واليونان، وإنما هي ظاهرة عربية خالصة، لا يد في نشأتها لأحد غير العرب الذين فتح الإسلام أبصارهم وأفهامهم، وأمدهم بالروح الذى سيلبغ بهم إلى ابتكار ما لم يعرفوا، وإلى الاتصال بما لم يتصلوا به من قبل، وإلى الشغف الشديد، والحماس المفرط، بالعلم والمعرفة. ولكن رفضنا هذا لا يشتط إلى درجة رفض كل تأثير أجنبى، بل نحن نقبل هذا التأثير، ونقول بوجوده، وربما بقوته. فهؤلاء الموالى سرعان ما ينافسون العرب فى هذا الميدان، منافستهم لهم فى الميادين الأخرى، وسرعان ما يزاومونهم على مورد الكتابة الفنية، ولقد اغتصبوه أخيرا. فكان عبد الحميد وأستاذه بشرى للموالى بما سيكون لهم من مكانة فى هذا الميدان فى مقتبل الزمان .

وإذا كنا نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية، فإننا أشد رفضا للقول بأجنبية الكتابة التاريخية العربية. فقد ظهرت هذه الكتابة من العناية بالأحاديث الشريفة وجمعها. فعلم التاريخ العربى الإسلامى وليد علم الحديث الإسلامى العربى المحض .

أما ما كان فى الجاهلية فأقاصيص خرافية وأساطير شعبية عن الأيام والملوك العرب والفرس، وربما الرومان. أما نشأة كتابة التاريخ المنظمة الدقيقة فكانت على يد العرب من المسلمين بدافع من العناية بجمع الأحاديث. وكانت هذه الكتابة سريعة التطور، من مجرد جمع لأحاديث دون رابط بينها، إلى تدوين لتاريخ الأنبياء، وتاريخ العرب الجاهليين والإسلاميين على يد ابن إسحاق، فى مدى قرن من الزمان تقريبا .

وقد رأينا عند العرب ثلاث مدارس تاريخية، كلها عربى النشأة، وكلها يستمد تقاليدہ مما كان شائعا عند العرب فى الجاهلية، ومما استحدثه الإسلام. وقد نقول إن الموالى زاحموا العرب فى هذه الكتابة أيضا، ولكننا نقول ذلك على أنهم تناولوا هذه الكتابة بعد أن أعطاهما العرب الصورة التى ستبقى عليها فى يد هؤلاء الموالى، ولن يدخلوا عليها غير قليل من التعديل، وإن أدخلوا فى الأخبار نفسها كثيرا مما جلبوه من بلادهم وثقافتهم .

وإذن نستطيع أن نصرح، ونحن على أهبة وضع القلم، بأن الكتابة الفنية العربية، بجميع صورها من رسائل سياسية، ودينية، وإخوانية، ومن كتابة تاريخية، عربية النشأة، لم تأتھم عن فرس أو يونان أو هنود، وإنما نشأت على يدهم وفى بلادهم، وبدافع من حاجتهم إليها، ووحى مما خلقه الإسلام من تيارات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية تسيطر على الجماعة العربية. ولكنها ما كادت تسير قليلا حتى أمدتها الروافد من كل جانب، روافد هندية وفارسية من الشرق، وروافد هندية من الشمال والغرب، والشرق أيضا، وروافد أخرى ضئيلة الأثر. وقد لا تظهر هذه الروافد فى عصرنا هذا، ولكن ستظهر وتؤتى ثمارها فى العصور القادمة.

المراجع

- ١- أوليري، بلاد العرب قبل الإسلام، طبع ١٩٢٧ .
Oleary: Arabia before Muhammed
- ٢- أحمد أمين، فجر الإسلام ١٩٢٨ .
- ٣- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق دي غويه .
- ٤- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .
- ٥- خليل يحيى نامى، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، طبع ١٩٣٥ م .
- ٦- الجهشياري، الوزراء والكتاب، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .
- ٧- السيد عبد الحى بن عبد الكبير الحسنى الكتانى الإدريسى الفاسى، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كات على عهد تأسيس المدينة الإسلامية فى المدينة المنورة، طبع الرباط .
- ٨- زكى مبارك، النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى، طبع دار الكتب المصرية .
- ٩- مرسيه، المجلة الإفريقية، العددان ٣٣٠ ، ٣٣١ ، عام ١٩٢٧ .
Marcais: Revue Africaine, Nos 330, 331 (perme Trumestre, 1927)
- ١٠- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، الطبعة الأولى .
- ١١- الطبرى، التاريخ، طبع أوربا .
- ١٢- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، طبع أوربا .
- ١٣- الأزرقى، أحبار مكة، المطبعة الماجدية .
- ١٤- ابن عبد البر، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، طبع الهند .

- ١٥- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه فى النثر العربى، ١٩٤٦م .
١٦- ابن النديم، الفهرست، طبع أوربا .
١٧- ابن سعد، الطبقات الكبير، طبع أوربا .
١٨- هوروفتس، المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف، طبع الخانجى .
١٩- الحيدر آبادى، مجموعة الوثائق السياسية فى عهد النبوة، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٢٠- اشبيربر: كتب محمد إلى القبائل العربية **Dr. Sperber: Die Schriben**

Muhammads an die Stämme Arabiens - Mitteilugngen
des Seminars für Sprachen

- ٢١- أنيس المقدسى، تطور الأساليب النثرية، طبع بيروت .
٢٢- القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، طبع دار الكتب المصرية .
٢٣- أحمد صفوت، جهرة رسائل العرب، طبع الخلبى ١٩٣٧ .
٢٤- ابن قتبية، الإمامة والسياسة ١٩٠٤ .
٢٥- أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، طبع الخانجى .
٢٦- رسالة الحسن البصرى، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢١ أدب .
٢٧- ياقوت ، معجم الأدباء، تحقيق مرجليوث .
٢٨- الدينورى، الأخبار الطوال، طبع ليدن .
٢٩- ابن خلكان، وفيات الأعيان .
٣٠- محمد كرد على، أمراء البيان ١٩٣٧م .
٣١- دائرة المعارف الإسلامية، مواد "تاريخ" و "سيرة" ومواد أسماء المؤرخين .

- ٣٢- عبد الحميد العبادى، علم التاريخ تأليف هرنشو، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٣٣- ابن حجر، تهذيب التهذيب، طبع الهند .
- ٣٤- وهب بن منبه، كتاب التيجان، طبع الهند .
- ٣٥- كرنكو، أقدم كتابين فى الأدب الشعبى الإسلامى، مجلة الثقافة الإسلامية، ١٩٢٧ .
- ٣٦- حاجى خليفة، كشف الظنون، طبع أوربا .
- ٣٧- الذهبى، تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم، تحقيق فيشر .
- ٣٨- البلاذرى، الأنساب، تحقيق آلورد .
- ٣٩- سخاو، القطعة البرلينية من مغازى موسى بن عقبة .
- ٤٠- عبيد بن شرية، أخباره، طبع الهند .
- ٤١- سليمان بن طرخان، السيرة الصحيحة، تحقيق فون كريمر .
- ٤٢- مرغليوث، محاضرات عن التاريخ العربى - طبع الخانجى .
- ٤٣- الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، طبع الخانجى .

انتهى بحمده تبارك وتعالى

محتويات الكتاب

رقم الصفحة	اسم الموضوع
٥	مقدمة
٧	تمهيد
١٣	الجزء الأول : كتابة الرسائل :
١٥	الباب الأول: الرسائل السياسية :
١٥	الفصل الأول : العصر الجاهلي
٣٥	الفصل الثاني : صدر الإسلام
٦٧	الفصل الثالث : عهد الأمويين
٨٥	الباب الثاني : الرسائل الإخوانية :
٨٥	الفصل الأول : صدر الإسلام
٩٣	الفصل الثاني : العصر الأموي
١٠٥	الباب الثالث : الرسائل الدينية :
١٠٥	الفصل الأول : الرسائل الوعظية
١٢١	الفصل الثاني : الرسائل الجدلية
١٢٩	الباب الرابع : الكتاب
١٢٩	الفصل الأول : حلقة سالم
١٣٥	الفصل الثاني : عبد الحميد بن يحيى

رقم الصفحة	اسم الموضوع
١٧٣	الجزء الثاني : الكتابة التاريخية :
١٧٥	تعريف :
١٧٧	الفصل الأول : ظهور الكتابة التاريخية
١٨٣	الفصل الثاني : المؤرخون وكتبهم
٢٣٧	الفصل الثالث : مظاهر الكتابة التاريخية
٢٤٥	خاتمة
٢٤٩	المراجع
٢٥٣	الفهارس